



الزواير السملية في مرحلة التأسيس

فصول من حياة الشيخ الصوفي
أحمد بن موسى السمللي الجزولي التزروالتي

853هـ/1449م - 971هـ/1564م

د. خديجة الراحي

سلسلة الكتب الرقمية للكلية (1)
إصدار 2020

سلسلة الكتب الإلكترونية لكلية الآداب
والعلوم الإنسانية (1) / 2020

ISBN 978-9954-9327-9-7

تقديم

يسعدني أن أقدم هذا العمل الهام الذي تقدمت به الزميلة الدكتورة خديجة الراجي للطبع بالمؤسسة بالصيغة الإلكترونية ،
ويعد بذلك أول عمل تقدمه للمهتمين من خلال الانفتاح على النشر الرقمي لما له من قيمة علمية هامة. وقد توافر فيه جميع شروط
الجودة والتميز، والاحترام التام للضوابط الأكاديمية المتعارف عليها. وهكذا نجد أن الأستاذة المحترمة انطلقت من رغبتها التي تشتغل
عليها منذ سنوات في دراسة بعض الجوانب من تاريخ زاوية تقع في قلب سوس، وتمتد جذورها إلى بداية القرن 10هـ/16م.
من خلال استقراء المصادر التاريخية والنصوص المنقوية في مدة زمنية محددة تمتد من 853هـ (تاريخ ولادة الشيخ احمد
أوموسى) إلى 971هـ (تاريخ وفاته).

ولا يخفى هذا الاهتمام المتزايد بتاريخ الزوايا بالمغرب في ساحة البحث العلمي بالجامعات المغربية ، وغيرها . وكان
لشخصيتي احمد أو موسى و علي بودميعة السملالي النصيب الأوفر في العمل نظرا لأهميتها، وترابطها، ومفصليتها في مرحلة
الفترة المدروسة.

وتراوح المتن المصدرى والمرجعي المعتمد في هذا العمل ، والمشتغل به -فضلا عن شخصية الباحثة المهمة بالتدقيق
والتحقيق ، وتتبع تفاصيل الموضوع - بين الكتابات العاملة المحلية ، والأخرى الأجنبية، وكتب الرحلات، والوثائق الخاصة ، وما
يتداول من الروايات الأسطورية التي تختلف طبيعتها من حيث المرجعية، والتوجه والرهان، والمنهج المتبع، والأهداف المتوخاة . مع
التركيز اساسا على كتب التراجم والمناقب واستقراءها من زوايا سياسية، واجتماعية، واقتصادية، وبشرية ، وجغرافية. مع تبني
الدراسة المقارنة. وهذه طريقة مميزة في الاشتغال الأكاديمي بالموضوع.

واللافت في هذا العمل هو حرص الأستاذة على تمكين القارئ بلغة سهلة، سلسلة مستساغة، من نظرة موجزة دالة عن
ما كتب في الموضوع قبلها سواء عند ما يمكن تسميته بالمدرسة الكولونيالية أو المراسلات، أو التقييدات، أو النوازل، أو المجاميع، أو
مرتبة ترتيبا كرونولوجيا يدل على حرص المؤلفة على تتبع الظاهرة في المراحل المختلف ، والمتباينة.
ولهذه الاعتبارات وغيرها تقدم هذا العمل المتسم بالجدية ، والوضوح في الطرح العلمي للقارئ ونعتبره يستحق أن يكون
باكورة توجمنا الجديد لتجويد العرض العلمي بالمؤسسة الذي اخترناه منذ مدة.

العميد : أحمد بلقاضي

عملنا هذا اسهام في دراسة بعض الجوانب من تاريخ زاوية تقع في قلب سوس، وتمتد جذورها إلى بداية القرن 10هـ/16م. عمدنا فيه إلى استقراء المصادر التاريخية والنصوص المنقبة للوقوف على ظروف وآليات تأسيسها ومحاولة مقارنة بعض الجوانب الصوفية التي جعلتها متميزة عن باقي زوايا العصر السعدي. هذا وإن اهتمامنا بالزاوية السملالية التازروالتية في فترة تاريخية محدودة تغطي النصف الأول من القرن 10هـ/16م أو تزيد على ذلك أو تقل قليلا، لا يعني توقف العمل الصوفي لهذه الزاوية بل سيستمر هذا العمل ليتخذ أبعادا أخرى، سياسية واقتصادية، نتيجة ظروف داخلية وخارجية. وإن اهتمامنا بهذه الزاوية بذاتها، وفي مدة زمنية محددة تمتد من 853هـ (تاريخ ولادة الشيخ احمد أوموسى) إلى 971هـ (تاريخ وفاته)، نابع من قناعات أساسية نعرضها تباعا.

اهتم المؤرخون بدراسة المجتمع المغربي عبر دراسات مونوغرافية تخصص لقبيلة أو مجموعة من القبائل، كما اكتست دراسة الزوايا المغربية خاصة، خلال العقود الأخيرة من القرن الماضي، أهمية كبرى بهدف تخلص تاريخها من التعميم وتنقيته مما روجه الدارسون الغربيون من مفاهيم. وبالفعل، فخلال اهتمامنا بدراسة تاريخ سوس، لفتت انتباهنا الأهمية التي نالتها الزاوية السملالية سواء لدى سلاطين الدول المغربية، السعدية والعلوية، أو الدول الأوربية (كما يظهر ذلك في المصادر الدفينة لتاريخ المغرب التي تزخر بمعلومات عن علاقة هذه الزاوية بالأوربيين)، وكنا كلما تعمقنا في التعرف على مظاهر هذا الاهتمام، تراءت لنا شخصية علي بودميعة السملالي التي كادت أن تحجب عنا ما قبلها، ومن ثمة فإن أية محاولة لرصد تاريخ تازروالت أو تاريخ الزاوية السملالية أو تاريخ دار البيغ تتم عبر الحديث المفصل والكثيف عن علي بودميعة باعتباره المؤسس والمحور. ورغم أهمية دور الشيخ احمد أوموسى فإنه لم يحظ إلا باهتمام محدود فيما كتب من تاريخ هذه الأسرة، لذلك نعتقد أنه من المفيد، حقا، أن نوضح هنا كيف أن الوقوف عند بدايات الزاوية السملالية لن يخلو من أهمية تاريخية؛ لأنها تتزامن وتكون اتجاه ديني وسياسي واقتصادي ساهمت الزوايا في وضعه.

يبدو المجال المكاني لهذه الدراسة ضيقا، كما تبدو الفترة الزمنية المختارة قصيرة ومضطربة نتيجة الظرفية العامة للبلاد في نهاية القرن 15م وبداية القرن 16م. ويبقى الاقتصار على الشيخ احمد أوموسى متعمدا حتى نتخلص من هيمنة علي بودميعة على تاريخ الأسرة السملالية، وفي هذه التجربة طرح للإمكانات التي توفرها مثل هذه الدراسة من خلاصات قد تعيد الاعتبار للشيخ المؤسس وتسלט الضوء على مختلف المصادر والوثائق الكفيلة بذلك.

ونحن مقتنعون بأن الاقتصار على جمع معلومات جزئية عن حياة الشيخ احمد أوموسى لا يؤدي إلى نتائج كبيرة، بالرغم من كون ذلك الجمع والتحقيق أمرا مهما في حد ذاته. فقد جمع الباحثون الأجانب (Laoust-Roux) والمغاربة (العلامة المختار

السوسي) الكثير منها، ولكنهم قلما درسوا علاقة ذلك بالجانب السياسي، أو ربطوه بالجانب الاقتصادي والاجتماعي.

وبما أن غرضنا هو دراسة علاقة الزاوية بمحيطها الاقتصادي والاجتماعي فإننا سعيينا إلى إفراغ بدايات الزاوية من قالبها الأسطوري واصباغها بصبغة تاريخية، فتتبعنا التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي عرفتها المنطقة، المدروسة، وربطنا ذلك بوظائف الزاوية وتوجهاتها لنخلص إلى أن الفضاء الروحي والمادي، الذي بزغت فيه مواهب وسلوكات الشيخ احماذ أوموسى يقارب أو يماثل فضاء تازروالت خلال القرن 16م بكل ما يحمله هذا الفضاء من بعد اقتصادي وسياسي.

تعتمد هذه الدراسة كمنطلق رئيسي على كتب التراجم والمناقب لكنها تتوخى الوصول إلى نتائج علمية تمكن من الوقوف، ولو جزئيا، على بعض تجليات الأدوار الاقتصادية والاجتماعية للزاوية السملالية في فترة عرفت تحولات سياسية واجتماعية واقتصادية ملحوظة. حاولنا أيضا الاستفادة مما تجود به كتب الرحلات والوثائق الدفينة على أننا لم نغفل الدراسات والأبحاث الحديثة حول الموضوع، والتي ساهمت، على قلتها، في لفت انتباهنا إلى نقط جزئية، أو عامة حددت نوع القراءة التي خضع لها الشيخ احماذ أوموسى . فالباحث ناعمي، مثلا مع وعيه (في مقالته المعنونة-احماذ أوموسى- في معلة المغرب، ج 1، صص. 160-165) بأن الشيخ احماذ أوموسى معروف لدينا اليوم من خلال رؤية الآخرين إليه فإنه ركز من جمته على دور "منهجية الصمت المطبق" في تميز الشيخ احماذ أوموسى عن معاصريه من أولياء ومتصوفة القرن 16م.

نقترح إذن على القارئ هذه الرحلة الاستكشافية للعديد من المعطيات المادية والبشرية والجغرافية، وسنطلق في هذه الرحلة من إشكالية العلاقة بين الزاوية السملالية ومحيطها البشري والاقتصادي. علما منا بأن زوايا القرن 10هـ/16م لعبت دورا واضحا داخل مجتمعاتها، مما قد يجعل التعاريف المعطاة لها قاصرة عن الإلمام بكل تلك الأدوار. فباعتمادنا التعريف الذي قدمه محمد حجي للزاوية باعتبارها "المكان المعد للعبادة وإيواء الواردين المحتاجين وإطعامهم" (الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، المطبعة الوطنية، الرباط، 1964، ص 25) أو حين القبول بتعريف محمد مفتاح بكونها "موضوع العبادة والجهاد والاجتماع أو مظنة لهما دائما أو غالبا أو قليلا" (التيار الصوفي والمجتمع في الأندلس والمغرب أثناء القرن 8هـ/14م، رسالة جامعية، الرباط 1981، ج 1، ص 34)، نكون قد اختزلنا معطيات الفترة المدروسة وقفزنا على طابعها التحولي. لذلك نرى مع عبد اللطيف الشاذلي بأن الزاوية، بمقتضى معطيات المرحلة التي تهمننا "مؤسسة اجتماعية اقتصادية ذات أساس ديني" (المجتمع المغربي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر من خلال الآداب الصوفية، بحث لنيل دكتوراه الدولة، الرباط 1987، ص 191)، وهي بذلك لا تشكل شيئا خارجا عن المجتمع بقدر ما تكون جزء من أجزائه.

وإن تناولنا للزاوية، كما أشرنا إلى ذلك، يركز بالأساس على بداياتها، ونحن إذ ندرك تمام الإدراك صعوبة الخوض في بدايات الأسرة والزاوية، نظرا لتعدد الروايات وتعدد الراويين، ورغم ما ينتابنا من إحساس بالتقصير وضعف الإمكانيات، فإننا سنحاول التطرق، ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، إلى أوجه تفاعلات الزاوية السملالية مع محيطها القبلي والاقتصادي للخروج من الإطار العام الذي حددته الدراسات السابقة في هذا المجال. فرغم فضل السبق الذي تتمتع به الدراسات، ورغم الريادة

التي لا نجادل في كونها حقيقتها، يبقى عملها نظيا حدد دراسة الزوايا في نقط أساسية تجعل تناول بداياتها أو ما يصطلح عليه بفترة الشيخ المؤسس ثانوية بالقياس مع الحجم الذي احتله باقي الفترات، كما قل أن اهتمت هذه الأبحاث بوصف القاعدة الاجتماعية والاقتصادية للزوايا في فترة التأسيس واعتبرتها معروفة سلفا.

واعتبارا لهذه العوامل كلها اخترنا الخوض في هذا الموضوع بناء على مبدئين اثنين:

أولهما: استغلال أبسط الأشياء وأقلها في محاولة لاستجلاء الغموض، الذي يحيط بالفترة، وبعبارة أخرى الاعتناء بكل ما كتب عن الشيخ وكل ما قيل عنه من روايات شفوية أو مكتوبة لكونها توفر إمكانية ما للوقوف على بعض حثيات الماضي. وهذا ما يفسر اهتمامنا المكثف بالكرامات والتعامل معها على أنها من بين المواد السانحة رغم روحانيتها بالكشف عن بعض تجليات الماضي، وذلك باعتبارها إما تشكيلا للواقع الذي تعبر عنه أو أسلوبا رمزيا للتعبير عن مشاكل المجموعات التي صدرت عنها. (الشاذلي، المرجع السابق، ص 61)

ثانيهما: اعتمادنا على الدراسة المقارنة كضرورة تفرضها قلة المادة التاريخية وتشابه الظروف التي أنتجت زوايا مجاورة، وكذا وحدة نبعها الصوفي، وبالتالي تقارب توجهاتها العامة. وهذه الدراسة المقارنة ستساهم، ولا شك في الوقوف على الخصائص المميزة للزاوية المدروسة مع فتحها الباب أمامنا للكشف عن بعض القوانين التي تحكم زوايا الجنوب المغربي والمنتمة إلى نفس الفترة التاريخية (النصف الأول من القرن 10هـ/16م).

واعتادا على هذين المبدئين تعاملنا مع النصوص بنوع من الحرية للنفاذ، قدر الإمكان، إلى عمقها.

I) الزوايا من خلال بعض الأبحاث والدراسات

نالت أغلب الزوايا الكبرى في المغرب حظها من الدراسة، سواء كانت هذه الدراسة علمية جادة أو استعمارية. ويمكن التمييز بين تلك التي أنجزت في عهد الاستعمار والتي نجد ملخصا لتوجهاتها العامة في مقال لميشو بلير (Michaux-bellaire) استهله بما يلي: "يجب أن نتكهن بفضل تعاون منهجي، من تحقيق عمل ضخم عن الزوايا مثل ذلك المنجز في الجزائر من طرف الضابط ران (Rinn) وديبو (Depont) وكوبولاني (Coppolani) وكذا في السودان من طرف الضابط مارتي (Marty)، وان هذا ليس عملا ظرفيا ينتهي باتهاء الأسابيع القليلة بل إذا عمل كل منا على تحقيق دراسة دقيقة، فإن تجميع كل هذه الدراسات يمكننا من إنجاز عمل جماعي مهم ومفيد لسياستنا المحلية"¹. أعد سبيلمان (Spillman) دراسة حول زاوية أحصال² وحدا حدوه ج سالمان (G.Salman) من خلال جمعه للعديد من الأساطير المنسوبة لمولاي بوسلهام³. كما خصص بودان (Marcel Bodin) من جهته دراسة لزاوية تامكروت⁴، ناهيك عن المؤلفات الأخرى التي اهتمت بالطرق الدينية بصفة عامة كمؤلف بلير (Bellaire) الذي قدمه تحت عنوان: "Essai sur l'Histoire des Confréries"⁵.

¹ - Michaux-Bellaire, «Conférences Faites au cours Préparatoire du Service des Affaires Indigènes», in Archives Marocaines, Volume 26, 1927, p. 1.

² - Spillman (G), *Trois Zouias berbères du Maroc Central*, Dila, Ahnsal, Imhiouach, (S.L). (S.E), 1938.

³ - Salman (G), «Quelque légendes Relatives a Moulay Bou Selham», in Archives Marocain, pp 412-421.

⁴ - Bodin (Marcel), «La Zouia de Tamegrout», in Archives Berbères, 1918, p. 295.

⁵ - Michaux-Bellaires, «Essai sur l'Histoire des Confréries Marocaines», in hesperes, 1^{er} Trimestre, 1921, pp 141- 149.

ومؤلف دارك (Drague) المعنون بـ "Esquisse d'histoire religieuse du Maroc"¹.

ولعل الخاصية المشتركة بين كل هذه الدراسات الغربية،² هو ميلها الملحوظ نحو تنشيط الرواية الشفوية على حساب المصادر المكتوبة مع ما تحمله هذه الرواية من خوارق وأحداث غير تاريخية. على أن هذا العمل وإن كان إيجابيا في بعض جوانبه، خاصة منها ما يتعلق بتوثيق الرواية الشفوية وحفظها من الضياع، فإن عمل هؤلاء باعتبارهم بعيدين عن الحقل التاريخي، كان منصبا على دراسة الخصوصيات الجزئية لكل منطقة لتسهيل تمرير مشروعهم الاستعماري³. وقد خرج العديد من الباحثين الاستعماريين بنظريات متناقضة حول أدوار الزوايا وعلاقتها بالسياسة من جهة والمجتمع من جهة ثانية، فمنهم من اعتبر الولي أداة من أدوات المخزن، يمارس بواسطته السلطة على مناطق نائية عن المركز، ومنهم من اعتبره عاملا من عوامل التجميع الاثني لما هو محلي وجهوي لضرب قوة المخزن⁴. أما الصنف الثاني من الدراسات المنجزة حول الزوايا فيدخول في عمومها في إطار تحضير إحدى الشهادات العليا⁵. وفي خضم هذا العمل الأكاديمي، سعى الباحثون إلى غربة الحقائق وتقريب القارئ من الصورة التاريخية لهذه الزوايا، كما رغب أغلبهم في إعادة قراءة المصادر المحلية للمنطقة المدروسة من وجهة غير الوجهة الاستعمارية، فجاءت أغلب هذه الأبحاث والدراسات على نفس النمط. إذ بعد عرض للوضع العامة لظهور هذه الزاوية أو تلك، ينتقل الباحثون إلى دراسة جانب التصوف في الزاوية مركزين على أسانيدھا وطرق تربيتها للمريدين، وكذا علاقتها مع المجال المحيط بها من قبائل ومخزن. على أن أيا من هذه الأبحاث، لم يسع إلى تعميق البحث في هذا الشطر الثاني مكتفيا بالإشارة إلى الوضع الفكري والديني للزاوية على عهد الشيخ المؤسس⁶، ولا يأخذ الجانب السياسي والاقتصادي حيزا كبيرا من الاهتمام إلا في المرحلة الثانية أي حين الحديث عن ورثة الشيخ المؤسس، وقد يكون هذا النهج المتبع صالحا لدراسة بعض الزوايا في فترة تأسيسها، لكنه، كما يبدو، لا ينطبق على كل الزوايا⁷. فحينما نجد الزاوية من وضعها الجغرافي والاجتماعي والاقتصادي في فترة التأسيس ونجعل من شيخها مجرد صوفي متقشف منعزل عن القاعدة البشرية المحيطة بالزاوية، نكون بذلك قد قطعنا الصلة بينه وبين الظروف العامة التي رسمت حياته. وإذا كانت زاوية تامصلوحت لم تتطور بمعزل عن اقتصاد الحوز، فكذلك الشأن بالنسبة للزاوية الدلائية بتادلة، والزاوية الوزانية بوزان، والزاوية الناصرية بتمكروت في درعة، والزاوية السملالية بتازروالت، والزاوية الشرقاوية بأبي الجعد...إلخ.

وعموما يمكن أن نستخلص أن هؤلاء الباحثين قد اعتمدوا مقولة ابن خلدون⁸ التي روحها باسكون فيما بعد⁹ والتي تتلخص في أسبقية "الرأس المال الرمزي" على "الرأس المال المادي" إذ يرتبط الرأس المال الرمزي بظهور الشيخ وتأسيسه

¹ - Drague (G), «Esquisse d'histoire religieuse du Maroc», in Cahiers de l'Afrique II, J. Peyronnet et Cie, Éditeurs, Paris, 1951.

² - وإن كانت هذه الدراسات تختلف في تصورهما للزاوية. فميشو بليير (Michaux-Bellaire)، مثلا يرى أن الزاوية الناصرية مجرد زاوية صنهاجية كبرى. وهذا لم يرق لسبيلمان (Spillman) الذي يراها زاوية محلية، راجع في هذا الصدد:

Laroui (A), Les Origines Sociales et Culturelles du Nationalisme Marocain (1830-1912), Francois Maspero, 1977, p 133

³ - راجع ما سجله عنها إيكلمان في: الإسلام في المغرب، ترجمة أعيف، دار توبقال للنشر، الطبعة 1، 1989، ص. 44.

⁴ - Hammoudi (A), «Sainteté, pouvoir et Société, Tamgrout aux XVIIe et XVIIIe Siècles», in Annales Économies Sociétés, Civilisations, Mai-Aout 1980, p. 615.

⁵ - من بين هذه الدراسات والأبحاث:

- محمد حجي، الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، المطبعة الوطنية، الرباط، 1964.

- محمد بوكاري، زاوية أبي الجعد الشرقاوية، رسالة جامعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1983-1984، مرقونة، رقم. 956.05 بوك.

- محمد المازوني، آل أمغار في تيط وتامصلوحت، رسالة جامعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1986، مرقونة، رقم. 218.9 مزار.

- محمد مرزوق، الشيخ محمد بن أبي زيان وزاويته، رسالة جامعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1987، مرقونة، رقم. 364.02 مرز.

⁶ - يمكن أن نستنتج هنا عمل محمد مرزاق حول: الشيخ محمد بن أبي زيان وزاويته بالقنادسة، وإن كان هذا الأخير قد حدد منذ العنوان الأدوار التي قامت بها هذه الزاوية وأجملها في الدور الديني والثقافي والسياسي مستنتجا بذلك الدور الاقتصادي.

⁷ - عبد الله حمودي، "الانقسامية التراتب الاجتماعي والسلطة السياسية والولاية: تأملات حول مقولات كيننير"، ترجمة محمد الأمين البراز وعبد العزيز التمساني خلو، مجلة دار النياية، عدد 5، 1985، ص ص. 51-52.

⁸ - عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة 4، ص. 389.

⁹ - Pascon (P), «Le commerce de la Maison d'Illigh, D'après le registre comptable de Husayn B. Hachem, Tazarwalt 1850-1875», in Annales E.S.C. N3-4, Mai-Aout 1982, p. 700.

للزاوية، واستقطابه للأتباع في حين يظل الرأسمال المادي حكرا على الأحفاد الذين يفقدون الإرث الصوفي الذي لا يورث¹ فيعوضونه بالبركة ليصبحوا: " شيوخ بركة يقصدون للتبرك أكثر مما يقصدون للهداية الروحية"².

لماذا إذن تم إغفال تلك الجوانب الاقتصادية والمادية من حياة الزوايا في فترة التأسيس؟ قد يتعلق الأمر بالعقلية الدينية السائدة التي تجعل الولي منزها عن كل ما هو مادي أو قد يعود إلى الصعوبة التي تعترض الباحث الذي يقحم نفسه في مثل هذه المواضيع. فمعلوم أن كتابة التاريخ الاقتصادي بالمغرب، عموما، لا تصادف ارتياحا عند الباحثين،³ ذلك أن المصادر لا تزودنا بمادة كافية يمكن اعتمادها لكتابة تاريخ اقتصادي، لاهتمامها بالتاريخ السياسي، فما بالك إذا كان هذا التاريخ الاقتصادي المزمع الخوض فيه يرتبط بشخصية دينية لها ثقلها الماضي والحاضر في الذاكرة الشعبية المحلية.

(II) عرض المصادر والمراجع المعتمدة في هذه الدراسة:

1/المصادر العربية

نستهل هذا العرض بتقديم سلسلة من كتب التراجم والمناقب التي ألفت في شخص الشيخ احمد أو موسى، علما منا بأن المؤرخ اليوم أصبح يتعامل مع هذا النوع من التأليف على أنه مادة من بين المواد الكثيرة المهمة والمفيدة لكتابة تاريخ محلي أو عام. فسعيًا منه لتدارك النقص الذي تعرفه بعض الكتابات التاريخية، سن مسألة الرجوع إلى مختلف الآثار الأخرى المتمثلة في الرحلات والأساطير والنوازل والتراث الشفوي، وكتب التراجم بمختلف أشكالها⁴. ويبقى، إذن، غرضنا من هذا العمل هو التعريف ببعض الكتابات التي اهتمت بعرض بعض الجوانب من حياة الشيخ-موضوع الدراسة-محافظين من خلال هذا العرض على التسلسل الزمني للوقوف -بدقة- على التطور الذي عرفه هذا النوع من التأليف، بالمقارنة بين ذلك الذي عاصر هو الآخر الذي جاء متأخرا.

1- رسالتا أحمد بن عبدالرحمان بن محمد الجزولي المسكدادي التزركيني المتوفى سنة 958 هـ/1551 م⁵.

لأحمد التزركيني أجوبة عن مسائل وردت من الشيخ احمد أو موسى⁶ لم يصلنا منها سوى رسالتين، ساعدتنا في تسليط الضوء على جانب من حياة الشيخ وهو جانب تصوفه. وإذا كنا لم نعثر على رسالة الشيخ احمد أو موسى المتضمنة لسؤاله فإن فحواها موجود في الجواب الذي قدم له الناسخ بما يلي: هذا ما أجاب به عبدالله تعالى سيدي أحمد بن عبدالرحمان بن محمد الجزولي المسكدادي لطف الله به ولي الله تعالى سيدي أبي العباس أحمد بن موسى السلمالي، حين سأله عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم، من فر بدينه من أرض إلى أرض ولو مقدار شبر استوجب الجنة وكان رفيق ابراهيم الخليل ومحمد الحبيب. هل لابد في ذلك الفرار للمرء ولو أقام بين أظهرهم⁷ "وقد استمر الاتصال بين الشيخ والتزركيني من خلال رسالة

¹ - يساند العروي بدوره هذه المقولة من خلال عرضه لدورة الزاوية، فهو يرى أن بدايات الزاوية لا تكون دائما سهلة ولا واضحة، ويكون مؤسس هذه الزاوية رجل دين وإيمان صارم. أما المرحلة الثانية والتي تتسم بالتنظيم والتلاحم، فتكون مع الجيل الثاني الذي يضم أبناء الشيخ وحفدته، ويظهر الطابع الاقتصادي والسياسي للزاوية كمرحلة ثالثة.

Laroui (A), *Les origines*, op.cit, pp 137-138.

² - محمد المنصور، "تصوف الشرفاء: الممارسة الدينية الاجتماعية للزاوية من خلال مناقبها"، ضمن كتاب التاريخ وأدب المناقب، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي رقم 1، منشورات عكاظ، 1989، ص. 18.

³ - ENNAJI (M), *l'Expansion Européen et Le Maroc du XVIe au XVIIe siècles*, Mémoire pour le Diplôme d'Études Supérieures en Sciences, Économique, Faculté Des Sciences Juridique Économique et Sociales, p. 70, Note 97.

⁴ - القبلي، تقديم كتاب التاريخ وأدب المناقب، ص. 7.

⁵ - انظر ترجمة التزركيني في: محمد المختار السوسي، المعسول، ج 13، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1962، ص ص. 266-278.

⁶ - أحمد ابن عبد الرحمان التزركيني، رسالته، نسخة خاصة، وهي نسخة مطابقة لتلك التي اعتمدها: السوسي في المعسول، ج 12، ص. 52. وتوجد نسخة أخرى بالخزانة العامة بالرباط، قسم الوثائق، تحت رقم 9/2079 د، ضمن مجموع، ص ص. 344-347، كتبه ابراهيم بن محمد بن يعقوب وبه أكل أرضة.

⁷ - التزركيني، رسالته، ص. 1.

ثانية، ذكر أبو زيد الجشتي مقتطفات منها في مختصره لطبقات الحضيكي¹.

2 - تقييد أدفال الدرعي : المتوفى سنة 1023هـ/1614م².

لأحمد أدفال³ كراستان عن حياة الشيخ احمد أوموسى استهلها بالحديث عن غرضه من تأليفها والذي هو: تنبيه على بعض فضائل ولي الله (... أحمد بن موسى⁴.

وتأليفه هذه من أهم ما عثرنا عليه في الخزانات المحلية. وتكمن أهميتها في معاصرتها للشيخ ومباشرتها لبعض جوانب شخصيته. إلا أن أدفال -وكما صرح بذلك مراراً- لم يشأ الحديث عن الشيخ انطلاقاً مما رآه هو، "وقد تشوق بعض الناس أن نحدثهم بمثل هذا لا عن غيري فلم يجد إليه سبيلاً"⁵. فجاءت أخبار الشيخ على لسان آخرين غير أدفال إلا فيما ندر. وقد أدى به هذا إلى تحري الصدق فيما ينقله، فقسم من نقل عنهم إلى ثلاث فئات: "من نقلت عنه وكان عندي ثقة وثقته بقولي ثقة، ومن وثقته فيما حدثني به خاصة قلت حدثني من أثق بحدثه، وإن كان ممن يوثقه غيري ومن لم يكن عندي بغير هاتين المنزلتين لم أذكره بالثقة أصلاً"⁶. وإلى جانب هذا النقد والتمحيص الذي نفتقده في العديد من الكتابات التاريخية التقليدية نجد أدفال يركي بعض الروايات ويرفض أخرى، إلا أن أبرز خاصيات هذا المؤلف هي اهتمامه بالتأريخ مما سهل علينا تقسيم تقييده إلى: القسم الأول ألفه قبل 973هـ/1565-1566م يتكون هذا القسم من ثلاثة أجزاء، ينتهي الجزء الأول عند الصفحة الرابعة وقد ختمه ب " انتهى ما يسر الله من ذكر فضائل ولي الله سيدي أحمد بن موسى بتاريخ أوائل عام تسع وستين وتسعمائة في شهر شعبان"⁷. ومن الملاحظ أن كتابته لهذا الجزء كانت بعد تمام ثماني زيارات متتالية للشيخ⁸. وابتدئ الجزء الثاني من نفس الصفحة الرابعة وينتهي في الصفحة التاسعة بقوله: " وقد كنت لا أستعمل في هذه الأوراق الفصاحة وإجادة الخط بل بحسب الإمكان ألهاني عن ذلك ما يعلمه الله"⁹. أما الجزء الثالث، فيبتدئ من الصفحة التاسعة، وينتهي في الصفحة الرابعة عشرة ويسلط معظمه الضوء على علاقة الشيخ بمريديه، وكان اختتامه بتاريخ أوائل محرم فاش ثلاثة وسبعين وتسعمائة¹⁰. أما القسم الثاني من تأليف أدفال فقد كان رداً على بعض الإخوان عما "ذكر عن الولي الكبير سيدنا وأستاذنا احمد أوموسى نفعنا الله به أنه كان من الأولياء من يبلغ العرش إذ هو خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم. هذا وأن انتهاء أدفال من كتابة مؤلفه هذا في أوائل شهر محرم 973هـ الموافق لـ 29-7-1565م لدليل على الحضور المتزايد للشيخ احمد أوموسى في ذاكرة أدفال وكذا في الجنوب المغربي عامة.

¹ أبو زيد الجشتي، مختصر طبقات الحضيكي، نقلا عن: السوسي، المعسول، ج 12، ص. 52.

² يتكون هذا التقييد من خمسة عشر صفحة، وقد اعتمدنا نسخة السوسي التي قدمها في: المعسول، ج 12، ص. 20-43. وقبلناها بنسخة مستقلة عثرنا عليها بالخزانة المسعودية بنواحي تزنييت.

والنسخة لعبد الرحمان العوفي، انتهى من نسخها عام 1322هـ/1904م-1905م.

³ انظر ترجمته في:

- أحمد بن محمد ابن القاضي، ذرة الحجال في غرة أسماء الرجال، القسم الأول، نشر وتصحيح ي.س. علوش، المطبعة الجديدة نهج المامونية، الرباط، 1934، رقم. 194.

- محمد الافراني، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، طبعة حجرية، بدون تاريخ، ص. 20-21.

- محمد الحضيكي، المناقب، ج 1، المطبعة العربية برحبة الزرع، الدار البيضاء، ص. 41-43.

⁴ أدفال، تقييد، ص. 1. بدا لنا أولاً أن الغرض من التأليف هو التعريف بالشيخ احمد أوموسى، باعتبار أدفال أقرب مريديه إليه وأكثرهم علماً بأحواله، إلا أننا بتتبعنا لمختلف الردود، التي ظهرت من خلال التقييد، لمسنا نوعاً من التجند المستميت من قبل أدفال للدفاع عن شيخه ومن ذلك ما قاله عن عجائب الشيخ التي: "سارت بها الركبان وتواترت بها الأخبار ولم ينكرها إلا عائد أو حاسد أو جاهل، إليهم يعود حسدهم وعنادهم وجهلهم"، ص. 5، ويضيف "أن غرابيه على ما سمعت كثيرة وما علمت أنه كان من زمانه مثله ولكن قد يظن الجاهل القاصر إذا لم يسمع منه بعض الدعاوى التي تصدر من بعض من ينتسب إلى المشيخة أنه غير شيخ وأنه ناقض"، ص. 7، إلى أن يقول "وقد مارست أحواله وخبرته رضي الله عنه فإن لم يكن هذا السيد شيخ وقته فمن ذا يكونه، لكن غلبة الجهل العناد"، ص. 7. وهذا يدل على وجود فئة تكثر للشيخ.

⁵ نفسه، ص. 8.

⁶ نفسه، نفس الصفحة.

⁷ نفسه، ص. 4.

⁸ نفسه، نفس الصفحة.

⁹ نفسه، ص. 3.

¹⁰ نفسه، ص. 14.

3- مناقب محمد بن أحمد بن عبدالواسع البعقيلي¹.

يلتقي مؤلفها إلى أوائل القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي، وكراسته صغيرة الحجم مختصرة التراجم، شملت ما عاينه البعقيلي مباشرة، وما هو منقول عن ثقة. وجاءت أخبار الشيخ احمد أموسى تنصدر هذا المؤلف، ويجد القارئ، إلى هذا، أخبارا أخرى مبنوثة على طول المؤلف تهم علاقة الشيخ احمد أموسى بمريديه موضوع الترجمة، ومجمل القول إن مؤلف البعقيلي يتم ما ورد في تقييد أدفال، على أنه فاقه في الاهتمام ببدايات الشيخ وعلاقته بموطنه الأول بومروان² وهو أمر لم يرد إلا عرضا في تأليف أدفال.³

4- دوحة الناشر لابن عسكر المتوفي عام 986هـ/1578م⁴.

لم تتجاوز ترجمته للشيخ احمد أموسى الصفحتين، تحدث فيها عن سياحته وكراماته المتعددة وختمها بذكر تاريخ وفاة الشيخ. ومعظم معلومات الدوحة مستقاة من الرواية الشفوية.

5- تقييد محمد بن عبدالله السكيكي⁵.

عثرنا بالخرزانة المسعودية ببونعمان، بضواحي تزيت، على نسخة من هذا التقييد تناول بعض أخبار الشيخ احمد أموسى المنقولة مشافهة عن أحمد ابن الحسن المانوزي، خديم الشيخ احمد أموسى، وعن الفقير ابراهيم البعقيلي أحد مريديه، والتقييد يؤرخ لعام 998 هـ / 999 هـ / 1590 م - 1591 م إثر الزيارة التي قام بها السكيكي إلى تازروالت.⁶ وهو مكمل لما جاء في مناقب أدفال.

6- درة الحجال لابن القاضي (توفي 1025هـ/1616م)⁷.

لم يقدم ابن القاضي عرضا مفصلا لحياة الشيخ احمد أموسى بل اكتفى بالإشارة إلى علاقته بشيخه الراشدي الملياني. 7- امرأة المحاسن للعربي الفاسي (المتوفي عام 1052هـ/1642م)⁸.

معلوم أن هذا المؤلف موضوع في التعريف بوالد أبي المحاسن يوسف الفاسي، وكذا التعريف بشيوخه وأساتذته الجزوليين، لذا جاء ذكر الشيخ احمد أموسى عرضا في إطار الحديث عن أتباع الطريقة الجزولية وسندهم الصوفي. وقد مكنا هذا المؤلف من الوقوف لأول مرة على سند الشيخ احمد أموسى وبعض الأذكار التي اشتهر بتزديدها.

8- الفوائد الجمة لعبدالرحمان التمارتي، (المتوفى سنة 1060 هـ / 1650 م)⁹

هو كتاب حافل بالتراجم الواسعة، استهله صاحبه بترجمة مطولة تعتبر إلى جانب ترجمة الحضيكي أشمل ما ألف حول حياة الشيخ احمد أموسى.

وقد حاولنا تتبع مصادر معلوماته حول شخصية الشيخ فوجدناها تعتمد بكثافة الرواية الشفوية وخاصة منها تلك المنقولة

¹ - محمد البعقيلي، مناقب البعقيلي، تحقيق محمد المختار السوسي، طبع ونشر رضى الله عبد الوافي المختار السوسي، سلسلة مصادر المعسول "1"، الطبعة الأولى، 1987م، ص ص. 8-20.

² - نفسه، ص ص. 21-22.

³ - أدفال، تقييد، ص. 13.

⁴ - محمد الحسيني ابن عسكر، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، الرباط، 1976، ص ص. 83-84.

⁵ - محمد بن عبد الله السكيكي، تقييد، نسخة عبد الرحمان بن محمد العوفي البعقيلي، المؤرخة بعام 1322هـ/1904م-1905م، وهي لا تختلف عما قدمه: محمد المختار السوسي، المعسول، ج 12، ص. 43.

⁶ - السكيكي، تقييد، ص. 2.

⁷ - ابن القاضي، درة الحجال، ص. 87، رقم. 191.

⁸ - العربي الفاسي، مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، طبع على الحجر، فاس، 1324هـ/1906م، ص. 138.

⁹ - عبد الرحمان أبوزيد التمارتي، الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، مخطوط مصور بخزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ص ص. 67-68.

عن أبناء الشيخ مباشرة¹ وكذا رسالة موجهة من التزركيني إلى أبي عبدالله محمد بن ابراهيم التمارتي يدعو فيه إلى الخضوع للشيخ² واعتمد التمارتي، إلى جانب ذلك، على أوراق مجهولة تشتمل على بعض أخبار سياحة الشيخ³، فضلا عن استفادته الكاملة من تقييد أدفال الدرعي. وتبقى الرواية الشفوية السند الحي الذي جعل التمارتي ينفرد بذكر بعض الأخبار الهامة، منها، على سبيل المثال، علاقة الشيخ احماد أوموسى بمحمد الشيخ السعدي.⁴

9- نوازل السكتاني لأبي المهدي عيسى بن عبدالرحمان السكتاني⁵.

معلوم ما لكتب النوازل من أهمية قصوى في كتابة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي المحلي⁶ لذلك وظفناها في هذه الدراسة. وقد جادت علينا نوازل السكتاني بمعلومات حول علاقة الشيخ احماد أوموسى بالسلطان السعدي عبدالله الغالب، جاء ذلك في رسالة موجهة من عبدالرحمان بن محمد التلمساني مفتي تارودانت إلى القاضي أبي المهدي عيسى السكتاني.

10- مجموع في أخبار الشيخ ابن موسى لبيورك السملالي المتوفى عام 1055هـ/1648م-1649م⁷.

اعتمد بيورك في وضع تأليفه هذا على ماجاء في المجموعة الأدفالية وزاد عليها بعض الأخبار والحكايات المنسوجة حول سياحة الشيخ احماد أوموسى، وهي في أغلبها مما لم يقبله حفدة الشيخ من خوارق. وإذا كان العلامة المختار السوسي قد أشار إلى وجود نسخة من هذا المجموع في الخزانة المسعودية⁸، فإننا لم نتمكن من الاطلاع عليه لكن، في المقابل، عثرنا في نفس الخزانة على مجموعة أخرى حول أخبار سيدي احماد أوموسى⁹ مجهولة المؤلف والتاريخ، تبتدئ بالحديث عن سياحة الشيخ، وقد جاء بعضها على لسانه، في حين نقل البعض الآخر عن أبناء الشيخ، فضلا عن اعتمادها على مصادر أخرى كالذوحة والممتع وأخذها عن أدفال الدرعي ومحمد السكيتي. وتتضمن جل الروايات التي روجت فيما بعد مع رو(Roux)¹⁰ ولاووست (Laoust).¹¹

11- تمتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع ومالهما من الأتباع: للفاسي محمد المهدي (1109هـ/1697م-1698م)¹².

طبيعي أن نجد ترجمة الشيخ احماد أوموسى مكانا ضمن هذا المؤلف المخصص للحديث عن أتباع الطريقة الجزولية التباعية إلا أن الحيز المعطى له كان قليلا بالمقارنة مع المكانة التي احتلها الشيخ من بين معاصريه الجزوليين¹³ فهو من الأتباع المباشرين للتباع وأحد المروجين الرئيسيين للطريقة الجزولية، لكن رغم ضآلة المعلومات التي نقلها لنا صاحب المتع فإن أهميته تكمن في انفراده بحديث مفصل عن علاقة السلطان عبدالله الغالب بالشيخ احماد أوموسى.

12- روضة التحقيق في فضائل آل الصديق لعلي بن محمد الدوماني الصحراوي (المجهول التاريخ)¹⁴.

يهتم هذا الكتاب بترجمة الشيخ احماد أوموسى التمارتي المتوفى عام 971هـ/1563م-1564م)¹⁵. ويمتاز باهتمامه المكثف

¹ - التمارتي، الفوائد، ص. 68.

² - نفسه، ص. 67.

³ - نفسه، ص. 78.

⁴ - نفسه، ص. 234.

⁵ - عيسى أبو المهدي السكتاني، النوازل، مخطوطة بخزانة محمد العثماني بلنزران، ص. 366-367.

⁶ - انظر ذلك في: محمد مزين، فاس وباديتها: مساهمة في تاريخ المغرب السعدي 1549-1637، ج 1، الطبعة الأولى 1986م، ص. 24-25.

⁷ - بيورك السملالي: "مجموع في أخبار الشيخ ابن موسى"، نقلا عن: السوسي، المعسول، ج 12، ص. 41.

⁸ - محمد المختار السوسي، سوس العالمية، مطبعة فضالة، المحمدية، 1960، ص. 213.

⁹ - تتكون هذه المخطوطة من عشر ورقات، يتخللها بياض كثير.

¹⁰ - Roux (A), *Récits contes et légendes Berbères et Tachelhit*, Rabat, 1942.

¹¹ - Laoust (E), «Sidi Hamed ou Moussa dans la Caverne du Cyclope», in *Hesperis*, 1921, pp. 91-92

¹² - محمد المهدي الفاسي، تمتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع ومالهما من الأتباع، تحقيق وتعليق عبد الحي العمراوي وعبد الكريم مراد، 1989، ص. 59-61.

¹³ - نفسه، ص. 59-60.

¹⁴ - علي بن محمد الدوماني، روضة التحقيق في فضائل آل الصديق، نقلا عن: السوسي، سوس العالمية، ص. 219، المعسول، ج 7، ص. 40-41.

¹⁵ - السوسي، سوس العالمية، ص. 219.

بموضوع تامدولت بعد خرابها في القرن 14م، والتحويلات التي عرفتها المنطقة مع نشوء الدولة السعدية، وهي المرحلة التي عرفت بروز العلاقة بين الزوايا في الجنوب المغربي وأول سلاطين السعديين. ومما زاد من أهمية مؤلف الدوماني هو تسليطه الضوء على هذه المرحلة، وان كان يضم من الأخبار الصافية وغير الصافية¹.

ويعتبر الدوماني، حسب علمنا، أول من استعرض علاقة أحمد الأعرج² بالشيخ احمد أوموسى، فاتحا الباب أمامنا لاستكمال الصورة السياسية للزاوية التازروالتية على عهد الشيخ المؤسس.

13- مناقب الحضيكي لأبي عبدالله محمد بن أحمد الحضيكي (ت: 1189هـ/1775م-1776م)³

حضي الشيخ احمد أوموسى باهتمام الحضيكي، لذلك نجده يخصص له حيزا مهما من طبقاته، رغم أنه يلاحظ عليه عدم توسعه في الحديث عن السوسيين⁴، إلا أن عمله هذا لا يعد وأن يكون جميعا لما سجله أذفال في تقييده والبقيلي في مناقبه والتمنارقي في فوائده، كما نقل عن صاحب الممتع دون الإحالة عليه.

14- نزهة الحادي للإفراني (ت: بعد 1155هـ/1742م-1743م)⁵

خصص الإفراني حيزا كبيرا للحديث عن الجانب السياسي من حياة الشيخ، فقد جاء ذكره لاحماد أوموسى في إطار علاقته بالسلطان السعدي عبدالله الغالب. وكانت منطلقات أخباره هي: نوازل السكتاني، رسالة السلطان زيدان بن أحمد المنصور لأبي زكرياء يحيى الحاحي⁶، فضلا عن اعتماده على ممتع الأسماع والرواية الشفوية التي ظلت نشيطة رغم مرور قرن على وفاة الشيخ.

15- الإعلام بمن حل مراکش وأغمات من الأعلام لابن إبراهيم المراكشي (ت: 1371 هـ)⁷.

خصص المراكشي بدوره صفحات للحديث عن الشيخ احمد أوموسى، مستفيدا من تعدد المصادر وكثرتها، لذلك نجده ينقل عن الدوحة والممتع والطبقات والصفوة⁸. إلا أن أغلب معلوماته منقولة عن الممتع الذي تحدث عن علاقة الشيخ بالسلطان السعدي عبدالله الغالب، وزيارته له بمراكش، باعتبار اهتمام المراكشي بكل من حل بهذه المدينة من الأعلام.

16- الترجمان المغرب للزياني (ت: 1249هـ/1893م)⁹.

لم يشر الزياني إلى المؤثرات الدينية التي ساهمت في نظر الآخرين، إلى حد بعيد، في رسوخ الدعوة السعدية، كما أنه يثير بكثير من الاقتضاب مسألة التأثير الذي كان للشرفاء بجنوب المغرب وكذا جولاتهم في حروبهم مع البرتغال. وتكاد الروايات التي يوردها الزياني¹⁰ في كتاب الترجمان تخلو من التهويل والمبالغة التي تضحج بها الكتابات التي تناولت نشأة الدولة السعدية¹¹ على أنه لا يتوانى، حين يروي حكاية مبايعة عبد الله الغالب، عن الإشارة إلى "معجزة" ولي سوس الكبير احمد أوموسى وأثرها في استتاب الأمن للسلطان الجديد¹².

1- نفسه، ص. 219.

2- سماه خطأ أحمد الذهبي.

3- الحضيكي، المناقب، ص. 2-12.

4- السوسي، سوس العالم، ص. 210.

5- محمد الصغير الأفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق هوداس، ص. 47-55.

6- نفسه، ص. 47.

7- العباس بن إبراهيم المراكشي، الإعلام بمن حل مراکش وأغمات من الأعلام، المطبعة الملكية، الرباط، 1974، ص. 233-236.

8- نفسه، ص. 233، 234، 235.

9- أبو القاسم الزياني، الترجمان المغرب عن دول المشرق والمغرب، مخطوطة دار الوثائق بالرباط، رقم. 658D.

10- لوتو رنو، الزياني وتاريخه للدولة السعدية، تعريب عبد الرحمان بن عبد الله، مجلة دعوة الحق، العدد 2، السنة 12، 1969، ص. 72-73.

11- كنزها الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي.

12- الزياني، الترجمان المغرب، ص. 343.

تنوزع ترجمة احماذ أوموسى وأخباره على طول الجزئين الخامس والسادس المخصصين للدولة السعدية² وعادة ما يأتي ذكر الشيخ مقترنا بذكر السلطان السعدي عبد الله الغالب.

18- تأليف محمد المختار السوسي: (المتوفي عام 1963م)³.

عمل محمد المختار السوسي، في إطار اهتمامه بجمع الوثائق والمصادر حول تاريخ سوس عامة، من أجل إعادة كتابة تاريخ محلي يتجاوز الإسقاطات المحيطة التي تعرض لها هذا التاريخ. وقد مكنته جولاته المتعددة في مختلف جهات سوس من جمع المعلومات الكافية للقيام بمثل هذا العمل. ونظرا لتعدد مصادر معلومات السوسي فقد خرج من الإطار الشمولي⁴ إلى إطار أكثر محلية بإصداره لمؤلفه إيليج قديما وحديثا⁵. ويستلزم منا هذا المؤلف وقفة لتتبع مختلف المراحل التي تناولها.

فقد كان هدف المختار السوسي، من خلال عمله هذا، هو الوقوف على مجد دولة إيليج قديما وحديثا، أي منذ عهد بودميعة (1022هـ/1613م إلى 1069هـ/1660م) إلى فترة حكم الحسين أهاشم (1224هـ/1809م-1810م إلى 1303هـ/1886م) وما تلاها. وفي خضم هذا الاهتمام بالأسرة الإيليجية جاء التذكير بجدها الشيخ، موضوع عملنا، فخصص له من الصفحة السابعة عشرة إلى الصفحة الخامسة والعشرين من هذا المؤلف وعرض خلالها شجرة نسبه وعلاقته بالمخزن السعدي فجاءت ترجمته جامعة لما ذكر في الدوحة والممتع إلى جانب تقييد أدفال.

ولم ينته اهتمام السوسي بالشيخ احماذ أوموسى عند هذا الحد، بل نجده يخصص صفحات أطول وأشمل من المعسول⁶، للحديث عن جوانب متنوعة من حياته، فقام بعرض شامل لما جاء في تقييد أدفال، كما اقتطف فقرات من مناقب البعقيلي ومؤلف السكيتي مع استفادته المباشرة من الرواية الشفوية. فكان المختار السوسي، بذلك، أول من قدم لنا حكاية استقرار الشيخ في تازروالت وعلاقة ذلك بالصراع المشهور الذي نشب بين آيت حربيل ومجاط⁷. لكن ما يؤخذ على السوسي هو سعيه المستمر إلى عرض الروايات المختلفة دون العمل على مناقشتها، واستخلاص مغزاها الحقيقي. والجدير بالذكر أن ترجمة الشيخ لم تأت في الجزء الثاني عشر فحسب، بل وجدنا في باقي أجزاء المعسول معلومات شافية تفوق من حيث الدقة والأهمية ما جاء في الجزء المذكور. ونحن نتساءل عن سبب إغفال السوسي لهذه الجوانب على أهميتها واكتفائه بتمريرها عرضا في أجزاء وترجمات أخرى؟⁸

يبدو من خلال هذا الجرد الموجز لأبرز المصادر التي تناولت حياة الشيخ احماذ أوموسى⁹ أنها لا تختلف كثيرا عن باقي المصادر التقليدية من حيث ميلها إلى وصف الأولياء بكيفية متأقنة، "فهى تقدم صورا دينية تعطينا معلومات قليلة عن

¹ - أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى، ج 5 و7، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955.

² - نفسه، ج 5، ص. 39، 47، 53، 57، 88.

³ - انظر مؤلفات محمد المختار السوسي: إيليج قديما وحديثا، تعليق محمد بن عبد الله، المطبعة الملكية، الرباط، 1966، ص. 17-25. خلال جزولة، ج 2، تطوان، 1361، ص. 32-33. المعسول، ج 12، ص. 5-56. سوس العالمية، ص. 130-159.

⁴ - خلال جزولة في 3 أجزاء.

⁵ - إيليج قديما وحديثا.

⁶ - السوسي، المعسول، ج 12، ص. 5-54.

⁷ - نفسه، ص. 11.

⁸ - السوسي، المعسول، ج 3، ص. 225، ج 7، ص. 35-43، ج 12، ص. 271، ج 19، ص. 220-221.

⁹ - تجدر الإشارة إلى أن هناك مؤلفات أخرى اهتمت بالحديث عن حياة الشيخ احماذ أوموسى أثرتنا عدم إدراجها اختصارا، خصوصا وأنها تكاد تكون إعادة لما نقله التمنارتي والحضيكي في مؤلفيهما. ومن بين هذه المؤلفات:

- داوود بن علي بن محمد السملالي الكرامي الجزولي، بشارة الزائرين الباحثين في حكاية الصالحين، مكروفيلم خزانة دار الوثائق، الرباط، جائزة الحسن الثاني، 1972م، رقم. 319، ص. 18.

- أحمد بن أبي القاسم الصومعي، كتاب المعزي في مناقب الشيخ أبي يعزى، ج 1، دراسة وتحقيق علي الجاري، دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1989، ص. 215.

سياقها السوسيوولوجي"¹. لهذا نجد أن القيمة الكبيرة لهذه المصادر تكمن فقط في كونها تبرز أهمية الزاوية، ثم أن المصادر التقليدية، بكتابتها العادي، لا تقدم أي تعليل للأحداث فضلا عن إعراضها عن وصف الأنشطة الاقتصادية والسياسية. لذلك فإن البحث الذي يتوخى الاستفادة التاريخية حتم علينا اللجوء إلى مصادر قائمة بذاتها أو مكملتها، وأغلب هذه المصادر برتغالية إما منشورة بطريقة مستقلة أو مجموعة في المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب²، ولا يخفى على الباحث مدى أهمية هذه الوثائق والمصادر في استجلاء بعض الغموض الذي يحيط بالتاريخ المحلي، وقد زخر القرن 16م أيضا بكتب الرحلات التي قدمت معطيات اقتصادية عن منطقة سوس³ وتبقى هذه المصادر عمادنا الأساس، وإن كانت تستلزم منا قراءة نقدية باعتبارها عاكسة فقط لصورة المغرب عند الأجنبي⁴.

(III) الشيخ احماذ أوموسى في المراجع الأجنبية:

اهتم العديد من الباحثين الغربيين بشخصية الشيخ احماذ أوموسى، كل حسب تخصصه، فمنهم اللساني، ومنهم عالم الاجتماع والأنثروبولوجي وغيرهم. ولم تكن دراساتهم تستهدف الإحاطة بشخصية الشيخ مباشرة بل جاء ذكره في إطار مشروع أكبر توخى الإلمام ببعض جوانب الثقافة الأمازيغية. نذكر من بينها كتابات كل من:

1- Relation de Sidi Brahim de Masst, 1882⁵

يعتبر هذا الكتاب أحد المعالم اللسانية الأمازيغية النادرة، التي لم تعتمد على أصول عربية ولا تنتمي في نفس الوقت إلى الأدب الديني⁶. وقد سعى باسي (Basset) من خلاله، إلى إعطاء توضيحات دقيقة عن دولة سيدي هاشم السملالي⁷، ومحاولات المخزن الإطاحة بها. إلا أن المؤلف يحمل في بعض جوانبه معلومات جد هامة حول الأسرة السملالية بصفة عامة، وحول الموقع الجغرافي المتميز لتازروالت. وقد ساهمت الهوامش التي أضافها المترجم في إغنائها.

2- Le Chatelier (A), tribus du sud-Ouest Marocaine, 1891⁸

تكمن أهمية هذا الكتاب في كونه اقتصر على مجال محدود بين درعة وسوس، مما جعل معلوماته تعم أيضا المنطقة التي تهمننا. وهكذا نجد لوشاتولي (Le Chatelier) يخصص جزءا من كتابه هذا، للحديث عن موقع وتاريخ تازروالت، ويبدو لنا أنه أول من تحدث عن وضعية المنطقة قبل القرن 16 م⁹. كما اهتم المؤلف بشخصية الشيخ احماذ أوموسى فكان أيضا، أول مؤلف غربي يتحدث عن علاقة الشيخ بالسلطين السعديين، وأول من قدم تاريخ زيارة السلطان عبدالله الغالب له

¹ - ديل ايكلمان، "جوانب من التنظيم السياسي والاقتصادي لزاوية مغربية في القرن 19 موضوع اجتماعي تاريخي"، ترجمة معروف عبد الغني، مجلة دار النيابة، السنة 1، العدد 3، 1984، ص. 27.

² - Castries (H-de), *Source Inédites de l'histoire du Maroc*, 1^{er} série : Dynastie Saadienne, Archive et bibliothèque de France, P.Geuthner, Paris, 1926.

³ - من بين هذه المصادر: Ricard (R), et Perrera (D): «La côte Atlantique du Maroc au début du XVI^e siècle, d'après des instructions Nautique portugais», in *Hesperis*, 1927, pp. 229-256

- Ferandes (V), *Description de la cote d'Afrique de Ceuta au Sénégal (1506-1507)*, Paris, 1938.

- Anonyme, *Chronique de santa-Cruz du cap de Gué (Agadir)*, Texte Portugais du XVII^e Siècle traduit par de Cenival, Paris, 1934.

- de Torres(D), *Histoire des cherifs*.

تاريخ الشرفاء، ترجم عن الفرنسية من طرف: محمد حجي ومحمد الأخضر، الدار البيضاء، 1988. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة 2، 1983. مارمول كربخال، إفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، مكتبة المعارف، الرباط، 1989. عبد الرحيم بنحادة، "النشاط الاقتصادي بسوس خلال القرن 16م"، ضمن أعمال ندوة أكادير الكبرى (المحور التاريخي)، منشورات جامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، 1990، ص. 199.

⁵ - Basset (R), *Relation de Sidi Brahim de Massat*, traduite sur le texte chelha et annotée par Basset, Paris, 1883.

⁶ - Ibid, p.4

⁷ - يعتبر هاشم السملالي أحد أبرز حفدة الشيخ احماذ أوموسى، الذين كانت لهم مكانة سياسية واقتصادية في الجنوب المغربي في نهاية القرن 18م وبداية القرن 19م: راجع في هذا الصدد: السوسي، *البلغ قديما وحديثا*، ص. 237. بول باسكون، "اغتيال هاشم زعيم دار اليع"، مجلة أبحاث، العدد 3، 1983، ص. 17-27.

⁸ - Le chatelie (A), *Tribus du sud-ouest Marocaine*, Maison d'edi, Paris, 1891.

⁹ - Ibid, p. 35

بتازروالت¹، وهو ما لم نستطع الوقوف عليه في أي مصدر سابق.

3- Bourguignon « Renseignement sur la région du Tiznit », 1913²

نفتتح مع بوركنيون (Bourguignon) سلسلة التقارير العسكرية التي أعدها ضباط فرنسيون كانت لهم مهام في مختلف جهات سوس، وقد وضع بوركنيون تقريره هذا في 31 يوليوز عام 1913م، اهتم فيه بالمقاومة التي أبدتها الروايات الشعبية المحلية وكذا أخبار الأولياء السابقين عن قدوم الشيخ احماد أوموسى إلى تازروالت. ورغم بعض الأخطاء التي تتخلل هذا التقرير فهو مهم.

4- Laoust (E) «Sidi Hamed ou Moussa dans la caverne du cyclope», 1921³

يعتبر لاووست (Laoust) من بين المعمرين الذين سعوا جادين إلى التعرف على بعض المظاهر الحياتية في البوادي المغربية. وقد كان اهتمامه منصباً بالخصوص على جمع الحكايات المتداولة سواء كانت خرافية أو تاريخية. ومن أبرز هذه الحكايات التي قدمها لاووست، حكاية "سيدي احماد أوموسى في كهف الغول"، وعلق على هذه الحكاية بكون جزءها الأول: "لا يختلف كثيراً عما نجده ضمن الحكايات المنسوبة إلى الأولياء"⁴. أما الجزء الثاني: فقد استرعى انتباه الباحث، "فبتغيير اسم سيدي احماد أوموسى باسم ايليس (Ulyse) سوف نكون أمام المراحل الأساسية لمغامرة Ulyse في مغارة Polyhme. وأمام هذا التشابه أصبح هاجس لاووست هو محاولة التعرف بالضبط على الطريقة التي دخلت بها هذه الحكاية ذاكرة الإنسان الأمازيغي؟

5- Laoust, Cotes Berbères du Maroc⁵

أعاد تقديم الحكاية السابقة مع إضافة ترجمة لحكاية سيدي احماد أوموسى مع امرأة عجوز. معتبرا إياها السبب في منح الشيخ البركة والانتقال من حالة الرعونة إلى حالة الزهد والتصوف.

6- Justinard (L): (جاستنار)

هو ضابط فرنسي مهتم بالثقافة الأمازيغية، استقر بتزنت من 1916م إلى 1926م، ثم أدى مهمات رسمية عديدة من 1934م إلى 1940م. وله عدة مقالات حول الثقافة الأمازيغية، عموماً وحول شخصية سيدي احماد أوموسى على وجه الخصوص.

فقد نشر على التوالي المقالات والكتب التالية:

- Notes sur l'histoire du Souss au XIXe, 1925⁶

اعتمدنا هذه المقالة لضبط مواقع قبائل إداولتيت وتازروالت.

¹- Ibid, p. 36

²- Bourguigno, « Renseignement sur la région de Tiznit », in *Archive du service Historique de l'armée*, Maroc, 31.7.1913

وقد علق الباحث ايكلمان على هذا النوع من الكتابات بكون: "معظم ما كتب عن الطريقة الدينية والزوايا، في تلك الفترة (...) يشبه في محتواها محتوى التقارير البوليسية (...) ولهذا لم تشكل فهما حقيقياً للسمات الشعبية للطرق والزوايا". انظر: ديل ايكلمان، "جوانب من التنظيم"، ص. 44.

³- Laoust (E), «Sidi Hamed», op.cit, pp. 91-92.

⁴- Ibid, p. 92.

⁵- Laoust, *Cotes Berberes d Maroc*, Paris, 1927, pp. 305-307.

⁶- Justinard, «Notes sur l'histoire du Souss au XIXe», in *Hesperis*, VI, 1926, pp. 351-364.

– Notes d'histoire et de littérature berbères, 1925¹

ورد في هذه المقالة النص الكامل للكرامة التي خولت للشيخ احمد أوموسى الانتقال من حالة الرعونة والتهريج إلى حالة الدهول والسياحة. والحكاية عبارة عن أغنية أداها بوجمة أوزيل حداد قبيلة كندافة.

– Notes d'histoire et de littérature berbères, 1928²

استهل جيستنار (Justinard) مقالته هاته بالحديث عن الأسباب التي أهلته للكتابة عن تاريخ الآداب والفلكلور في حاحة وسوس، وهي أسباب استعمارية محضة. ثم انتقل إلى الحديث عن صعوبة البحث التاريخي في المنطقة مما استلزم الاستعانة بالرواية الشفوية مع ما تطرحه هذه الأخيرة من مشاكل.

- ترجمة الفوائد الجمّة بإسناد علوم الأمة للتمنارتي³ أغناها بهوامش استفدنا منها في ضبط بعض المواقع والأحداث التاريخية.

- Un petit Royaume Berbère, le Tazeroualt, 1954⁴

واصل جيستنار جمع الوثائق ونقل الروايات الشفوية من أفواه المحليين مما جعله يتوج أعماله بتأليفه لكتابه "مملكة بربرية صغيرة، تازروالت". وكانت مصادر كتابه هذا كالتالي:

- أمثال محلية.

- روايات شفوية، أبرزها ما نقله عن مولاي عمر الوجاني⁵.

- أما النصوص التاريخية التي أدرجها في كتابه، فكانت ترجمة لما جاء في الفوائد الجمّة ومناقب البعيلي، كما اعتمد على نزهة الحادي والدوحة وممتع الأسماع. إلا أنه ركز بالخصوص على أهمية المخطوطات المحلية غير المنشورة ودورها في إعطاء معلومات حول حياة الشيخ.

وإجمالاً، يبقى كتاب تازروالت محاولة تحليل لما جاء في الفوائد الجمّة، مكنت جيستنار من مقارنة هذا النص الذي يعود إلى 1045 هـ بما تم جمعه من روايات في 1335 هـ للوقوف على مدى صمود الأساطير والروايات الشفوية المنسوجة حول حياة الشيخ احمد أوموسى⁶.

- Poème chleuhs recueillis au Souss par Justinard⁷

ظل جيستنار مهتماً بجمع الوثائق الأدبية حول اللغة والشعر الأمازيغيين، سواء خلال مهمته السياسية بسوس ما بين 1917 و1921 م إلى جانب القائد الكندافي، أو في الجبهة الفرنسية سنة 1915 م مع المحاربين المغاربة. فنتج عن ذلك غزارة في الإنتاج وتراكم وثائقي. مكتوب أو مروي. استلزم منا الكثير من التمهيد؛ إذ يجد القارئ نفسه أمام غزارة هذا الإنتاج وتنوع مصادره، مطالباً بالتحلي بروح النقد. فإنتاج جيستنار على أهميته في بحثنا لا يخلو من الكثير من الأخطاء

¹- Justinard, «Notes d'histoire et de littérature berbères», in *Hesperis*, V, 1925, pp. 227-238.

²- Justinard, «Notes d'histoire et de littérature berbères», in *Hesperis*, 3e et 4e trimestre, 1928, p. 333.

³- *Fawaid Al Jamma bi Isnad Ouloum Al oumma*, Sidi Abderhman ben Mohamed ben Abouzid, chartes, Durand, 1953.

⁴- Justinard, *Un Petit Royaume Berbère le Tazeroualt : Un saint Berbère Sidi Ahmed ou Moussa*, imprime par l'impeimerie Durand France, 1954.

⁵- وهو أحد شرفاء وجان الذين اشتهروا باهتمامهم بجمع الروايات الشفوية حول شخصية الشيخ احمد أوموسى. Ibid, p. 17.

⁶- Ibid, p. 16

⁷- Justinard, «Poème Chleuhs Recueillis au Souss par Justinard», in *Revue au Monde Musulman*, LX, second trimestre, pp. 63-107.

التاريخية والمنهجية¹ ومرد هذا إلى كون مشروعه يندرج ضمن مخطط استعماري جعله غير قادر على استيعاب كل المفاهيم والأحداث التاريخية، ناهيك عن كونه أجنبيا عن الثقافة التي يسعى إلى التعريف بها.

7- Roux (A), les Aventures extraordinaires de Sidi Hmad U. Mussa, patron de Tazeroualt²

استهل رو (Roux) مقالته بعرض لمختلف الكتابات التي تناولت حياة الشيخ احمد أوموسى. وكان من أبرز ما وقف عليه من مقالات، تلك التي كانت من تأليفه الخاص، إذ ساهم بدوره في إعطاء نفس لهذه الحكايات بإدراج أربعة منها في كتابه³.

وهي كالتالي:

- Récits contes et légendes berbères en Tachelhit

7-1- Lgistn – sidiHmad U Musa D – sidi Mheend ou uqqub D- UREQQAS-ENNSEEN⁴

تبرز إحدى الكرامات المنسوبة للشيخ وهي الاطلاع على الغيب.

7-2-SidiHmad-U- Musa IligIga Ahiyad⁵

تتحدث هذه الحكاية عن جانب من حياة الشيخ وهي فترة الرعونة والشباب، ثم تتنوع بعض مراحل حياته خصوصا انتقاله من إداوسمال إلى تازروالت. وتطرح الرواية الاختلاف الذي حصل بين الرواة حول مدى ما حصله الشيخ من علم، ثم تختتم بالتركيز على علاقة الشيخ المتميزة بمعاصره الشيخ احمدأوبراهيم التمارتي.

7-3- «Ssabab 1. Litihail n-sidihmad-u-Musa»⁶

تسعى هذه الرواية إلى التركيز على الجانب الأسطوري في علاقة الشيخ بحيطه، ولعل أبرز ما تقدمه هذه الحكاية هو اعتبار الشيخ أحد المسهمين الرئيسيين في تحريك الشمس بين الشروق والغروب، وهو ما يسمى "انجباد تنافوكت" ومازالت هذه، الحكاية تجري، إلى الآن، على لسان العوام، وان كان الشرفاء والفقهاء يرفضونها رفضا قاطعا، وهي تقدم إضافة إلى ما قيل حكاية زواج الشيخ من قبيلة غير قبيلته.

7-4- « Sidi Hmad-u-Musa»⁷

تعالج هذ، الحكاية نسب الشيخ احمد أوموسى، إذ تعتبره من شرفاء سملالة المتأصلين، كما تبرز موقف الشيخ من تمارت بعد وفاة معاصره التمارتي الشيخ احمدأوبراهيم.

8- Gabriel Gerrain : Ulyse, le cyclope et les berbères 1935¹

¹ - أدرج جيستار بعض الحكايات دون مراعاة لتسلسلها التاريخي ولا معاصرة الأشخاص لبعضهم البعض، ومن ذلك حديثه عن علاقة الولية تعزى السملالية المتوفاة في أواخر القرن 19م بالشيخ احمد أوموسى المتوفى سنة 1564م. انظر: Justinard, *le petit Royaume*, op.cit, p. 28

² - Roux (A), *les Aventures extraordinaires de Sidi Hmad u Moussa, patron de Tazeroualt*, in *Hesperis*, TomeXXXIX, 1952, pp. 75-96.

³ - Roux (A), *Récits Contes et légendes Berbères en Tachelhit*, Rabat, 1942.

⁴ - Ibid, pp. 70-71. " قصة سيدي احمد أوموسى وسيدي محمد أويقوب ورسولهما "

⁵ - Ibid, p. 66. " سيدي احمد أوموسى حينما كان بهلوانا " اهاض "

⁶ - Ibid, pp. 76-77. " وترجمتها سيب زواج الشيخ سيدي احمد أوموسى "

⁷ - Ibid, p. 90.

بحث فيه العلاقة الممكنة بين الأسطورة الأمازيغية والنص الأوديسي.

ومن الكتابات الغربية الأخرى، التي ساهمت في التعريف بالأسرة السملالية وعلى رأسها جدّها الشيخ احمد أوموسى، مؤلفى موني (Meunie) "المغرب الصحراوي" ² و"مخازن القلاع" ³.

يعتبر كتاب المغرب الصحراوي من بين الدراسات العلمية القليلة التي ساهمت في تنوير بعض الجوانب من بحثنا، وربما كان ذلك نتيجة ارتباط مؤلفته بالمنطقة منذ فترة مبكرة عام 1934م، ومعرفتها لعادات وتقاليد سكانها الموروثة عن الماضي؛ مما جعلها تفتتح بوجود حس حضاري متميز. وقد حاولت الباحثة الاستفادة من كتاب الحسن الوزان لاستجلاء بعض الغموض الذي يكتنف الفترة الوسيطية والحديثة من تاريخ المغرب عامة والصحراوي على وجه الخصوص، كما أنها لم تغفل أهمية الرواية الشفوية في كتابة تاريخ منطقة اعتمدت منذ القدم على موروثها الشفوي. ويمكن استخلاص ثلاثة محاور أساسية في عمل الباحثة موني نركز فيها على المحور الثالث ⁴ المتضمن لخلاصات هامة حول تقوية نفوذ الزوايا، وخاصة الأشراف السعديين الذين اتخذوا الجهاد شعارا لسياساتهم، ولم يكن الأمر ليتأتى لهم، حسب المؤلفة، لولا المعطيات المادية المتوفرة في المغرب الصحراوي والتي تتميز بالتكامل والتنوع مما نشط التجارة الداخلية والخارجية. لنتنقل موني بعد ذلك إل التساؤل عن نوع العلاقات القائمة بين السلطة السعدية والزوايا حيث ترى ضرورة التمييز بين أولياء الجيل الأول - النصف الأول من قرن 16م ذلك الجيل الذي اعتزل الناس لممارسة العبادة والتصوف فلم يسجل أية مواقف سياسية معارضة للدولة، بل نجد بعضهم يساندها ويمهد لها السلطة. وقد جعلت المؤلفة الشيخ احمد أوموسى على رأس هذا الجيل ⁵.

وهذا التصنيف في حد ذاته يجمل لنا تصور الباحثة حول دور الأسرة السملالية في بدايتها، وهو تصور يكاد لا يختلف عما قدمته باقي الدراسات الغربية التي اطلعنا عليها؛ حيث ينحى بدوره الشيخ احمد أوموسى عن أي دور مادي في المنطقة. ورغم قصور هذه الدراسة عن تتبع بعض الخصوصيات التي تمتاز بها منطقة تازروالت، والتطور الفعلي الذي عرفته في عهد الأسرة السملالية، نظرا لامتداد الدراسة في مجال واسع من سجلماسة شرقا إلى واد نون غربا مرورا بمنطقة درعة، فإن عمل موني يبقى أرضية صالحة للانطلاق لمعرفة الجيدة بالميدان المدروس واستغلالها المكثف والعلمي للرواية الشفوية، خصوصا من أجل ضبط بعض المواقع والأحداث.

لم نسع من خلال هذا العرض الوجيز إلى تقديم كل الكتابات الغربية التي تناولت حياة الشيخ، سواء كانت سابقة عن هذه التي قدمناها أو لاحقة لها، مادام جلها اهتم بالخصوص بالجانب الديني والروحي من حياته، لذلك فضلنا الاكتفاء بهذه لنتنقل إلى عرض مركز لأهم الكتابات المعاصرة التي ارتبط اسم مؤلفها بتازروالت المنطقة المدروسة.

9- Pascon (Paul) 1981

سنحاول تتبع مختلف الأفكار التي عرضها باسكون من خلال مقالتيين: الأولى ضمن كتاب دار إيليج ⁶ والثانية في سلسلة

¹- Gabriel (Gerrain), «Ulyse, le cyclope et les berbères», in *Revue de Littérature Comparée*, 15 émeannée, n° 4 octobre-décembre 1935, p. 76.

²- Meunie (D-Jaques), *le MarocSaharien des origines à 1670*, T I- II. Klincksieck, Paris, 1982.

³- Meunie (D-Jaques), *Geniers Citadelles au Maroc*, Paris, 1951, 2 Tomes.

⁴- Meunie(D-Jaques), *Le Maroc Saharien*, op.cit, p. 446.

⁵- Ibid, p. 446, p. 448.

⁶- Pascon (P), *la maison d'Illigh et l'histoire sociale du Tazeroualt*, SMER, 1984, p. 141, p. 222.

لقد تم إنجاز كتاب دار ايليج سنة 1981م بمساهمة مجموعة من الأساتذة، مغاربة وأجانب، فإلى جانب باسكون الذي كان آنذاك أستاذا بمعهد الحسن الثاني للزراعة والبيطرة بالرباط، نجد أحمد عريف عالم اجتماع في إدارة التنمية القروية بنفس المؤسسة، ودانييل شروتر (Shroeter) الذي كان يعد أطروحة حول تجارة الصويرة في القرن 19م، ومحمد طوزي أستاذ باحث بكلية الحقوق بالدارالبيضاء ثم هيا فاندر (Hema Vander Wuston) أستاذ الجغرافية الاجتماعية بجامعة امستردام. ونبغي من وراء الإشارة للكهؤلاء المسهمين، التنبيه إلى غياب مختص في التاريخ ضمن هذه المجموعة من الباحثين ومع ذلك فإن اهتمامهم بعلم الاجتماع والعلوم الإنسانية بصفة عامة قد قرّبهم من بعض جوانب تاريخ سوس خصوصا في القرن 19م. ولعل ما سهل عمل هؤلاء الباحثين، هو غزارة المادة التاريخية ووفرة السجلات التجارية المتراكمة في يد الأسرة السملالية بالمنطقة².

استهل باسكون (Pascon) كتابه بعرض مختلف المراحل التي مرت منها عملية الاتصال بالأسرة الايليغية والسنوات الطول التي قضاها في التردد بين مراكشوايليج من 1965م إلى 1981م، على أن اهتمامه المكثف بالمنطقة قد بدأ سنة 1977م، وقد نجح باسكون في تجاوز العراقيل المادية المحضة التي واجهت بعض الباحثين الذين اهتموا بدورهم بالمنطقة في نفس الفترة. وهكذا نجده يقول: "فهمت من ممارسات الأسرة الايليغية أنها تحاول أن تمارس علي إستراتيجية العنكبوت، لقد حاول إسقاط Kenneth Bouen وعمر أفا في شبكهم، اعترف أنني كنت أقل حرصا وربما أكثر سخاء، وأنا لست نادما على ذلك"³.

جاء اهتمام باسكون بتاريخ دارايليج بعد انتهائه من عمله الضخم "حوز مراكش"⁴ حيث عرض آراء ونظريات اتخذها فيما بعد كأساس لدراسة باقي زوايا المغرب⁵ وخاصة تلك التي عاصرت الزاوية المصلوحيية موضوع عمله هذا؛ إذ نجده يؤكد على أن أية حركة ناجحة تنتهي بتأسيس دولة أما تلك التي تفشل فإنها تتفوق، إن لم تتعرض للهدم من طرف السلطة الحاكمة⁶. ثم ينتقل إلى عرض الدورة الكاملة التي تمر منها الزاوية، فهي في نظره تبتدئ بالفقر والهامشية اللذين يتصف بهما الولي، فيقوم باستثمار العجيب والخارق مع استغلاله للعلوم الدينية، في إطار وسط قليل المعرفة معد مسبقا لتلقي مثل هذه الأفكار، مما يجعل الولي منتجا للمعجزات ومؤثرا في الخيال، ثم يأتي دور البركة وتأثيرها في تنظيم الصراع بين القبائل دون أن تعمل على القضاء عليه، ويترتب عن هذه البركة تزايد للصدقات والهبات الممنوحة للزوايا، مما يجعل حالتها الاقتصادية في انتعاش كبير يوازيه النفوذ الروحي للزاوية على العديد من القبائل المجاورة، ومع وفاة الولي تكون الزاوية الأم قد حققت امتدادا روحيا

¹ - Pascon (P), «Le commerce de la maison d'Illigh», in *Anales*, E.S.C, n° 3-4, mai-aout 1980, p. 700.

² - استطاع باسكون الكشف عن مجموعة من السجلات التجارية، كانت سندا لباحثين آخرين من اجل كتابة تاريخ اقتصادي لمنطقة البغ ما بين القرنين 17م و19م ومن بين هذه السجلات:
- سجل بودميعة: الكناش المسمى ديون البيوعات، يحتوي على تقايد تهم ملكيات دار البغ من القرن 17 إلى القرن 18م.
- سجل هاشم السملالي: كناش رقم 2 يضم أهم العمليات المتعلقة بتجارة القوافل من 1806م إلى 1825م.
- سجل الحسين أوهاشم: كناش 3 و4 و5 و8، ويضم 92% من المشتريات العقارية.
وقد حصلنا على نسخ مصورة لكل هذه الكناش، بعضها من خزنة السيد بودميعة بايليج والبعض الآخر من خزنة باسكون والأستاذ الناجي من كلية الحقوق بالرباط، كما حصلنا على نسخة ثالثة من خزنة الأستاذ عمر أفا بالرباط.

³ - Pascon, *la maison d'Illigh*, op.cit, p. 6

⁴ - Pascon (P), *Le Haouz*, T I-II, Rabat, 1977.

⁵ - من بين الزوايا: زاوية تامصلوحت والزاوية الوزانية، ثم زاوية سيدي احمد أموسى أنظر:

Pascon, «Le commerce», op.cit, p. 7

⁶ - Pascon, *Le Haouz*, op.cit, TI, p.256.

يستثمره ورثته في بناء الدور السياسي للزاوية مستغلين من أجل ذلك وضعية السلطة المركزية¹. ويعود باسكون إلى طرح هذه الأفكار مرة أخرى في مقاله تجارة داراييلغ² حيث تحدث عن أسبقية الرأسمال الرمزي على الرأسمال المادي. ويقترح الالتزام، في إطار هذه الدورة الكاملة التي تعرفها الزاوية، بالتصميم المقترح من طرف كيلنر (Gellner)³. ففي البداية نجد الجد الأسطوري الذي يعيش حالة قصوى من الزهد، يكون خلالها منفصلا عن كل الماديات، فهو يمارس العبادة ويسعى إلى تعميق إيمانه، وسواء كان شريفا أم لم يكن كذلك، فإن العادة تقتضي التصريح بالشرف بعد النجاح في تثبيت الذات، ثم إن كراهية الولي للماديات والمأكولات والعطايا يقابلها كرمه الزائد، فهو يعطي كل ما يتوصل به ولا يتوانى عن جعل زاويته مجالا للتوزيع العمومي للصدقات.

وهكذا يكون للولي دور ملحوظ وتدرجي في الحد من الفوارق الاجتماعية والفوارق الجهوية، وكذا التذبذبات البي سنوية. ولا يحقق في نهاية المطاف ثراء بل يكتفي بالتراكم المعنوي⁴.

يتضح مما عرضناه من كتابات باسكون أنه لم يكن يسعى إلى دراسة بداية الأسرة الإبلية، ولا التحولات التي عرفتها المنطقة مع الشيخ احمد أموسى نفسه، بل كان الموضوع الأساس لمقالاته هو الوقوف على الأدوار التي لعبتها داراييلغ في تجارة الجنوب الغربي المغربي ما بين القرنين 17م و19م. أما الدراسة المعنوية بـ "موسم غشت الكبير، موسم سيدي احمد أموسى"⁵ فهي دراسة ميدانية اهتمت ببعض الجوانب التاريخية من حياة الشيخ احمد أموسى عبر موسم غشت 1981 م إلا أن الحيز الذي خصص له كان قليلا بالمقارنة مع حجم الدراسة. وقد جاء في الفصل المعنون بـ "الأسس الأسطورية والتراجم التي تناولت حياة سيدي احمد أموسى"⁶ عرض لمختلف مراحل حياة الشيخ ابتداء بمناقشة أصله الذي جعله الباحث، خطأ، يعود إلى العروسيين بجبل العلم بالريف في شمال الغرب، حيث قبر عبد السلام بن مشيش⁷، مروراً بجمع بعض الروايات الشفوية المتعلقة بفترة استقراره بتازروالت، وما تلا ذلك من مقاومة محلية لبعض المعتقدات الموروثة⁸ ولا تخلو هذه النقطة بدورها من أخطاء تاريخية⁹ ولعل أهم جزء، في هذا الحيز القليل المخصص للشيخ هو ذلك الذي تناول بالدرس والمناقشة مصادر حياة الشيخ سواء منها المصادر المكتوبة أو المروية¹⁰. على أن الباحث لم يستطع الإلمام بكل المصادر المحلية التي تناولت بعض الجوانب من شخصية سيدي احمد أموسى¹¹.

إجمالاً، يبقى الشيخ احمد اموسى في نظر كل هؤلاء الباحثين، المؤسس الروحي لذلك الجاه الاقتصادي والسياسي الذي ستعرفه الأسرة بعد مرور أزيد من نصف قرن على وفاة الشيخ. ويعتبر باسكون (Pascon) نفسه "أن الجانب

¹- Ibid, p. 256.

²- Pascon, «le commerce», p. 702

³- Gellner (E), *Saint of Atlas*, Weidenfeld Ans Nicolsen, London, 1969, pp. 41-463, pp. 52-53, pp. 67-68.

وعن انتشار النظرية الانقسامية يرى حمودي "أن النموذج الانقسامي يمارس حالياً تأثيراً قوياً ومغزياً على الباحثين وهو النموذج الذي حاول إيرنيس كيلنر تطبيقه على قبائل الأطلس الكبير في كتاب ظهر له بالانجليزية منذ عدة سنوات، تحت عنوان: "صلحاء الأطلس"، المقالة السابقة، ص. 38، وهذا يطابق ما يعتقد باسكون (Pascon) نفسه، فهو يرى في النظرية الانقسامية نقطة محددة، ونوعاً ضمن جنس معين يستحق منا دائماً الإحالة عليه والرجوع إليه دون أن ننسى أنه تبلور في حقل اجتماعي مختلف". انظر:

- Pascon, *Le Haouz*, TI, op.cit, p. 257, note 3.

⁴- Pascon, «le commerce», op.cit, p. 702.

⁵- Le grand Muggar d'Aout, in *la maison d'Illigh*, op.cit, p. 141.

⁶- Ibid, p. 151, p162.

⁷- Ibid, p. 151.

⁸- Ibid, pp. 155-156.

⁹- ومنها حديثه عن أولياء تازروالت قبل ظهور الشيخ بها، فذكر من بينهم الشيخ يحيى أويدير التوماري P156. مع العلم انه لاحق عن تلك الفترة، فالبعيلي يشير الى أنه من مريدي الشيخ احمد أموسى. البعيلي، مناقب، ص. 16.

¹⁰- Pascon, *La maison d'Illigh*, op.cit, pp. 151-152

¹¹- كتقييد السكيتي، مؤلف بيورك السملالي وغيرهما.

الأسطوري جاء سابقا على الجانب السياسي الذي أتى بدوره سابقا على الجانب الاقتصادي"¹، فهو يوازي بين ظهور الشيخ في المنطقة وامتداد شهرته الروحية في حين يبتدىء الجانب السياسي الفعلي للزاوية مع أبناء الشيخ أنفسهم وخاصة علي بن احمام (توفي 1006هـ/1597م-1598م)² وابراهيم بن محمد بن احمام (توفي سنة 1020هـ/1612م-1614م)³ ويتوج هذا بروز الجانب الاقتصادي مع حفيده بودميعة (1021هـ-1070هـ/1613م-1660م)⁴ ويرى باسكون أن الانتصار السياسي لبودميعة لم يتحقق إلا بفضل قفزة اقتصادية تأتت بسيطرته على مركزية التداول والتجارة في كل الصحراء⁵.

¹ - Pascon, «Le commerce», op.cit, p. 70.

² - انظر: السوسي، ايلغ قديما وحديثا، ص. 27

³ - نفسه، ص. 35

⁴ - نفسه، ص. 42-222

⁵ - Pascon, «Le commerce», op.cit, p. 70.

الفصل الأول

الزاوية السملالية: الشيخ المؤسس

I / أصول الأسرة السملالية التزروالتية

يبدو الحديث عن أصول الأسر والقبائل في سوس أمرا صعبا، وذلك في غياب معطيات مادية وبشرية واضحة. فقد عرفت القبائل منذ القرن 14م تحركات مستمرة لم تلتزم خلالها بمسار مضبوط، مما يجعلنا نتساءل عن مدى صحة الروايات المنسوجة حول أصل كل قبيلة على حدة. وتكمن الصعوبة أيضا في اختلاف الروايات وتضاربها التام، " فالأنساب كانت نوعا من التاريخ الشفوي وشفويته لعبت دورا بارزا جعل الجماعة، أو الاختصاصيين على الأقل، تتحكم فيه لإخضاعه لمتطلباتها الآنية، ومصالحها الظرفية.¹

لذلك فإن الوقوف على أصل الأسرة السملالية يستلزم منا تتبعنا شاملا لبعض الإمكانيات التي توفرها المصادر المعاصرة والتي يمكن تقسيمها إلى قسمين: القسم الأول من المصادر وأكب فترة حياة الشيخ احمد أوموسى²، والقسم الثاني نسج بعد ذلك بقليل أو كثير.³ إلا أن الصنف الأول لم يكن يتوخى الحديث عن أصول الأسرة ولا عن بدايات الشيخ وإنما ركز في أغلبه على الفترة الثانية من حياته، والتي نصلح عليها "بالفترة التازروالتية" ولم يذهب إلى أبعد من ذلك للتحقق من نسبه فكان لا بد من انتظار النصف الثاني من القرن 17م لنقف مع التمارتي على شجرة نسب الشيخ احمد أوموسى⁴ المتزامنة وتأسيس بودميعة، حفيد الشيخ احمد أوموسى، لإمارة إيليج. وقد استدعى ضبط أصول هذه الأسرة الحاكمة وضع شجرة نسبتجع بها إلى الأصل الشريف⁵. وإذا كان التمارتي، شأنه في ذلك شأن الكثيرين من بعده⁶ قد اقترح أصلا للأسرة السملالية، يعود بها إلى الأصل الحسنى الشريف، فإن الشجرة التي اقترحها لا تخلو من الثغرات، وهذا ما تفتن له العلامة المختار السوسي وحدا به إلى تقديم شجرة جديدة تطابق التقسيم التاريخي والمنطقي⁷. وعرض المختار السوسي في مجال آخر رواية عن أول من دخل من رجال هذا النسب إلى بلاد إداوسملال وهو "ابراهيم بن عبد الرحمان بن محمد بن أحمد ابن الحسين "المعروف" بالجنيد"، جاعلا إياه جدا أعلى لكل السملاليين الأحكاكين الذين تفرع عنهم آل الشيخ احمد أوموسى، ومقسما شرفاء إداوسملال إلى فرعين: الأول إدريسي والثاني حسني: "فأهل تكانت أو كضيض أدارسة، والأحكاكين وهو أكثر

1- علي صدقي أزيكو، "النسب والتاريخ وابن خلدون"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، عدد 11، 1985، ص. 49

2- ونعني بذلك مؤلفات كل من أدفال والسكيكي.

3- يمكن أن ندرج ضمن هذا الصنف مؤلفات: البعقلي، التمارتي والحضيكي.

4- استهل التمارتي ترجمته للشيخ بعرض لشجرة نسبه فهو: " أبو العباس أحمد بن موسى بن عيسى بن أبي بكر بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن يوسف ابن صالح بن طلحة بن أبي جمعة بن علي بن عيسى بن الفضيل بن عبد الله ابن حنيد بن عبد الرحمان بن محمد بن أحمد بن إسماعيل بن جعفر بن عبد الله بن الحسن ابن الحسين بن علي بن أبي طالب". انظر: التمارتي، الفوائد، ص. 67.

5- وفي هذا الخضم عمل بودميعة على تحفيز النسابة على جمع الأنساب السوسية وتحقيقها ونتج عن عمله هذا تأليف: أحمد بن محمد الرسموكي، للجمرة السوسية في انساب أهل سوس، مخطوطة خزانة محمد المختار السوسي، رقم د.م. 291.

6- اهتم المؤرخون والنسابة بوضع شجرة نسب الأسرة السملالية متأرجحين في ذلك بين الأصل الحسنى والأصل الإدريسي، ومن بين من رجح الأصل الحسنى من المؤرخين التقليديين وأصحاب المناقب:

- التمارتي، الفوائد، ص. 67.

- الحضيكي، المناقب، ج1، ص. 1-2.

- الزموري في كتيب له حول الأشراف قدمه سلمان (SALMAN)

- SALMAN (G), «L'opuscule du Chaikh Zemmôry sur les Chorfas et les Tribus du Maroc», in Archives Marocaines, T II, Paris, 1974, p. 263.

ومن النسابة نجد:

- أبو القاسم الزياتي، تحفة الحادي المطرب، مخطوطة خزانة ابن غزني لصاحبها الأستاذ المنوني، ص. 1.

- الحاج الحسن البعقلي، تبين الأشراف أهل دائرة الوسائل وقبله توجه لكل سائل، المطبعة العربية، الدار البيضاء، 1318هـ، ص. 8، 11.

7- صحح محمد المختار السوسي شجرات النسب الواردة في كثير من النسخ ومنها تلك التي قدمها التمارتي، وقد اعتمد من أجل ذلك على شجرة نسب السلطان العلوي محمد بن عبد الله، مضييفا بذلك ثلاثة أسماء للشجرة التي اقترحها التمارتي. انظر: السوسي، البغ قديما وحديثا، ص. 19.

انتشارا وأعز نفرا وأعرق نسبا، كانوا من أبناء الحسن المثني، فهم حسنيون¹ مع العلم أن الجهة التي توجد بها المدرسة العلمية، وبيت الشيخ بومروان تدعى "تكانت أو كضيض".

ولم يتوقف البحث في أصول الأسرة السملالية التازروالتية عند هذا الحد، بل استمر ليعطينا مع الكتابات الغربية² أصولا جديدة تتأرجح بين تبني الأصل الإدريسي³ والأصل الجعفري⁴. وإذا كنا نتبنى ترجيح الأصل الإدريسي، فإننا لا ننتقل من خلفية الكتابات الأجنبية وإنما نعتمد في ذلك على تقص لمجموعة من شجرات الأسر الوليتية⁵ التي تتفق على جعل زوزان بن يعلى التامدولتي⁶ جدا مشتركا بينها .

1. المرحلة التامدولتية:

سنعمل، إذن على ترجيح الانتماء إلى الفرع الإدريسي، علما منا بأن: "أولاد المولى إدريس بن عبد الله لما تغلب عليهم بنو العافية من زناتة في القرن الرابع الهجري، تشتتوا في كل وجه منكرين لذلك النسب الشريف حقنا لدمائهم، فتسرب جمهورهم إلى جبال جزولة ولتينة ومانوزة إلى بلاد القبلة.⁷ والواقع أن اختيار الأدارسة للاستقرار بتامدولت قد تم بدقة متناهية، فهي توجد قرب منجم غني بمعدن النحاس فضلا عن كون المنطقة آخر نقطة مأهولة بالسكان قبل الانطلاق في الصحراء وقد تحدث البكري عن هذه المدينة في القرن الحادي عشر الميلادي، فوصفها بأنها "تتوفر على معدن غزير كثير المادة."⁸ لكن سرعان ما انقلبت الأمور ففقدت تامدولت إشعاعها الاقتصادي. هذا ومسألة خراب تامدولت يكتنفها غموض كبير أدى إلى ظهور روايات متضاربة، اهتم الباحثون الغربيون⁹ بمجمع بعضها، فقد قدم جيستنار (Justinard)¹⁰ أول رواية حول هذا الموضوع وروايته هذه غنية من الناحية الأسطورية أكثر منها من الناحية التاريخية، ولعل ما يمكن الاحتفاظ به، بخصوصها، هو إسهام عناصر خارجية في خراب هذه المدينة؛ مما أدى إلى انتقال مركز النشاط الاقتصادي من مدينة تامدولت إلى مدينة نول لمطة، التي لا تبعد عنها إلا يسيرا نحو الغرب¹¹. وقد علق أحد الباحثين على هذا الغموض قائلا: "لا يمكننا التحدث عما حدث بالضبط خلال القرن 14م أي حينما عوضت أفا تامدولت لكن خلال هذه الفترة لوحظت تحركات سكانية بسبب الوجود المعقلي مما أدى بالسكان إلى الانتقال نحو سوس"¹² وقد اتخذ السكان المهاجرون من تامدولت المحور التجاري الرابط بين الجنوب والشمال كطريق لتنقلاتهم، مما جعل الأسر التي تعود بأصولها إلى تامدولت تستقر في كل من "اسافن، واداوزكري، واداوكنسوس، واداو سكاو فلا"¹³ وبذلك لا يستبعد أن يكون انتقال سيدي زوزان جد الأسر الوليتية من

¹ - السوسي، المعسول، ج 12، ص. 5

² - Le chatelier, *tribus du sud Ouest*, op.cit, p. 42. Justinand, *un petit royaume*, op.cit, p. 18. Rosenbenger, «Tamdult, cite manière et caravanière du IX au XIVe siècles», in *Hesperis-Tamuda*, 1970, p. 131, p. 135. Meunie, *le Maroc Saharien*, op.cit, p. 236.

³ - يعتبر لوشاتولي (Le Chatelier)، حسب علما أول من جعل نسب الشيخ احمد موسى إدريسي، منحدرًا به من مولاي عبد الله اصغر أبناء المولى إدريس الذي يحكم سوس بعد تجزيء دولة الأدارسة، ص. 42.

⁴ - جعل جيستنار (Justinard) الشيخ احمد موسى شريفا جعفريا عن طريق انتسابه إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وبخصوص الفرع الجعفري هذا فقد وقع اختلاف كبير حول دخوله أولا إلى المغرب. وقد حاول الناصري إثبات ذلك في كتابه: *طلعة المشتري في النسب الجعفري*، المؤسسة الناصرية للثقافة، سلا، 1987، ص. 120، 126.

⁵ - انظر الملحق، ونعني بالأسر الوليتية: أسر من داو لعقيل، إداوكرسموك وإداو سملال، راجع بهذا الصدد: أحمد التوفيق، مادة "إداولتيت"، *معلمة المغرب*، ج1، ص. 228-229.

⁶ - وزوزان هذا هو "زوزان بن يعلى بن سعيد بن أحمد بن يوسف بن حروش بن عبد الرحمان بن أبي القاسم بن إبراهيم بن احمد بن محمد بن علي بن احمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي بن عبد الله بن محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن المثني بن الحسن السبط بن علي بن ابي طالب". وقد ذكر هذا النسب: السوسي في *المعسول*، ج 8، ص. 190، ج 19، ص. 241.

⁷ - السوسي، المعسول، ج3، ص. 249.

⁸ - أبي عبيد البكري، "المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب"، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى ببغداد، (بدون تاريخ)، ص. 163.

⁹ - Justinard, «Poème Chleuhs», op.cit, p. 66. Rosenberger, «Tamdul», op.cit, p. 127.

¹⁰ - Justinard, *Ibid*, p. 66.

¹¹ - عمر أفا، *مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر (سوس 1822-1906)*، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، 1988، ص. 297.

¹² - Rosenberger, «Tamdul», op.cit, p. 133.

¹³ - لقد تعددت الأسر التي ترجع بأصولها إلى تامدولت وأفا مما حدا بمونتي (Monteil) إلى القول بأن أيت باعمران لجأت "بدورها إلى أسطورة تامدولت لإثبات أصلها الشريف والرد على أعدائها الذين اعتبروها من سلالة حراطين أكلو".

تأمدولت ضمن هذه الحركية السكانية التي عرفها الجنوب المغربي خلال القرن 14م فاختار الاستقرار في إداوكرسموك بمنطقة "تافراوت نايت مولود"¹ وإذا كان من الصعب التعرف، بالضبط، على مراحل استقرار هذه الأسرة التأمدولتية بالمنطقة، فإن بعض الوثائق المحلية² تشير إلى التفرعات التي ستعرفها لتصبح أصلا لكل إداولتيت، فمحمد الملقب بتازاليت هو جد إداومعقل، وحركيل جد إداوكرسموك، وإدريس جد السملاليين³. وقد انتقل إدريس، هذا، من "تافراوت نايت مولود" إلى "الماتن" في إداوكرسموك حيث ولد له موسى بن إدريس بن زوزان لينتقلا، معا إلى "بومروان" مسقط رأس الشيخ أحمد أوموسى.

2- المرحلة البومروانية:

تقع "بومروان" على الطريق الرابط بين تزنت وتافراوت، فبعد تجاوز مرتفع كردوس، يدخل المرء إلى بلاد إداوسملال ويستمر الطريق في الانحدار حتى ضريح "للاتعزى تاسملالت" حيث تظهر العديد من القرى الممتدة إحداها تدعى بومروان. وتمثل بومروان إحدى فروع قبيلة إداوسملال، فهي "أيت مولاي" تشكلان أبرز أماكن الاستقطاب الروحي لكل سكان الجنوب المغربي، وكلاهما فرع من "أيت عروس". وقد أدى هذا ببعض الباحثين إلى اعتقاد أن منطقة بني عروس، هذه هي تلك الموجودة بجبل العلم شمال المغرب وبذلك جعلوا أصول الأسرة تمتد إلى الشيخ عبد السلام بن مشيش أكبر سلطة روحية ببلاد جبال⁴.

وقد عرفت منطقة بومروان بروز العديد من الأولياء خاصة في "أيت مولاي وأحكوك" و "تكانت وأكضيض"⁵ حيث نجد سيدي محمد بن سليمان الجزولي صاحب دلائل الخيرات، وسيدي أبابكر بن سليمان وغيرهما. ووسط هذا المناخ الصوفي المتميز كانت ولادة أحمد أوموسى سنة 853 هـ بقبيلة إداوسملال من أبوين هما: السيد موسى، والسيدة تاونو البعقلية⁶، مما يستدعي التساؤل حول المكانة التي كانت لوالديه قبل بروز مشيخته. وفي غياب قرائن مادية ملموسة نستعين ببعض ما تحتفظ به الذاكرة الشعبية المحلية لنخلص إلى اعتبارهما مجرد أناس عاديين، ولعل ما يدعم هذا الاحتمال هو الاخلاق التي نشأ عليها أحمد أوموسى طفلا، فكان حسب الكل يتسرع إلى مواقع اللهو؛ إذ تقدمه بعض الحكايات وهو يحمل "ألون" أي "البندير"، ويساهم فيما يقوم به أقرانه من إفساد للغلل والمرافق، دون أن يكون لهما يد في إصلاحه. ولقد حاولنا تتبع بعض جوانب حياة والد الشيخ أحمد أوموسى من غير أن تتمكن من الخروج بصورة واضحة عن مكانته وسط مجتمع إداوسملال؛ ولربما كانت وفاته المبكرة سببا في ذلك. وعلى العكس من ذلك فإن السيدة تاونو حظيت باهتمام بعض الاخباريين⁷ سواء في إطار علاقتها بابنها أحمد أو فيما يتعلق بموقف قبيلة إداوسملال منها؛ إذ تعرضت السيدة تاونو لاعتداء قبيلة إداوسملال ونهبهم

¹ - تقع منطقة اداورسموك (أرسموكة) شمال إداوسملال على بعد مراحل من تأمدولت، اشتهرت بالتعددين، فهناك إشارات تاريخية تؤكد أن جيل أكوتم الواقعة عند اداورسموك ينتج معدن الفضة، مما قد يفسر جزئيا استقطابها لهذه الأسر التأمدولتية. لكن إذا كانت تعوزنا المعلومات المدققة عن الأهمية الإستراتيجية والاقتصادية لمنطقة اداورسموك في الفترة الوسيطية فإن هذا لا يمنع من القول أنها ظلت تشكل مجالا مستقطبا لاهتمام أفراد الأسرة السلالية سواء منهم أحمد أوموسى الذي اتخذ حسب مقولة الرواية الشفوية، أقرانا من هذه القبيلة، أو علي بومديعة الذي استغل معدن أكوتم لسك عملته التي أسماها الكنامية، راجع في هذا الصدد: عمر أفا، مادة "أكوتم"، معلمة المغرب، ج1، ص ص. 635-637.

² - بخصوص إحدى هذه الوثائق انظر الملحق. انظر أيضا: الحسن البعقلي، تبيين الأشراف، ص. 98.

³ - تعد إداوسملال (أو سملالة) من قبائل إداولتيت، موطنها الحالي بالأطلس الصغير بين أنزي وتافراوت، راجع: أحمد التوفيق، مادة "إداوسملال"، معلمة المغرب، ج1، ص. 227.

⁴ - Pascon, la maison d'Iligh, op.cit, p. 155

ناعمي مصطفى، مادة "أحمد أوموسى"، معلمة المغرب، ج1، ص. 160.

⁵ - السوسي، إيلغ قديما وحديثا، ص. 17. السوسي، سوس العالمية، ص. 125.

⁶ - يتصل نسبها، حسب السوسي، بالشرفاء "الأحكاكين" المذكورين في نسب ولدها أحمد أوموسى. انظر: السوسي، المعسول، ج12، ص. 6، ج18، ص. 402.

⁷ - أدفال، تقييد، ص. 4.

لبقرتها. وقد يفسر هذا الاعتداء بغياب العصبية لدى أسرة الشيخ بالمنطقة¹.

II / الزاوية السملالية: الشيخ المؤسس

1- ولادته ونشأته:

لقد كانت ولادة الشيخ احمد أومرسي، كما رأينا سابقا، بيومروان حوالي 853 هـ تعلم القرآن في المدرسة الصغيرة "أخريش" على يد جيرانه الكراميين علماء "تزمورت"² إلا أن اهتمامه بتحصيل العلم اصطدم بطبيعته المرحة التي جعلته متسرعاً إلى مواقع اللهو، وجعلت أغلب الحكايات التي تناولت طفولته تتفق على شغبه المطلق. فقد أكد أدفال، وهو أقرب المعاشين للشيخ، أنه سمع عن ذلك ممن عانى من رعونة الشيخ في شبابه³ لكن فجأة يحدث تحول في حياته، مما جعل أقرانه يندهشون من انقلاب حاله وخضوعه، والحكاية التي تحمل تفاصيل هذا التحول جاءت بصيغ مختلفة⁴ ولكنها تتفق جميعها، على أن احمد أوموسى كشف عن ردود فعل مغايرة لا عهد فيه لمجرد حملة لقفه تين من مكان إلى آخر، استجابة لرغبة شيخ مسن. وتزداد الحكاية تشويقاً وإثارة بتركيزها على أن هذا الشيخ المسن لم يكن شخصاً عادياً، بل كان ولياً صالحاً مستجاب الدعاء، ومما أعطى الموقف نوعاً من الهالة والرهبنة هو انتقال احمد أوموسى مباشرة، بعد هذه الحادثة، من طفولته المرحة إلى حالة من الدهول التام، لكن لم يكن هذا الانتقال سهلاً، كما قد يبدو بل امتزج خلاله عرق الطفل بعسل التين، والحناء السائل على رقبتة تأكيداً على إصراره المتزايد على الخروج من طينته إلى طينة أخرى. وباستقراءنا للمصادر حول ذلك الشيخ المسن، صاحب القفة، نجدها تقدم روايات متضاربة. فمحمد بن يدير التاغلولوى⁵ يذكر الشيخ ابراهيم بن على دفين "إيمولا" في "يغشان"⁶ وقد نقل عنه الرسموكي ذلك معتقداً بدوره أنه "شيخ الولي الصالح سيدي احمد أوموسى وله معه قصة مشهورة كانت سبب رجوعه للطريقة".⁷ أما أدفال فيرى أن الشيخ محمد الوجاني، دفين "وجان" "إدادوسمال" هو ذلك الشيخ المسن الذي عجز عن حمل قفته "مكتفياً بالدعاء لحاملها"⁸ وكيفما كان الحال، فإن هذا الانتقال المفاجئ نحو الزهد والتصوف لن يحو، نهائياً، خصائص الشيخ احمد أوموسى المتعلقة بالخصوص بحبه للتجوال والحركة البدنية، بل سيفتح له، هذا التحول، مجالاً جديداً لإثبات ذاته مبتدئاً بذلك سياحته نحو اكتشاف خبايا النفس، والعالم".

2- سياحته:⁹

نستطيع الحديث عن سياحة الشيخ احمد أوموسى انطلاقاً من زوايا متعددة. وذلك لاختلاف المصادر التي تحكي عنها. فإذا ما تناولناها من منظور الشيخ نفسه،¹⁰ فإننا نجدها تأخذ بعددين اثنين: طول المسافة التي قطعها وعدم استعانتها بمطية خلالها. وقد حاول الشيخ إحاطة سياحته، هاته، بالكتمان والغموض¹¹ مما فتح المجال أمام الآخرين لتقديم روايات

¹ - وقد يكون مرد هذا ما أشرنا إليه سابقاً من أن السيدة تاونو بعقيلية.

² - السوسي، المعسول، ج 12، ص ص. 6-7.

³ - أدفال، تقييد، ص. 7.

⁴ - قدمت لنا الحكاية، مغناة ومنظومة على شكل قصيدة شعر، كما سمعناها نثراً، ورأينا بعضها مكتوباً ضمن مخطوطات مستقلة وتجعل بعضها، الشيخ الذي صدرت عنه هذه الدعوة امرأة مسنة في حين يتفق أغلبها على أنه رجل مسن.

⁵ - راجع لائحة مريدي الشيخ احمد أوموسى، ص. 87.

⁶ - انظر ترجمته في: السوسي، المعسول، ج 12، ص. 7.

⁷ - الرسموكي، وفيات الرسمكي، تحقيق المختار السوسي، طبع رضي الله عبد الوافي المختار السوسي، سلسلة مصادر المعسول، الطبعة الأولى، 1988، ص. 12.

⁸ - أدفال، تقييد، ص. 6.

⁹ - لقد كان الصوفية يتجولون في البلدان جماعات وكانوا يسمون هذا الجولان سياحة، وهدفها كان يتوخى بالأساس زيارة الشيوخ والإخوان وإفادة العلم.

انظر: محمد مفتاح، التيار الصوفي والمجتمع في الأندلس والمغرب القرن 8هـ / 14م، ج1، رسالة جامعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1981، مرقونة، ص. 188.

¹⁰ - أشار التمارتي إلى وجود مخطوطة منسوبة إلى الشيخ يحكي خلالها مراحل سياحته إلى المشرق، وقد عثرنا على نسخة من هذه المخطوطة وأوردناها في الملحق. انظر: عبد الرحمان التمارتي، الفوائد، ص. 75.

¹¹ - أدفال، تقييد، ص. 1.

متضاربة بعضها يتسم بالغلو والاستحالة، وبعضها الآخر لا يعدو أن يكون تكرارا لما عرف عن باقي المتصوفة¹. ويمكن التمييز بين رأي العلماء والمتصوفة في سياحته، ورأي العامة فيها. أما عن رأي المتصوفة والعلماء فإنه يتسم بالاختلاف: فبينما يأبى الشيخ محمد وأبراهيم التمارتي² الحسم في هذه المسألة مكتفيا بقوله: "إن سلكها فقد مشاها"³ رادا بذلك على سؤال أدفال المتضمن لما اشتهر عند الناس أنه ساح الدنيا كلها نجد العلامة الحسن بن عثمان⁴ يردد في مجلس إقراءه أن الشيخ أحمد أموسى طلع جبلا مسيرته ثلاثون شهرا بين الظهر والعصر⁵.

وإذا ما تتبعنا رأي أدفال، باعتباره أبرز من ألف حول حياة الشيخ، سنلاحظ تذبذبا كبيرا؛ فبينما يركي بعض الروايات من خلال عرضها التلقائي والمكثف⁶، نجده يشكك في أخرى: "لقد سمعت عنه رضي الله عنه حكيتين في قلبي منها شيء لإيها مظاهر مخالفة علم الظاهر"⁷ أولى هذه الحكايات أنه "لما طلع جبل قاف أصابته السماء في جهته"⁸ والثانية ما حكى عنه أنه "علق شكارته بالثريا"⁹ لكن ما لبث الأمر أن سهل على أدفال لأنه رأى في روضة الرياحين في حكاية الأولياء والصالحين ما يماثل ذلك¹⁰ بل أكثر من ذلك، نجده يحث على التصديق: "فما أحسن الاعتقاد وما أقبح الانتقاد" معتمدا في ذلك على تبني ما جاء في الشرع من "انصر أمر أخيك على خير ما وجدت إليه سبيلا"¹¹.

أما بالنسبة للعامة، فقد كانت سياحته مجالا خصبا لإقحام العديد من الحكايات منها ما اعتبره البعض اقتباسا من الإسرائيليات¹².

ومع ذلك لا يستطيع متتبع سياحة الشيخ أحمد أموسى، كما تقدمها المصادر المتنوعة، أن ينكر الفائدة التاريخية التي تتخللها، فبعد حكايته مع صاحب القفة، وبعد الارتقاء المفاجئ إلى عالم التصوف ساح الشيخ أحمد أموسى في بعض جهات سوس، إلى أن ظهر التباع بمراكش "في العقد الثامن من القرن التاسع الهجري فرحل إليه"¹³ ومن مراكش ابتداء سياحته التي شملت مليانة بالجزائر، حيث قضى عامين ثم انطلق نحو الشرق لزيارة قبر عبد القادر الجيلاني، وانتهت به رحلته إلى بلاد السند¹⁴. وقد ضمت تفاصيل سياحة الشيخ أحمد أموسى أخبارا عن الجبال والصحاري، إلا أن أغلبها كان في الصحراء حيث عانى من الجوع والعطش كما أن أغلب الحيوانات التي صادفها (من أسود وأفاعي وجمال ونوق) وهي كلها حيوانات الصحراء. وقد امتدت أغلب سياحته في الجنوب المغربي حيث زار مسكدادة¹⁵ وتارودانت¹⁶ وفكيك¹⁷ وسجلهاسة¹⁸ ليختم سياحته بزيارة لماسة¹⁹. أما عن الأشخاص الذين لقيهم خلال سياحته فأولهم عبد العزيز التباع¹، ثم الشيخ الراشدي

¹- فهي لا تختلف عما نقرأه في:

- عبد الفتاح كيليطو، "الولي والجمال"، ضمن كتاب التاريخ وأدب المناقب، ص. 43-49.

- أحمد التوفيق، "التاريخ وأدب المناقب من خلال مناقب أبي يعزى"، ص. 81-92.

²- انظر ترجمته في: ابن عسك، دوحة الناشر، ص. 111-112.

³- أدفال، تقييد، ص. 2.

⁴- انظر ترجمته في: أحمد المنجور، فهرس، تحقيق محمد حجي، الرباط، 1976، ص. 51.

⁵- أدفال، تقييد، ص. 1.

⁶- نفسه، ص. 1، 7.

⁷- نفسه، ص. 5.

⁸- نفسه، نفس الصفحة.

⁹- نفسه، نفس الصفحة.

¹⁰- نفسه، ص. 6.

¹¹- نفسه، نفس الصفحة.

¹²- السوسي، المعسول، ج 12، ص. 9.

¹³- نفسه، ص. 8.

¹⁴- Roux, «Les Aventures», op.cit, p. 94.

¹⁵- التمارتي، الفوائد، ص. 68.

¹⁶- أدفال، تقييد، ص. 6.

¹⁷- نفسه، ص. 3.

¹⁸- التمارتي، الفوائد، ص. 78.

¹⁹- Roux, «Les Aventures», op.cit, p. 94.

الملياني²، ثم عبد العزيز القسنطيني³ لينطلق بعد ذلك وسط رفقة لا نعلم عنها الكثير عدا أنها تضم أخوين من بني أحمر هما: علي بن ناصر، وسعيد بن ناصر.⁴

ورغم طول مدة سياحته التي ناهزت الثلاثين سنة، فإنها لم تكن متصلة بل عادة ما كان يعود إلى بلاده بومروان لتفقد أحوال أهله هناك⁵. وكما أن الاختلاف وقع في تاريخ انطلاق سياحة الشيخ احمد أوموسى، وقع أيضا، اختلاف بين في تاريخ عودته. فالسوسي يقترح تاريخ 910هـ/1504م-1505م كأقرب تاريخ للعودة⁶ رداً بذلك على من جعل عودته تناسب 927هـ/1520م-1521م أي سنة "الجوع الكبير"⁷.

قد نقبل بكون 910هـ/1504م-1505م هو التاريخ الأنسب لعودته، خصوصا إذا علمنا أن ولادته كانت سنة 853هـ وأنه ظل في التدريس أزيد من ستين سنة، في حين كانت فيه سياحته قد تجاوزت الثلاثين بقليل، إلا أننا نكاد نجزم أن الشيخ احمد أوموسى لم يظهر في مجاله الجديد، تازروالت، إلا بعد العشرين من القرن العاشر الهجري⁸، وذلك اعتمادا على شهادات تؤكد أن الشيخ ظهر، أولا في بلدته بومروان⁹ حيث استقبل مجموعة من الأتباع والمتصوفة كرحلة أولى لنشر ما استفاده من تعاليم التصوف الجزولي، وهذا ما يدعونا إلى التساؤل عن مراحل اتصال الشيخ بهذه المدرسة الصوفية للوقوف، بعد ذلك، على الجهود التي قام بها لنقل ما تحصل لديه إلى مريديه وأتباعه.

III / اتصاله بالطريقة الجزولية:

1- خطوط عريضة

يعد محمد من سليمان الجزولي معلمة من معالم التصوف المغربي، فهو مجدد الطريقة الشاذلية، وإليه تنتهى أسانيد الطرق الصوفية بالمغرب¹⁰. كانت ولادته في سوس عند قبائل سملالة وبالضبط في "آيت مولاي" أشهر فروع قبيلة "بني عروس" وذلك في بداية القرن 11هـ/15م. وقد كان للجزولي صدى كبير في كل أرجاء سوس والمغرب بفضل كتابه (دلائل الخيرات) وأيضا بفضل تعاليمه الصوفية المتميزة، وكانت وفاته سنة 870هـ/1465م.

وبما أن الوقوف على تفاصيل نشوء الطريقة الجزولية أمر اهتمت به العديد من المصادر التاريخية¹¹ وكذا الدراسات المعاصرة¹² فإننا سنقوم فقط بعرض سريع لأهم ما تقوم عليه هذه الطريقة. فهناك أولا معرفة التوحيد، ثم وجوب السلوك على يد الشيخ، ثم المداومة على الذكر والصلاة على سيدنا محمد، وضرورة الخلوة بعد التوبة.

وقد حددت آداب المريد مع شيخه في عشرين شرطا. أما مقامات التصوف الجزولي فهي:

أ) التوبة ومصاحبة الأخيار،

¹ - للوقوف على ترجمته راجع: الفاسي، ممتع الاسماع في ذكر الجزولي والتابع.

² - انظر ترجمته في: ابن عسكر، دوحة الناشر، ص ص. 124-125.

³ - أدغال، تقييد، ص. 4.

⁴ - السوسي، خلال جزولة، ج 2، ص. 33.

⁵ - أدغال، تقييد، ص. 2.

⁶ - السوسي، المعسول، ج 13، ص. 10.

⁷ - الفاسي، مرآة المحاسن، ص. 137.

⁸ - أي حوالي 1520م-1521م.

⁹ - أدغال، تقييد، ص. 13.

¹⁰ - داوود بن علي الكرامي، بشارة الزائرين الباحثين في حكاية الصالحين، ص. 3. حسن جلاب، الحركة الصوفية، منشورات الجامعة الشنتوية بفرن، 1988، ص. 310.

¹¹ - حيث نصادف معلومات هامة عن الشيخ الجزولي، وأتباعه ومريديه. راجع: الفاسي، ممتع الاسماع في ذكر الجزولي والتابع، ص ص. 1-20.

¹² - حسن جلاب، الحركة الصوفية، ص. 310. وانظر لنفس المؤلف: "ظواهر سعية في توفير واحترام شيوخ الزاوية البوعمرية بمراكش"، مجلة دار النياحة، عدد 21، السنة السادسة، شتاء

1989، ص. 13، 22.

(ب) الزهد،

(ج) المجاهدة: نحو الصفات المذمومة،

(د) المراقبة،

(هـ) المشاهدة¹.

ويكمن سر انتشار الطريقة الجزولية وتطورها وتعدد أتباعها في واقعيتها ومطابقتها لمقتضى الحال. ولعل أهم ما جاءت به الطريقة الجزولية هو حث أصحابها على الجهاد وربط الجسور بين مجاهدة النفس والجهاد في سبيل الله²، لذلك تفرعت عن الطريقة الجزولية عدة طرق وزوايا انتشرت في كافة أرجاء البلاد، إذ شهد القرن 15م وبداية القرن 16م بروز مجموعة من تلامذة الجزولي ومريديه أمثال: عبد العزيز التباع، وعبد الكريم الفلاح³ وعبد الله الغزواني،⁴ وغيرهم.

2-مراحل اتصال الشيخ احمدأوموسى بالطريقة الجزولية:

لم يأت اتصال الشيخ احمدأوموسى بالطريقة الجزولية صدفة، كما يبدو في المصادر التي تناولت علاقة الشيخ بالتباع⁵، بل بدت هذه العلاقة قائمة منذ استقراره ببومروان، حيث مازال صيت الجزولي قائماً. إلا أن الاتصال الفعلي بهذه الطريقة تم عن طريق أبرز أتباع الجزولي وهو عبد العزيز التباع.

وقبل الخوض في أسباب وحيثيات هذا الاتصال نرى لزاماً الحديث عن طبيعة العلاقة التي تربط التباع بمريديه ليتسنى لنا الوقوف على مدى شفافية العلاقة الموجودة بين التباع، والشيخ احمدأوموسى.

فمن خلال تتبعنا لنموذجين من مريدي التباع، وهما الغزواني وأبو عمرو القسطلي⁶ نخلص إلى جانبين من جوانب التربية عند التباع: فالأول رباه على الإكثار من الاهتمام بأمور الأرض والفلاحة والجهاد من أجل حماية الممتلكات⁷. أما الثاني فقد تعهده التباع بالعناية به من خلال قوله: "نعمه ونثره"⁸ إلا أن هذه العناية لم تستمر، إذ كبر سن أي عمرو دون أن يتعلم القراءة والكتابة⁹ وإذا ما عدنا إلى الشيخ، موضوع الدراسة، سنجد المصادر تتفق على تلخيص العلاقة بينه وبين شيوخه التباع فيما يلي: "هو من أصحاب الشيخ عبد العزيز التباع وعلى يده فتح له"¹⁰ وهنا نتساءل عن مدى هذا الفتح وعن مراحلها.

نجد الصورة كاملة لاتصال الشيخ بالتباع في مناقب أذفال¹¹ فبعد حادثة القفة، التي أشرنا إليها سابقاً، رحل الشيخ إلى مراكش في حالة من الذهول. ولما وصلها دخل سوقها أخرج إليه التباع من يأتيه به، وحين لقيه أمره بالانتظار خارج الدار، فظل احمدأوموسى في مكانه بمزبلة لا يبرحها، لمدة ثلاثة أيام، خوفاً من تفقد الشيخ له فلا يجده، ولم يكن من شأن هذه المبادرة أن تصد من عزيمة احمدأوموسى ولا أن تثني من رغبته، مما جعل علاقته بالتباع قائمة على أساسين نظريين:

أولهما: ترويض النفس ومجاهدتها، فقد سولت له نفسه، لما طال انتظاره، أن ينطلق إلى مكان آخر إلا أنه جاهدتها

1- جلاب، الحركة الصوفية، نفس الصفحة.

2- الفاسي، ممتع الاسماع، ص ص. 5-6.

3- نفسه، ص ص. 48-49.

4- نفسه، ص ص. 38-45.

5- أذفال في تقييده، التمنارتي في فوائده.

6- عبد الواحد المراكشي، الاعلام، ج 1، ص. 331، 342. ابن عسكر، دوحة الناشر، ص ص. 108-109.

7- الفاسي، ممتع الاسماع، ص ص. 36-45.

8- المراكشي، الاعلام، ج 1، ص. 331.

9- جلاب، "ظهائر سعديّة"، ص ص. 13-22.

10- الفاسي، ممتع الاسماع، ص. 50.

11- أذفال، تقييد، ص. 6.

قائلاً: "عل الشيخ يخرج فلا يجدي"¹.

وثانيهما: الثقة التامة في الشيخ، فبعد انقضاء زمن الانتظار امتثل المريد لأوامر شيخه بإنصرافه للنوم. وقد طالت مدة نومه إلا أنه "ظن أنه نام كما ينام الناس"² فلما قال له الشيخ "إنما نمت سبعة أيام"³ استغرب ذلك في نفسه، لكنه قال في نفسه أيضاً "الشيخ لا يكذب"⁴ فوقع التصديق بكلام التابع قبل البحث عن قرائن مادية تثبت صحة ما قاله. وتراعي حكاية أدفال هذا التدرج لتسجل أنه بعد ذلك "نظر إلى جسده فوجده قد نحل وإلى الأرض التي نام عليها فإذا هي قد تندت فظهر له صدق الشيخ"⁵.

هذه، إذن، خلاصة علاقة الشيخ بأستاذه التابع، تلك العلاقة التي لم تتجاوز اختبار النفس وحثها على المجاهدة والتصديق المطلق للشيخ، وبعدها تأتي مرحلة الإرشاد والتوجيه الصحيح نحو مدارك جديدة، لتنتهي بالحث على استمرار الاتصال بين المريد والشيخ حتى بعد وفاة هذا الأخير⁶ وهي علاقة لم ترق إلى مستوى علاقة التابع بالغزواني، فكان مجمل ما أخذه إحماد أموسى عنه هو علم الباطن الذي لا يعلم بالحرف بل ينتقل من الشيخ إلى المريد بفعل التصديق والخضوع، إلا أن انتقال إحماد أموسى إلى مراكش كان مناسبة للاتصال بالعديد من المتصوفة الذين جمعتهم وإياهم نفس المدرسة الصوفية، نذكر من بينهم: عبد الكريم الفلاح والغزواني⁷ وأبا العزم رحال الكوش⁸ وأبا عثمان سعيد بن عبد النعيم⁹ وعبدالله بن حسين المغاري¹⁰ وقد كان من نتائج هذا التلمذ المتزامن أن احتفظ كثير من شيوخ الصوفية بروابط استثمارها فيما بعد.

ويستمر المريد إحماد أموسى في تسلق سلم التصوف باتصاله بالشيخ الراشدي الملياني، نزيل مليانة بالجزائر، وكان ذلك بناء على توجيه من شيخه التابع، فدخل بمساعدة الراشدي الملياني في خلوة دامت سنتين أمره بعدها بالسياحة، وقد استطاع إحماد أموسى بفضل اتصاله بالراشدي، أن يستكمل سلسلة سنده الصوفي وذلك بأخذه عن الشاذلية عبر قناتين: قناة التابع ثم الجزولي، وقناة الشيخ أحمد زروق¹¹.

3- الأذكار والأدعية

نخلص إل التساؤل عن مدى ما حصله إحماد أموسى من مبادئ حول الطريقة الجزولية. لقد اعتمد الشيخ إحماد أموسى أثقل أسس الطريقة الجزولية وأكثرها وزناً؛ وذلك بتشديده على مسألتي التوحيد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، إذ نجد صاحب المرآة يقول في هذا الصدد: "قال لي شيخ الإسلام أبو عبد الله محمد بن الشيخ الكامل سيدي أبو بكر أنه بلغه أن الشيخ الشهير الولي الكبير سيدي أحمد بن موسى الجزولي السلمالي جاءه رجل بكتاب مطوي فناوله إياه، فقال له: لا أقبضه حتى تعدله ففتحه الرجل وتأمله فلم يجد فيه شيئاً يصلحه فرده إليه ثانياً وثالثاً ثم تفتن لكون المراد

¹ - نفسه، نفس الصفحة.

² - نفسه، نفس الصفحة.

³ - نفسه، نفس الصفحة.

⁴ - نفسه، نفس الصفحة.

⁵ - نفسه، نفس الصفحة.

⁶ - الفاسي، ممتع الاسماع، ص. 33.

⁷ - أدفال، تقييد، ص. 5.

⁸ - انظر الترجمة في: ابن القاضي، درة الحجال، 3، 2863 رقم 1385. التمنارتي، الفوائد، ص. 28-29. المكي الناصري، الدرر المرصعة بأخبار اعيان درعة، تحقيق محمد الحبيب نوحى، رسالة جامعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1988، مرقونة، ص. 135-136.

⁹ - انظر ترجمته في: ابن عسكر، دوحة الناشر، ص. 102-103.

¹⁰ - انظر ترجمته في: أحمد المنجور، فهرس، ص. 19-20؛ أحمد بابا، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، دراسة وتحقيق مطيع محمد، رسالة جامعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1987، مرقونة، ص. 74.

¹¹ - ابن عسكر، دوحة الناشر، ص. 3-4. محمد بن عبد الله البكري، سلسلة الأنوار للأشياخ الأبرار، ميكروفيلم خزانة الوثائق، جائزة الحسن الثاني، تارودانت، رقم 887، ص. 72. محمد العربي بن الطيب القادري، الطريقة في اختصار التحفة، مخطوطة خزانة الوثائق بالرباط، ص. 8. سلسلة نسب الشيخ الجزولي، ميكروفيلم خزانة الوثائق، جائزة الحسن الثاني، تارودانت، رقم 887، ص. 78. وثيقة خاصة تبرز السند الصوفي للشيخ إحماد أموسى.

ذكر الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وقد كان أسقطها فكتبها"¹.

ومن الأدعية التي اشتهر بها الشيخ احمد أوموسى: "اللهم رب الإيمان والإسلام والكتب والسنة بجرمة الإيمان والإسلام والكتب والسنة أحيانا على الإيمان والإسلام والكتب والسنة وامتنا على الإيمان والكتب والسنة وبعثنا على الإيمان والإسلام والكتب والسنة بجرمة الإيمان والإسلام والكتب والسنة فإنه لا اله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين"² ومن مستفتحات أذكاره "الحمد لله الواسع الجود والعطى، العالم بما كان وما يكون من العلوات الثرى، الباعث الرسل لإقامة الحجّة على الورى، وخص من بينهم أفضل الخلق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بجميع الفضائل والفواصل، وأنزل عليه كتابه الحكيم مفرقا بين الحلال والحرام، من حكم به اهتدى ومن خالفه ضل واعتدى، فسبحانه لا اله إلا هو الرحمن الرحيم، فمن نصحه اهتدى به وهدى غيره ومن غشه ضل وأضل غيره. يضل به كثيرا ويهتدي به كثيرا وتنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا تزيد الظالمين إلا خسارا. فنسأل الله تعالى أن يضع لنا البركة فيما وهبنا من نعم الدنيا والآخرة"³.

¹ - الفاسي، مرآة المحاسن، ص. 138.
² - التمارتي، الفوائد، ص. 74.
³ - نفسه، نفس الصفحة.

الفصل الثاني

الزاوية السملالية: آليات التأسيس

I- الزاوية السملالية: ظروف التأسيس

رأينا في الفصل السابق، أن الشيخ احماد أوموسى ظهر، أولاً، في بلدته بومروان حيث تكاثر عليه الأتباع والمريدون، إلا أن ظهوره هذا لم يكن ذا صدى كبير في الروايات لأقترانه بظروف محلية¹ جعلت الشيخ، على ما يبدو، لا يكشف كلية عن مشروعه الصوفي المتميز.

1- انتقال الإشعاع الصوفي من بومروان إلى تازروالت:

قد تختلف الأسباب التي دعت الشيخ احماد أوموسى إلى التفكير في مجال جديد يسمح بإثبات مواهبه، إلا أن البحث في هذا الموضوع لم يفدنا سوى بإشارات معدودة تحيل، في عمومها، على الوضعية الاقتصادية لبومروان بعد مرور زمن على استقرار الشيخ بها،² فقد عرفت بومروان حسب رواية البعقلي جذبا، وبوقوفنا على الرواية بأكملها نرى أن المنطقة لم تكن قادرة على تحمل كل الأعداد البشرية التي تتوجه إليها، فهي حسب البومروانيين أنفسهم: "بلدة قصيرة الغلل زرعا وغيره فإن قدر الله الجذب على الناس نبقى في البراز، لا يقدر كل واحد منا أن ينجي نفسه فضلا عن غيره"³.

وتسجل رواية البعقلي إضافة إلى ما قيل انتقال الشيخ احماد أوموسى من الهامشية الاجتماعية التي كان يعيشها هو وأهله إلى اعتباره منقدا: "إنك جلت في الدنيا وسلكت الجيد والدينىء (...). لو دلتنا على بعض البلاد الجيدة التي فيها العيون الجارية، فننتقل إليها بأولادنا"⁴. ولعل ما يثير الانتباه في هذه الرواية، بالخصوص، هو الربط الواضح بين العامل الديني والاقتصادي لتحفيز همة الشيخ. فهي توازي بين: "بني فيها جامعا نعبد الله فيه"⁵. و"نستغلها مدة حياتنا ونترك، أولادنا في السعة ورغد العيش"⁶ ويستمر البعقلي في عرض الرواية ليقدم لنا الشيخ احماد أوموسى رافضا لهذا الانتقال المفاجئ ومركزا على الميزة التي يمنحها مناخ المنطقة: "اعلموا أنكم لو مشيتم إلى بلاد (الشام) التي تذكر لكم بأنواع النعم (...). لم تجدوا فيه قرين بلدتكم في الصحة والبركة والنعم المباركة"⁷، لكن حدوث الانتقال يجعلنا نتساءل عن السبب الذي جعل الشيخ يوافق على ترك بومروان إلى مستقر جديد. بالرجوع إلى المصادر التاريخية، نجد أنفسنا أمام عدة احتمالات منها ما قدمه المختار السوسي من أن الشيخ أراد الابتعاد عن أهله والانزواء في مكان لا يكدر عليه فيه أحد⁸، ولا نرى سببا لاعتقاده ذلك سوى اعتماده على ما عرف عن المتصوفة من حب الانزواء⁹، أما نحن فالتزاما منا بنفس السياق العام الذي قدمته رواية البعقلي، واعتمادا على ما تحمله الذاكرة الشعبية من مآثورات عن الشيخ، نرى أن السبب في انتقاله هو إيمانه بأن " بومروان ملائمة لكن

¹- يمكن أن نجمل هذه الظروف في الأوضاع الاقتصادية المزرية عن مجاعة بداية القرن 16م، ثم الصراعات بين قبائل ادوسملال والتي تضررت منها، حسب ما ورد في الرواية الشفوية لأسرة احماد أوموسى.

²- البعقلي، مناقب، ص. 21.

³- نفسه، نفس الصفحة.

⁴- نفسه، نفس الصفحة.

⁵- نفسه، نفس الصفحة.

⁶- نفسه، نفس الصفحة.

⁷- نفسه، نفس الصفحة.

⁸- السوسي، المعسول، ج 12، ص. 10.

⁹- نفسه، نفس الصفحة.

تازروالت أكثر قدرة¹ ونجد ما يدعم ذلك في رواية أخرى عن الشيخ أنه قال: "إن كانت الجنة في السماء فوادي سملالة قبالتها في الأرض، وإن كانت تحت الأرض فوادي سملالة قبالتها فوقها"².

2- انتقال الشيخ احمد أم موسى إلى تازروالت:

لقد أثبتت الدراسات المعاصرة أن ظهور الشيخ في المجال الجديد لا يكون مستقلا عن ظواهر الأزمة³ وهو الأمر الذي تؤكد رواية البعيلي المعروضة سابقا، والأزمة هنا ذات بعدين: أزمة اقتصادية عارمة وأخرى دينية- صوفية.

كانت الأزمة الأولى شاملة عمت جميع أنحاء سوس والمغرب وترتبت، بالخصوص، عن وباء الطاعون الذي عرفته المنطقة سنة 917هـ/1511م-1512م⁴. وقد صاحبت هذا الوباء مجاعة خطيرة، قد يتعلق الأمر بتلك التي تحدث عنها البعيلي في مناقبه، وإن كان البعض يعتقد أن الأزمة المقصودة هي تلك التي عرفتها المنطقة ما بين 926هـ-927هـ/1520م-1521م⁵. وسواء تعلق الأمر بهاته أو تلك، فإن انتشار المجاعة كان سببا فعليا، في هذا الانتقال المفاجئ، ويزداد الأمر وضوحا إذا علمنا أن المجال القديم لا يوفر نفس الحماية الطبيعية التي يخولها الثاني، مما جعله مفتوحا أمام انتشار الأوبئة والأمراض، فضلا عن استعداد المجال الجديد لتوفير المواد الكافية للاستغلال خلال فترة الأزمات⁶.

أما الأزمة الدينية الصوفية، فتكمن، حسب البعض⁷ في فرار الشيخ احمد أم موسى من معتقدات ظلت تشوش ذهنه. ولعل ما جعل هذا الاعتقاد راسخا لديهم هو وجود رسالة تسير في نفس الإطار، جاءت للرد على سؤال من الشيخ عن الفرار المحمود وغير المحمود، وهي من تأليف التزركيني المتوفى عام 958هـ/1551م⁸.

3- موقع تازروالت:

تدعي الروايات الشفوية المحلية أن الشيخ احمد أم موسى هو الذي أعطى المنطقة المدروسة اسم "تازروالت" من خلال تصريحه بأنها: "تاز" أي قريبة و"تروا" أي ملائمة، فجمعت الكلمتين الأمازيغيتين لتعطينا "تازروالت". ويحيلنا هذا الاعتقاد على الأهمية الاقتصادية التي يكتسبها المكان، فهو قريب من مكان الانطلاق، أي بومروان، وهو بموازاة ذلك قادر على تحمل المزيد من الوافدين، وهو، إلى هذا وذلك، قابل لتوفير ما يتطلبه الوافدون الجدد من مؤونة وموارد. لكن لفظة تازروالت لا تحتمل فقط هذا المعنى السطحي، الذي تنسبه إليها الروايات الشفوية، بل تطرح إمكانية أخرى للتأويل، فبحذفنا لتاء التأنيث التي تقترن عادة بالكلمات الأمازيغية سنحصل على لفظة أزروال كذكر لتازروالت ومعناه أزرق العينين. وبذلك

¹ - كان يردد حسب مقولة الرواية الشفوية: "تازروالت أيزدارن، بومروان ابروان".

² - ويعني بوادي سملالة واد تازروالت الذي يسيل بمحاذاة زاوية الشيخ.

Justinand, «Sidi Ahmed», op.cit, p. 10.

³ - Hammoudi (A), «Sainteté, Pouvoiret Société, Tamgrout aux XVII et XVIII siècles», in *Annales Économies Sociétés Civilisations*, Mai-Aout 1980, p. 617.

⁴ - Rosenberger, et Triki (H), «Famines et Épidémies au Maroc aux XVI le et XVIIe siècles», in *Hesperis-Tamuda*, 1973-1974, p. 116.

⁵ - الفاسي، مرآة المحاسن، ص. 137.

⁶ - تعتقد الباحثة موني (Meunie) أن المظمرات المشهورة في كل من سوس والجنوب الغربي تمتد جذورها بالخصوص الى بداية القرن 16م، أي مع بداية استقرار الاسرة السملالية بالمنطقة. Meunie (J), *Sites et Forteresses de l'Atlas*, Paris, 1951, p. 16.

⁷ - السوسي، المعسول، ج 16، ص. 10.

⁸ - التزركيني، رسائل، مخطوطة خاصة، راجع ما قلناه في التقديم الجغرافي، ص. 15.

تشترك تازروالت مع أسماء أخرى في الإحالة على نفس المعنى، فالمعنى الراجح لإزركين¹، مثلا هو لون الزرقة. وبذلك فإن هناك ارتباطا وثيقا بين المرادفين أزرق وأزروال، "الذي يؤنث على تازروالت ويجمع على تيزروالين"²، وقد حاول أحد الباحثين³ استنطاق علاقة قبيلة إزركين التكنية ببني زروال، التي كانت تستقر على عدوتي وادي ورغة شمال مدينة فاس⁴، فخلص إلى أن أسماء الأماكن بكل من تازروالت إداوسملال ومدشري زرويلة وأوزروالت بوادي نون يوحى بجمع انتشار فصائل بني زروال، وهو يرى، أيضا، أن القاسم المشترك بين مختلف هذه الفصائل هو انتمائها إلى صنهاجة⁵.

هذا وللحديث عن موقع تازروالت سنعمد على ما قدمته المصادر المعاصرة، علما منا بأن مصادر الفترة التي طالعناها لا تساعد على القيام بمثل هذا العمل، بحيث لا تفرق بين المعلومات الجغرافية والمعلومات التاريخية.

يتحدث لوشاتولي (Le Chatelier) عن تازروالت باعتبارها اسما للفرع الأيسر من واد والغاس⁶. أما جيستنار (Justinard) فقد ربط بين الموقع الجغرافي والأهمية الاقتصادية التي اكتسبتها المنطقة خلال القرنين 17م و19م، لوقوعها بين الشمال والصحراء، مما خول لها لعب دور الوسيط الاقتصادي بين هاتين المنطقتين، وتحدث إلى جانب ذلك، عن الحماية الطبيعية التي كانت للمنطقة بفضل الجبال المحيطة بها⁷. أما موني (Meunie) فقد اعتبرت حوض تازروالت من أبرز أحواض الأطلس الصغير حيث المياه متوفرة، مما جعل المكان صالحا للزراعة واستقرار السكان⁸. وهنا نلاحظ وجود تقارب بين رأيي لوشاتولي وموني بتركيزهما على دور الماء في تشكيل المنطقة، وهذا أمر طبيعي، خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار أهمية الماء في هذا المجال شبه الصحراوي، ونخلص إلى رأي باسكون (Pascon) الذي قدم تصورا أكثر تحديدا عن موقع تازروالت، فهو عبارة عن منخفض صغير جاف محاط بتضاريس مرتفعة أكثر حظا من حيث التساقطات⁹.

وللخروج بانطباع عام عن الموقع، سنتتبع مختلف مراحل تقديمه انطلاقا من الحكايات الشعبية وانتهاء بنظرة أكثر عملية مع باسكون.

فأما الروايات الشفوية المحلية فتؤكد على جمع المجال الجديد لمميزات بومروان وتازروالت. فبتقديمنا لمعنى تازروالت "تاز" قريبة و"تروا" أي ملائمة نلاحظ أنها تتشابه مع بومروان في كونها "تروا" وتفوقها في اعتبارها "تاز". وهنا نتساءل عن قربها من ماذا؟ أهو قرب من مكان الانطلاق الذي لا تربط الشيخ بسكانه أية عصبية؟ أم أنه قرب من أشياء أخرى ظلت المصادر المكتوبة صامتة عنها؟¹⁰

¹ - مصطفى ناعمي، مادة "إزركين"، معلمة المغرب، ج 1، ص ص. 339-340.

² - محمد شفيق، "في أن أسماء الاماكن جلفها أمازيغية"، مجلة البحث العلمي، عدد 27، يناير - يوليوز 1977، ص. 333.

³ - ناعمي، مادة "إزركين"، ص. 339.

⁴ - أبو بكر البيدق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، الرباط، 1971، ص. 54.

⁵ - ناعمي، مادة "إزركين"، ص. 340.

⁶ - le chatelier, *Tribus*, op.cit, p. 34.

⁷ - Justinard, «Notes d'histoire», op.cit, p 266. *sidi Ahmed Ou Moussa*, op.cit, p. 12.

⁸ - Meunie, *Le Maroc saharien*, op.cit, p 113.

⁹ - Pascon, *la Maison d'Iligh*, op.cit, p 1.

¹⁰ - قد يتعلق الامر بقربها من ميناء ماسة، المحتل من طرف البرتغاليين، والذي عرف رواجاً تجارياً ملحوظاً خلال النصف الأول من القرن 16م، انظر:

- Perrerra, «La Cote Atlantique», op.cit, p. 257.

- Fernandes (V), *Description de la Cote*, op.cit, p. 29.

أما المؤلفات الغربية، المعروضة سابقا، فتتفق حول الأهمية الإستراتيجية والاقتصادية لموقع تازروالت، وهذا في نظرنا لا يرتكز على أسس تاريخية تعود إلى الفترة التي نتحدث عنها، وإنما تبقى سببينة الغنى والقوة اللذين عرفتهما المنطقة على عهدي بودميعة، حفيد الشيخ احمد أوموسى، في القرن 17م، والحسين أوهاشم في القرن 19م.

أما ما قدمه باسكون، فلا يعدو أن يكون قراءة في خريطة معاصرة، مراعيًا في ذلك التحولات المناخية والفقير الذي أصبحت تعرفه المنطقة في سنواتها الأخيرة.

خلاصة القول، إن تازروالت تقع في أقصى الجنوب الغربي للأطلس الصغير على بعد أربعين كلم جنوب شرق "تزنيت" بين "نغمي" في الشمال، و"مجاط" في الجنوب، و"أولاد جرار" في الغرب، و"إداوككار" في الشرق. وهي عبارة عن حوض يوجد على ارتفاع 1100م تحيط به جبال وعرة. ويضم الشطر الذي كان يسمى قديما تازروالت كلا من "إليغ"، وزاوية سيدي احمد أوموسى، و"تونمان"، و"تشتكت"، و"أكجكال"، و"تومنار".

مراحل استقرار الشيخ بالمجال الجديد:

لم ينتقل احمد أوموسى من بلدته بومروان إلى مكانه الحالي مباشرة، وإنما جال في بعض الجهات قبل استقراره النهائي بالمنطقة. وقد استطعنا الوقوف على شواهد كثيرة تدل على استقرار الشيخ المؤقت في بعض جبال المنطقة "كتونمان" في مكان يدعى "أضار نشيخ"¹ قيل إنه متعبده²، ثم في الماتن³، وهو المكان الذي كان مستقرا لجدته إدريس ووالده موسى قبل انتقالها إلى بومروان⁴. وقد زار البعقلي زاوية الشيخ بالماتن وعلق على ذلك بما يلي: "وصلنا مكان الشيخ بالماتن- به عرف- وهو في تلك المدة لم يتحرك فيه شيء من البنيان، إلا عريش بني بالتين"⁵ في حين يرى البعض الآخر أن الشيخ "سكن أولا في بومروان بسملالة ثم إلى إيغالن نيت عباس ومن هناك إلى أضار نشيخ"⁶. كما أن السكيكي تحدث عن قصر "تسلا" دون أن يحدد مكانه⁷. وقد يكون هذا التنقل حقلًا خصبا ما يزال منطويا على كثير من الغموض.

ومن جهة أخرى فإننا لا نكاد نعثر على اسم الشيخ الذي أذن له بتأسيس زاويته كما جرت العادة عند المتصوفة⁸، إلا أن هذا لا يمنع من القول إن التأسيس واختيار المكان لم يكن اعتباطيا وعفويا، بل ارتبط في بعض الروايات باشتغال احمد أوموسى بالرعي، إذا تقدمه بعد عودته من سياحته يرعى غنم مجاط قبل أن يعود إلى بومروان وقد خول له هذا التنقل، حسب نفس الروايات، تكوين فكرة عن المجال الجديد مما جعله يردد: "تازروالت ايزدارن"⁹.

¹- أي "رجل الشيخ" يقال إنها سميت كذلك لوجود آثار أقدام الشيخ بها.

²- أدفال، تقييد، ص. 2.

³- الماتن مكان بإداوكرسموك.

⁴- وثيقة خاصة تتحدث عن أصول وتنقلات الأسرة السملالية، راجع أيضا: أحمد التوفيق، مادة "إداولتيت"، معلمة المغرب، ج 1، ص. 229.

⁵- البعقلي، مناقب، ص. 9.

⁶- السوسي، المعسول، ج 12، ص. 11.

⁷- السكيكي، تقييد، ص. 2. وقد ظل الشيخ بقصر تاسيلا إلى حين وفاة الشيخ امحمد اوبراهيم التمنارتي سنة 971هـ الموافق لـ 1564م، وهي نفس السنة التي توفي فيها الشيخ احمد اوموسى وبذلك يكون قصر تيسلا اسما لمكان داخل زاويته الحالية، وهو غير تاسيلا الموجودة الان بقبيلة ماسة.

⁸- تجعل بعض الروايات الشفوية المتداولة بمنطقة بومروان، سبب انتقاله الى تازروالت وبنائه لزاويته بها، هو استجابته الفعلية لأوامر الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي جاءه في الحلم وامره بنرك بومروان، راجع:

Meunie, Grenies Citadelles, op.cit, p. 200.

⁹- "تازروالت أكثر قدرة": مقولة الرواية الشفوية.

ولقد كان المجال الذي جلب اهتمام الشيخ احمد أموسى مأهولا بقبائل متعددة مالت إلى حياة الزراعة والرعي، وغلبة البداوة على الحياة. فالشطر الغربي كان يخضع لنفوذ أولاد جرار، كما تؤكد ذلك الرسوم القديمة، وتسمية بعض الأماكن¹. والشطر الشرقي كان تحت نفوذ الحربيليين. لكن الذي استرعى انتباهنا، هو سكوت المصادر المكتوبة عن هذه الظاهرة وعن علاقة الشيخ بأصحاب الأرض. فبعيدا عن الروايات الشفوية الكثيرة في هذا الصدد، لا نجد في المصادر من تطرق لها عدا المعسول². ولا نعلم من أين استقى هذا الأخير معلوماته، إلا أننا بتتبعنا للرواية كما أوردتها نلاحظ استعماله لمفردتي "يذكر" و"قالوا"³ مما يدل على اعتماده، أيضا على الرواية الشفوية.

وتقوم الرواية التي قدمها العلامة المختار السوسي بعرض صراع تاريخي بين قبائل أيت حربيل وأيت مجاط، توج بمعركة تزلي⁴ التاريخية، وهذا يوازي كون العلاقة الأكيدة بين القبيلتين تقوم على صراع قديم ترجع به بعض الروايات إلى فترة خراب تامدولت⁵ وتجعله أخرى سببا مباشرا في هذا الخراب⁶. فهو بذلك صراع قديم لم يخلقه الشيخ وإنما ساهم في ترجيح كفة مجاط وإجلاء حربيل عن كل المنطقة لينصهر بعضها ويتراجع البعض الآخر نحو الجنوب⁷، وهذه العلاقة التي عرضنا بعض ملامحها تحيلنا على علاقة بعض الشيوخ مع المجال الجديد، فالروايات الشفوية تكاد تتفق على الطريقة العنيفة التي اقتحم بها أولياء القرن 16م المجال الجديد، مستفيدين من الصراع القائم بين مجموعة من القبائل⁸.

هذا وتذهب بعض الروايات إلى عرض دخول الشيخ احمد أموسى إلى تازروالت بشكل مغاير لما هو متفق عليه، فهي تقدم المجال على أنه عبارة عن غابة موحشة يسعى الشيخ إلى استصلاحه واجتثاث الأعشاب والنباتات البرية منه، إلا أنه لم يفلح في طرد أفعى رفضت مغادرة المكان والإذعان لأوامره. تبدو هذه الرواية في ظاهرها، مخالفة لسابقتها، لكنها في عمقها تعتبر تقدما مغايرا فقط لمحتوى الرواية الأولى، فقط نعتبر حربيل هي نفسها تلك الأفعى التي أبت الخروج، خصوصا إذا علمنا أن "ابن موسى تطلب من الحربيليين أن يذعنوا لأحكام الشريعة كلها. وأن يدعوا أعرافا كانوا يتحاكمون إليها فتأففوا من ذلك"⁹. وبذلك يكون الصراع ذا وجهين: الأول مجالي بين حربيل ومجاط، حيث تطرح أماننا ثنائية الرحل والمستقرين، وما يترتب عن هذه الثنائية من صراع ينتهي أساسا بسيطرة الرحل على بعض الموارد الجديدة لضمان الاستمرار، والثاني عقائدي بين حربيل والشيخ¹⁰. فكان طبيعيا أن يتحالف الطرفان ضد عدوهما المشترك مستغلين بذلك قوة الشيخ غير العادية، والتي تتجلى هنا، في الدعوة المستجابة لإقصاء أيت حربيل.

¹ - علي بودميعة، ديوان البيوعات، مخطوط.

² - السوسي، المعسول، ج 12، ص. 10.

³ - نفسه، نفس الصفحة.

⁴ - "مجات تزلمي": وتزلمي بالآمازيغية هي الهضبة التي يتعاطى فيها للزراعة البورية والتي يسود فيها البرد الشديد.

⁵ - Rosenberger, «Tamdult», op.cit, p. 127.

⁶ - Rosenberger, «Tamdult», op.cit, p. 127.

⁷ - Monteil (V), «Choses et Gens du Banis», in Hesperis, 3^e et 4^e trimestre, 1946, p. 388.

⁸ - Hammoudi, «Sainteté», op.cit, pp. 617-620.

⁹ - السوسي، المعسول، ج 12، ص. 10.

¹⁰ - لم تكن منطقة تازروالت تعرف فراغا روحيا، إبان استقرار الشيخ بها، بل وجد بتومنان ضريح لمحمد بن سليمان يقال أن أول من كشف عن قبره هو الشيخ احمد أموسى نفسه، وبذلك يكون أقدم من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، على أنه لم يذكر لا في طبقات الحضيكي ولا في وفيات الرسموكي. انظر: السوسي، المعسول، ج 5، ص. 301.

وهكذا تواصل الروايات حبكة الوضع الصوفي للشيخ من خلال الاعتماد على دعوتين: الأولى فتحت له باب الكون وخولت له التأمل في أسراره¹، والثانية مكنته من اكتساب المشروعات في الحصول على مكان لبناء زاويته.

II / تأسيس الزاوية السملالية بتازروالت:

1- موضع الزاوية:

يتحدد موضع الزاوية السملالية ببسيط تازروالت انطلاقاً من معطين طبيعيين اثنين: المعطى الأول هو الجبال، فالزاوية تقع في منحدر تحيط به الجبال من كل الجهات منها جبال "أقب" و "تكجكلت" و "بن كرو" في الشرق وجبال "أزار" و "تومار" في الغرب، وجبال "تجاجت" في الجنوب. أما المعطى الجغرافي الثاني فهو واد تازروالت² الذي ينحدر من أراضي مجاط، ليدخل إلى تازروالت حيث يسقي أكادير -ن- سيدي الحسين، ثم زاوية سيدي احمد أوموسى، فيبلغ... لينتهي في المحيط عند خليج ماسة³.

وإذا كانت أهمية واد تازروالت قد حددت، إلى حد بعيد، بعض المعالم الأساسية لموضع الزاوية، فإن ذلك يحيل على كون اختيار الاستقرار على ضفافه لم يأت مصادفة بل ارتبط بطبيعة المناخ السائد الذي يتسم بالقارية حيث حرارة الصيف جد مرتفعة، وضعف تساقطات المطر، مع عدم انتظامها.

ثم إن ظاهرة الاستقرار على ضفاف الأنهار والأودية، لم تكن حكراً على ولي دون آخر، خصوصاً خلال القرن 16م، فأغلب أولياء هذا القرن اختاروا السكن عند منابع أو بمناطق الدير حيث تتوفر المياه⁴. إن ارتباط هذه الخاصية بصلحاء القرن 16م، يحيلنا على المدرسة الصوفية الجزولية التي استقى منها هؤلاء معارفهم ومداركهم، وهذا يعني اهتمام المكثف بالأرض والفلاحة كوسيلة لمجاهدة النفس وقهر الحاجة. فتطوير المجال واستصلاحه والعمل المستمر على خلق فرص جديدة وموارد متنوعة، كانت كلها مبادئ أساسية في التصوف الجزولي الذي يتفق الكل على واقعيته ومسارته لمقتضى الحال.

ويستلزم الحديث عن موضع الزاوية وشكلها العام وكذا المرافق التي كانت تضمها قراءة متأنية في المصادر المعاصرة، وقد مكنتنا تلك القراءة من رسم الصورة التالية: فالزاوية تمتد وسط مجال أخضر مكون في الأصل من بساتين الشيخ⁵، وبيته⁶، ومسجده⁷، وكذا بعض المرافق التي أعدت لاستقبال الزوار⁸. وأضيفت إلى الزاوية، بوفاة الشيخ احمد أوموسى، مرافق جديدة. فالبعقلي يتحدث عن إقامة قبة على ضريح الشيخ⁹ ويشير في مجال آخر إلى وجود مقبرة خاصة بعائلة الشيخ احمد أوموسى ضمت رفات اثنين من أبنائه¹⁰، ومن ثم فلا يستبعد أن تضم الزاوية في عهد الشيخ مقبرة تكون أصلاً للمقبرة الحالية، أما المدرسة فمن بناء الشيخ احمد أوموسى، كما يرى ذلك المختار السوسى¹¹.

ولم يعرف موضع الزاوية الحالي تغييراً ملحوظاً عدا بعض الترميمات التي شهدتها الزاوية مؤخراً، والتي ساهمت في إخفاء معالم تاريخية مهمة منها بالخصوص: هدم دار الشيخ بتازروالت¹²، وإهمال القنطرة التي بنيت في عهد الحسين أوهاشم، مما

¹ - ونعني بذلك دعوة الشيخ صاحب القفة.

² - ركزت أغلب الكتابات التي تناولت موضع الزاوية على أهمية الواد في تحديد بعض معالمه الاقتصادية، لكن الوضعية الحالية لهذا الواد لا تعطي انطباعاً عن الدور القديم الذي كان يلعبه، وإن كانت هناك شواهد أثرية (ونعني بذلك وجود قنطرتين يقال أنهما من بناء الحسين أوهاشم حفيد الشيخ احمد أوموسى) تدل على الأهمية التي كان يكتسبها.

³ - Faucauld (ch-de), *Reconnaissance au Maroc, 1883-1884*, paris, 1888, p. 342.

⁴ - يقول محمد حجي عن زاوية زداغة الجزولية: "تقع زاوية تقياللت في زداغة بمنحدرات الأطلس الكبير (...). يجري بأسفل الزاوية نهر العسل (أسيف نتامنت) في واد خصيب". ويقول عن زاوية الشيخ امحندا وبراهيم التمنارتي الجزولي "تمنارت اسم رافد آخر من روافد نهر درعة ينبع كذلك من الأطلس الصغير وتتناثر على ضفاف مجراه الأسفل في واحة تيملت قرى صغيرة غلب عليها اسم تمنارت". انظر: محمد حجي، *الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين*، ج2، المحمدية، 1978، ص. 559، 617.

ويتحدث أحمد البوكاري عن "انتقال أبي القاسم (مؤسس الزاوية الشرقاوية الجزولية بأبي جعد) إلى منطقة الدير على ضفة أم الربيع، وعزوفه عن موطنه وعشيرته في الظروف التي تميزت بها أواخر الثلاثينيات من القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)". راجع: أحمد البوكاري، *الزاوية الشرقاوية*، ج1، ص. 59.

⁵ - الحضيكي، *مناقب*، ج 1، ص. 2.

⁶ - ادفال، *تقييد*، ص. 3.

⁷ - السكيبي، *تقييد*، ص. 2.

⁸ - البعقلي، *مناقب*، ص. 9.

⁹ - نفسه، نفس الصفحة.

¹⁰ - نفسه، ص. 8.

¹¹ - السوسى، *سوس العالمية*، ص. 159.

مع العلم أن البعقلي أشار إلى كون مسعود ابن أحمد السموكي، وهو أحد مريدي الشيخ احمد أوموسى، قد تصدر للتعليم بزاوية الشيخ بتازروالت وبذلك تكون الزاوية هي نفسها مكان التدريس ولم يكونا منفصلين كما هو الحال اليوم. راجع: البعقلي، *مناقب*، ص. 15.

¹² - زرينا بيومروان، دار الشيخ التي ظلت محتفظة بمعالمها العامة، فهي بسيطة المبنى تتكون من غرفتين ضيقتين إحداهما تدعى "أنوال" أي مكان الطبخ وتخزين المون، ولعل ما ساعد على الحفاظ على معالم هذا البيت هو استغلاله من طرف طائفة ادولتيت لإقامة موسمها المحلي، "المعروف" وهذا على عكس دار الشيخ بتازروالت التي عرفت مؤخراً عملية هدم.

أدى إلى إتلاف جزءها الأكبر، والملاحظة الثانية هي امتزاج الطبوغرافي بالخرافي مما خلق تشويها ملحوظا لآثار ذات دلالة تاريخية¹. ومما يثير الانتباه أكثر هو المساهمة المحلية في هذا الطمس والتشويه من خلال إخفاء بعض الدلائل التاريخية، كالادعاء بأن اللوحة القرآنية التي كان الشيخ احمد أمومسى يطالع فيها بني عليها حائط داخل الضريح، لكي لا تمتد إليها أيدي الزوار.

إجمالاً، يبقى موقع الزاوية متميزاً فهي تمتد في قلب تازروالت وتفرض إشعاعها في كل الاتجاهات، مما يجعلها قبلة لكل الحجاج² الذين لم يقف انحصار الزاوية وسط الجبال، المتحدث عنها، عائقاً أمام تكرار زيارتهم لها عبر مسالك جبلية عرفت منذ القديم وساهمت في انفتاحها.

2- أدوار الزاوية

تكاثر عدد الزوايا في بداية القرن 16م بتكاثر عدد شيوخ الصوفية الجزولية الذين يعتبرون أنصاراً للدولة السعدية الناشئة. ولم تعد الزاوية في البادية في بداية هذا العصر، بفضل الظرفية العامة، مجرد بناية للصلاة والذكر والتعليم، بل أصبحت تعني، في الغالب، تجمعاً سكنياً ينمو حول الزاوية ويتسع³ لتصبح الزاوية منفتحة على مجموع محيطها، بحيث تتجاوز الحرم لتشمل كل المحيط الاقتصادي والاجتماعي التابع لها. ثم إن التمرکز الذي أصبح للصوفية بالبوادي هو الذي أعطى للفترة المدروسة طابعها التحولي، فهو الذي "سيلعب دوراً حاسماً في تفجير الأوضاع بالمغرب في القرن السادس عشر الميلادي، وهو الذي سيسمح للصوفية بتنظيم البوادي وتعبئتها"⁴ والحركة الصوفية رغم رسوخها في أغلبية المناطق كانت متصلة بالجنوب، حيث إشعاع الجزولي وتلامذته ما يزال قائماً.

فإذا ما حاولنا القيام بمجرد سريع لمختلف الزوايا التي ظهرت خلال القرن 16م بالجنوب الغربي، سنجدتها تفوق العشرة، وتجمع بين صلحاء ظروف التمدرس على يد شيخ واحد هو التابع، من هؤلاء: سعيد بن عبد المنعم الحاحي، وابنه عبد الله⁵، ومحمد أوبراهيم الشيخ التمارتي⁶، ومحمد أويغوب البعيلي⁷، والشيخ عبد الرحمان بن علي الحامدي⁸، ومحمد بن يعقوب الصنهاجي السكتاني⁹، وأبا محمد بن عبد الكريم بن عمر الحاحي المعروف بالفلاح، وغيرهم كثيرين. وقد اختلفت أدوار الزوايا التي أقامها هؤلاء باختلاف المكان الذي ظهوروا فيه، فمنهم من اعتمد التدريس والتربية كأساس لاستقطاب المريدين، كسعيد بن عبد المنعم، ومنهم من التجأ إلى المشاريع الكبرى من إصلاح للأراضي وبناء للقناطر والجسور كما محمد أوبراهيم الشيخ، إلا أن الهدف الرئيسي الذي ظل يجمع كل هؤلاء هو العمل المتواصل من أجل نشر مبادئ الطريقة الجزولية في كل أنحاء سوس والجنوب، ولن تحيد زاوية الشيخ احمد امومسى عن المسار العام الذي اتخذته زوايا القرن 16م، وذلك لتشابه ظروف نشأتها والاتصالات المستمرة بينها، لذلك يمكننا الوقوف على أدوار الزاوية السملالية من خلال أوجه متعددة.

2-1 التربية:

تقوم التربية عند الشيخ احمد امومسى على مبدئين أساسيين أولهما: المجاهدة وثانيهما الإرشاد. وإذا كان بمبدأيه هذين يصر على ضرورة تلمس الخطأ دون الإصرار عليه¹⁰ فإن ذلك خول له استقطاب العديد من المذنبين، الذين وجدوا لديه الوسيلة الناجعة لردمهم عن الخطأ، ومن ثمة، تمكنه من محاربة إلى حد ما، نوعين من المعاصي كانا متفشيين بين مريديه وزواره، أولهما "الزنا"¹¹ وثانيهما "السرقا"¹. أما عن الوسائل التي استعملها لذلك فهي تختلف باختلاف المذنب، فبينما يكون عقابه جسدياً صارماً، مع مريديه الذين أصروا على الذنب ولم ينتهوا عنه، يكون نصحا شفاهياً للبعض الآخر.

¹ - استغلّت بعض المواقع الأثرية بتازروالت لممارسة طقس "نفض الذنوب".

² - تتفق العديد من التأليف على اعتبار موسم الشيخ احمد امومسى حجا للمساكين. انظر: رسالة محمد بن عبد الرحمان بن موسى إلى أحمد الظريفي نقلاً عن: السوسي، المعسول، ج 13، ص. 270. وكذا قصيدة إبراهيم بن محمد الظريفي التكتتي، مخطوطة خاصة.

³ - محمد حجي، "المؤسسات الدينية بالمغرب في القرنين 16م و17م"، مجلة المناهل، عدد 18، السنة 7، يوليو 1980، ص. 119.

⁴ - محمد القبلي، "مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد الثالث والرابع (عدد مزدوج)، 1978، ص. 43.

⁵ - حجي، الحركة الفكرية، ج 2، ص. 559.

⁶ - نفسه، ص. 617. السوسي، المعسول، ج 7، ص. 10.

⁷ - السوسي، المعسول، ج 7، ص. 37.

⁸ - نفسه، ج 16، ص. 49.

⁹ - نفسه. نفس الصفحة.

¹⁰ - من المأثور عن الشيخ حسب مقولة الرواية الشفوية: "أورنسميح إيان دور إيكاني أكضي ولاين هان أن كيت أور إسكوس" ومعناها مجازاً: "لن أسامح من لم يتلمس الخطأ ولكن على ألا يصر عليه".

¹¹ - ومن ذلك ما رواه الشيخ أبو القاسم بن عيد الرزاق الدرعي عن نفسه قائلاً: "كنت أطلب شيخاً وعاهدت نفسي أن لا أشيخ إلا من يردني عن المعصية فجعلت كلما جئت شيخاً أتيت معصية فلا يردني عنها حتى أتيت سيدي احمد امومسى فذهبت أجره على عادتني فلما أجمعت وقف علي وصفعني صفة داربها شخصي". راجع: التمارتي، الفوائد، ص. 68.

وعموماً تقوم التربية عند الشيخ على الإرشاد والنصح المستمر، ولا يقتصر الأمر على المريدين بل تشمل المشورة باقي الشيوخ الذين يفدون عليه². ولعل أبرز ما واظب الشيخ على حث المريدين عليه هو الاقتصاد وعدم الإفراط، ومبدأه هذا لا يقتصر على الاقتصاد في الأمور الدنيوية بل يتعداها إلى أمور دينية كالحث على الإقلال من الأوراد³، وعدم الإسراف في المحبة⁴، ومن ثمة الاستفادة من أقل الأشياء وأبسطها للتقرب إلى الله⁵.

وترتبط هذه القناعة لدى الشيخ، في نظرنا، بالوضعية الاقتصادية الصارمة التي نشأت فيها الزاوية السملالية، ففي إطار بيئة مقلالة، حيث يسود المناخ شبه الصحراوي، وحيث الموارد تقل كثيراً عن حاجيات المرء، يبقى الاقتصاد وعدم الإسراف أمرين ضروريين للاستمرار.

- أساليبه في التربية:

رأينا كيف أن النصح والانتهاز كانا وسيلتين ناجعتين لتربية أكثر مريدي الشيخ تعنتاً. إلا أن الشيخ لم يقتصر على هاتين الوسيلتين بل نجده يسخر قدراته الروحية من أجل إلغاء الحواجز بينه وبين مريديه. وإذا كانت كراماته تتبنى نفس الإطار العام لظهور الكرامات وتتوخى كذلك نفس الرغبة في التأثير⁶، فإن حديثه عن "هواجس الضمير" يبقى من بين الخاصيات التي ميزت الشيخ إماماً وموسى عن غيره، فهو يعرف حاجيات زواره قبل أن ينطقوا بها. وقد تكررت الروايات حول كلامه عن "هواجس الضمير" وتعددت لتصل حسب الجرد الذي قمنا به إلى تسعة عشر حالة⁷، مع العلم أنه حسب بعض الفقهاء الملازمين له، كان بإمكانه الحديث عن خمسين مسألة تجول بخاطر المرء دون أن يتكلم بها⁸. وكنيجة لهذه الخاصية، كان مختصاً بالمشورة: "لما أطلع الله على بعض الغيوب، حتى كان الشيخ سيدي أحمد أوبراهيم، وسيدي أحمد بن عبد الرحمان يشاورانه في أمورهما"⁹. وقد كثر اعتقاد الخاصة والعامة في حديثه عن هواجس الضمير حتى ظن البعض أنه "يطالع اللوح"¹⁰.

وفي إطار كرامات الشيخ المتعددة، ارتقى إلى مستوى التخاطب مع الحيوانات¹¹. وقد كانت له حكايات مع الحيوانات منها: الحية¹² والبقرة¹³ والغراب¹⁴.

ويبدو أن اعتماد الشيخ إماماً وموسى على اعتقاد العامة في قدرته على الحديث عن هواجس الضمير، وسعيه المستمر لإثبات ذلك، وترسيخه في العقول، يدخل بالأساس في إطار رغبة الشيخ في إلغاء الحواجز بينه وبين مريديه وزواره.

وتبقى ممارسته للرياضة وخاصة منها الرماية من أكثر المبادئ التصاقاً بالزاوية السملالية على عهد شيخها إماماً وموسى.

2-2- دور الزاوية السملالية في نشوء مدرسة الرماية بالجنوب:

تحدثنا بعض المخطوطات عن الدور المرموق الذي لعبته مدرسة الشيخ إماماً وموسى في ارتياد ميدان الفنون الحربية، وخاصة منها الرماية. فشجرات المشيخة تتفق، على اختلافها، على جعل الشيخ إماماً وموسى معلم الرماية الأول في كافة سوس ودوره المجدد في هذا الميدان. فعلي بن ناصر الحميري وسعيد بن ناصر أخذوا الرماية عن الشيخ إماماً وموسى حين

¹ - السكيتي، تقييد، ص. 2.

² - أدفال، تقييد، ص. 2.

³ - فقد قال أدفال: "وما كثرة الأوراد فلا تشق بها نفسك". انظر: أدفال، تقييد، ص. 12.

⁴ - "فقد أكثر أعرابي يوماً من تقبيل يده فقال له أن ترفع يدك من الطعام وأنت تشتهي مأموراً به شرعاً قيل أمره بالاقتصاد وعدم الإفراط في المحبة". انظر: التمارني، الفوائد، ص. 69.

⁵ - نفسه، ص. 76.

⁶ - لقد حاول الشيخ إماماً وموسى بواسطة كراماته، إيجاد حلول لمشاكل أتباعه ومريديه، وتتمحور هذه الكرامات حول رد الخطر عن الأتباع بكل ما يحمله هذا الخطر من معنى مادي ونفسي، وإشفاء المرضى من أتباعه وزواره. وكذا إطعام الفقراء منهم، ودفع مظلوميههم. انظر: أدفال، تقييد، ص. 1، 12؛ السكيتي، تقييد، ص. 2؛ الحضيكي، مناقب، ج1، ص. 5، 8.

⁷ - وقد اعتمدنا في ذلك على: تقييد أدفال، مناقب البعقلي، الفوائد للتمارني، طبقات الحضيكي.

⁸ - أدفال، تقييد، ص. 10.

⁹ - نفسه، نفس الصفحة.

¹⁰ - نفسه، ص. 2.

¹¹ - وإن كان عبد الفتاح كيليطو يرى في إطار تحليله لمنقبة "الولي والجمال"، أنه "ليس الغريب أن تكلم الحيوان ولكن الغريب أن يكلمك الحيوان". ص. 44.

¹² - Roux, «Les Aventures», op.cit, p. 94.

¹³ - السوسي، المعسول، ج 12، ص. 45.

¹⁴ - السكيتي، تقييد، ص. 2.

كانا معه في سياحته بالمشرق¹، ليصبح الأخوان شيوخا لكل المحاربين في القبائل². وقد تطورت مدرسة الرماية لتشكل فيما بعد طريقة حربية منظمة، وتطورت معها العلاقة بين علي بن ناصر والشيخ احمد أموسى إلى أن اعتبره البعض ابنا له³.

وبوفاة الشيخ احمد أموسى عرفت الرماية تراجعاً ملحوظاً لتتخسر في منطقة الحوز، "حيث كان للرماء أياماً معلومة يجتمعون خلالها تحت أنظار مقدميهم للتدريب والاحتفال"⁴ أما سبب هذا التراجع الملحوظ فيمكن في نظرنا، في اعتماد الشيخ احمد أموسى في ممارسته للتمرينات الرياضية على ميسم من التهرج التصق به منذ طفولته⁵، لهذا فإنه من هذا المنطق لا يمكن أن يقوم لمدرسة إيليج دور وراثي في هذا الميدان ولا أن تكون لها منافع تربوية، إلا إذا أقامت تصوراً مدرسياً للفنون الحربية⁶. وهنا لابد من إضافة أن تطور مدرسة احمد أموسى خارج سوس وامتدادها في شخص مدرسة احمر ربما كان نتيجة وفرة الخيول العبدية الشهيرة⁷.

ويبدو أن التنظيم الذي عرفته الرماية⁸ كان لاحقاً للفترة التي وضع فيها الشيخ احمد أموسى النواة الأولى لهذه المدرسة بسوس، لذلك نجد المصادر لا تخصص حيزاً كبيراً لهذا الجانب التنظيمي بل تعرض علاقة الشيخ بالرماة في إطار أحادي فقط، تجلى لنا بالخصوص في علاقته ببني أحمر⁹.

لكن إذا كانت الروايات المكتوبة، بالخصوص، قد أغفلت هذا الجانب لأسباب نجهلها، فإن هذا لا ينفى الدور الريادي الذي لعبه الشيخ احمد أموسى في هذا المجال، خصوصاً وأن الطريقة الجزولية التي تشبع منها الشيخ تقوم على أساسين اثنين يلتقيان عند مبدأ واحد وهو الجهاد، فهناك جهاد من أجل الرفع من المردود ومقاومة الفقر والخصاص، وهناك جهاد آخر فعلي ينتهي بحمل السلاح ومحاربة العدو. وقد ارتبط كلا الأساسين بظروف موضوعية متمثلة في توالي الأزمات والآفات التي كانت لها انعكاسات كبيرة على اقتصاد المغرب السعدي عامة وسوس على وجه الخصوص¹⁰، ثم هناك الاحتلال البرتغالي لمجموعة من الثغور الجنوبية والذي استوجب بدوره استعداد من كل القوى المحلية لمواجهة العدو المشترك، علماً منا بأن المنطقة المدروسة، تازروالت هي على بعد مراحل قليلة جداً من مينائي ماسة وأكادير أكبر المرافئ البرتغالية في الجنوب.

وقد يدفعنا هذا إلى الحديث عن دور المدرسة التي أقامها الشيخ احمد أموسى في مقاومة الاحتلال البرتغالي للثغور، إلا أن المؤشرات المعروضة سابقاً، لا تسمح وحدها بالوقوف على دور هذه المدرسة فيما يخص الجهاد. فكل الكتابات التاريخية، التي اطلعنا عليها، ظلت صامتة عن هذا الموضوع، والإشارة الوحيدة التي صادفناها في مؤلف دراك (Drague)¹¹ لا تعدو أن تكون تعميماً لما هو معروف عن متصوفة القرن 16م من اندفاعهم الكلي نحو محاربة البرتغاليين في السواحل.

2-3-2-1 التدریس

تحدثنا سابقاً، عن تشبع الشيخ احمد أموسى بعلم الباطن أكثر من نهله من منابع علم الظاهر، واقتصره على العلم الأول دون الثاني كانت تحكمه ظروف خاصة ارتبطت أولاً بطفولته المشوبة بالشغب وتعدت ذلك إلى انعدام التوجيه الصحيح في إطار مجتمع لا تربطه به أية عصبية، وانتهى به المطاف إلى الأخذ عن التباع الذي سعى إلى إبعاد احمد أموسى عن علوم الظاهر، "هي عملية تكشف خاصة عن اعتبار علوم اللغة والفقه بما فيها الفروع والأصول أموراً ثانوية"¹². كل هذه

¹- انظر الفصل الخاص بسياحة الشيخ احمد اموسى.

²- Drague, «Esquisse», op.cit, p. 209.

انظر أيضاً: السوسي، خلال جزولة، ج 2، ص. 41؛

- Michaux- Bellaire, «Quelques Tribus de La Région du Habt», in Archives Marocaines, Vol XVII, p. 73.

³- Laoust, Contes Berbères, op.cit, p 303.

⁴- السوسي، خلال جزولة، ج 2، نفس الصفحة.

⁵- ونجد إلى الآن طريقة في الألعاب البهلوانية تنتسب إلى الشيخ احمد أموسى، والأصل في ذلك أن أولاد الشيخ الذين يتبعون بجمع الزيارات في البلدان اتخذوا هذه الألعاب ذريعة. وقد انتصب أناس لتعليم صبيان أولاد الشيخ حتى مهروا". راجع: السوسي، المعسول، ج 12، ص. 16.

⁶- مصطفى ناعمي، مادة "إيليج"، معلمة المغرب، ج 1، ص. 622.

⁷- نفسه، نفس الصفحة.

⁸- وتقوم الرماية على شروط وفروض عددها تسعة شروط: أولها النية والشيخ والمدفع والبارود وذو الخفيف، وصحة الجسم وصحة النظر والمواساة والقبض الثابت. انظر: محمد بن محمد بن عبد الكريم الحميسي، تقبيد في الرماية، ميكرو فيلم، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، رقم. 286، ص. 38.

⁹- تكاد رواية السكيتي أن تكون الرواية الوحيدة التي تصب في هذا الاتجاه فهي تشير إلى أن الشيخ احمد أموسى استقبل في زاويته رجلاً "متشبهها بجندي متزيا بزیه". انظر: السكيتي، تقبيد، ص. 2.

¹⁰- Rosenberger, «Famines», op.cit, p. 109, 175.

¹¹- Drague, «Esquisse», op.cit, p. 50.

¹²- مصطفى ناعمي، مادة "احمد اموسى"، معلمة المغرب، ج 1، ص. 162.

العوامل مجتمعة، خولت للشيخ احماد أوموسى أن يكون قطب سوس الأول فيما يخص علم الباطن¹. ففي إطار الحديث عن رغبة طالب في الإنتقال إلى فاس لطلب العلم واستشارته لشيخه احمد بن عبد الرحمان التزكيني كان رد هذا الأخير: "(...) ان كان مرادك الباطن فخليق^(٢) له ذلك الرجل الذي كنت عنده لو كان يقبلني لكنت له أمة"² وهذا الرأي لم يكن خاصا بالتزكيني وحده بل هو رأي مشترك بينه وبين شيخه احماد أوموسى. فالشيخ احماد أوموسى لم يشأ ترخيص انتقال الطالب من سوس الى فاس للدراسة، ولكنه مع ذلك لم يبد رأيا صريحا في الموضوع بل وجهه إلى أستاذه احمد بن عبد الرحمان الذي جاء جوابه صارما: "العلم علم الظاهر والباطن إن كان مرادك الظاهر فأى شعبة شئت من جزولة أخذته منها، وإن كان مرادك الباطن فخليق له ذلك الرجل الذي كنت عنده لو كان يقبلني لكنت له أمة"³. وهكذا يكون الشيخ احماد أوموسى قد اشتهر باشتغاله بعلم الباطن وتعليمه للمريدين. وكانت حلقات الدرس تتم بالمسجد، يستقي خلالها موضوع دروسه مما يقلق بال مريديه. وكان حفظه للقرآن عاملا مساعدا على جلب اهتمام الاتباع، فكان يعتمد إلى استغلال الآيات القرآنية بطريقة يسهل على المستمع استيعاب معانيها. "قال لمن سأله معرفة الله: ماؤك في رحلك وكنزك تحت جدارك"⁴. إشارة إلى قوله تعالى: "وفي أنفسكم أفلا تبصرون"⁵.

ورغم اقتصار الشيخ على علم الباطن، فإن مدرسته الصوفية أنبتت العديد من الفقهاء والعلماء منهم بالخصوص ابنه عبد الباقي الذي قال عنه السوسي: "له يد في المعارف، وقد رأينا خطه، ولا يزال لذكره دوي عند أهله، يذكرونه بكل خير"⁶. ثم هناك أدفال الدرعي الذي تثقف بدرعة ثم القاهرة والحرمين، إلا أنه لم يتمكن من الاستغناء عن أستاذه احماد أوموسى، فرغم مرضه وضعف بدنه عمل على تكرار زيارته له اعترافا منه بأهمية قطب سوس من بين جملة أساتذته. وقد يعتبر هذا الحكم غلوا في حق الشيخ احماد أوموسى، إلا أننا نرى أن محبة أدفال لشيخه تعدته كشخص لتشمل الجو العام الذي تخوله الزيارة، فطيلة السنوات العشر التي زار خلالها شيخه احماد أوموسى، صادف العديد من المتصوفة والفقهاء الذين جمعهم وإياه حلقات الدرس بالزاوية السملالية: فهناك يحيى بن يدير الرسموكي الذي قال عنه البعقلي: "هو رجل صالح عالم عامل مشهور بالفضل والدين والعلم"⁷. ثم هناك احمد بن عبد الرحمان بن محمد الجزولي المسكدادي المشهور برسائله، دون أن ننسى الشيخ امحمد أوبراهيم التمارتي الذي ورد على الشيخ رضي الله عنه زائر بقصر تسلا، وأخذ سيدي امحمد في وعظ من حضر"⁸.

2-4 استقطاب الزاوية السملالية للمريدين.

إن وقوف المصادر على كثرة مريدي الشيخ يجعلنا نتساءل عن نوعية العلاقة التي تربطه بهم، فالروايات التي أوردها أدفال تتفق على أنه: "لم يبق في هذا الزمان من يقدر على أولاد الناس سوى احماد أوموسى"⁹ ولقد ساهمت كل الظروف والحديثيات في جعل مدرسته مدرسة متميزة مما خول لها استقطاب الاتباع من كافة أرجاء سوس. إلا أن تعدد الوافدين واختلاف انتماءاتهم الصوفية جعل الشيخ احماد أوموسى يسن قوانين الزيارة حاثا خلالها أتباعه على التزام الأسبقية. ففي إطار حديثه مع بلقاسم الغازي الدرعي قال: "إن الزيارة التي تطلبها تركتها في بلدتك"¹⁰. وهو يرفض ما كان عليه صوفية مراکش ودرعة من التعدد والكثرة¹¹. ويرفض أيضا أن يكون شيخا لأحد. "وإنما يقول أصحابي وفي بعضها يقول لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيخ الكل"¹². ولا ندري سببا لاتخاذ احماد أوموسى هذا الموقف، أهو نابع من عدم رغبته في حمل نفسه وأتباعه على التعب؟ إذ نجده يقول: "لي ثلاثمائة شيخ وخمسون شيخا أو نحو هذا فمن دخل هذه الحوانيت كأنه لقيهم كلهم ويعني بالحوانيت زاويته"¹³. أم أنه كان لا يرغب في خلق جو من المنافسة بينه وبين شيوخ آخرين امتلأت بهم جهات

¹ - يقول عنه أدفال: "حدثني بعض الناس الآخرين ان له ثلاثمائة شيخ ونحو نصف مائة (...)" ويشمل هذا العدد الاحياء والاموات، وقد نقلت اليه بعض علوم الباطن بمجرد زيارته لقبور الأموات منهم، كقبر عبد القادر الجيلاني، وهذا ما خول لاحماد اوموسى، بدوره، نقل علومه الى مريديه بمجرد الزيارة" حدثني بعض الفقهاء بزوايته أول قدومه عليه أنه قال له لي ثلاثمائة شيخ وخمسون شيخا أو نحو هذا فمن دخل هذه الحوانيت كأنه لقيهم كلهم ويعني بالحوانيت زاويته". انظر: أدفال، تقييد، ص. 4.

(.) أي الشيخ احماد أوموسى.

² - أدفال، تقييد، ص. 4.

³ - نفسه، نفس الصفحة.

⁴ - الحضيكي، مناقب، ج 1، ص. 6.

⁵ - سورة الذاريات، الآية 21، من القرآن الكريم.

⁶ - السوسي، المعسول، ج 12، ص. 57.

⁷ - البعقلي، مناقب، ص. 16.

⁸ - السكيكي، تقييد، ص. 2.

⁹ - أدفال، تقييد، ص. 5.

¹⁰ - البعقلي، مناقب، ص. 29.

¹¹ - أدفال، تقييد، ص. 11.

¹² - نفسه، ص. 7.

¹³ - نفسه، ص. 4.

سوس؟¹ وقد خول له هذا الموقف كسب احترام كل هؤلاء المتصوفة فقد: "كان سيدي احمد بن عبد الرحمان والشيخ سيدي امحمد ابراهيم يعظمان هذا الشيخ ويشاورانه في أمورهما ويتأدبان معه ويثنيان عليه"². وتبقى هذه مجرد افتراضات في غياب قرائن تاريخية ثابتة، لكن ما هو مؤكد هو أن الشيخ احماذ أوموسى لم يؤسس طريقة على غرار تلك التي أسسها شيوخ معاصرون بل نجد أتباعه وأبناءه ينضون تحت لواء الناصرية والدرقاوية³. وقد أسس أبرز مريدي الشيخ احماذ أوموسى زاوية قادرية⁴ وهو أمر ذو دلالة عميقة⁵.

جدول توضيحي يمثل أصول بعض مريدي الشيخ احماذ أوموسى:

المصدر المعتمد	نوع العلاقة	القبليّة أو المنطقة	المريد
الحضيكي، مناقب، ج 1 ص 3	خادم الشيخ	إداوبعقيل	موسى بن داوود
البعقلي، مناقب، ص 8	مؤذن الشيخ	إداوبعقيل	ابراهيم بن الحسن
الحضيكي، مناقب، ج 1 ص 2	تلميذ الشيخ	إداوبعقيل	محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الواسع
البعقلي، مناقب، ص 8	تلميذ الشيخ	إداوبعقيل	محمد بن ابراهيم
الإعلام، ص 235	تلميذ الشيخ	إداوبعقيل	عبد الله بن الحاج خالد
السوسي، المعسول، ج 12 ص 43	صهر الشيخ	إداوبعقيل	يحيى بن ابراهيم
السوسي، المرجع السابق، ص 43	تلميذ الشيخ	إداوبعقيل	علي بن مسعود
أدفال تقييد الحضيكي ج 1، ص 11	تلميذ الشيخ	درعة	أبو العباس احمد بن محمد أدفال
أدفال، تقييد، ص 2	تلميذ الشيخ	درعة	محمد المعرف بالدراري
الحضيكي، مناقب 1، ص 2	تلميذ الشيخ	درعة	ابراهيم بن سليمان الجزولي
الناصرى (محمد المكي) الدرر المرصعة ص 144.	تلميذ الشيخ	درعة	أبو القاسم عبد الرزاق

¹ - إذ نجد من الغرب نحو الشرق:

- احماذ اوموسى بتازروالت (الأطلس الصغير الغربي).
- امحمد اوبراهيم الشيخ التمنارتي (جبل باني الغربي).
- عبد الله اومبارك الأقاوي (جبل باني الأوسط).
- محمد او يعقوب النائلتي (الأطلس الصغير الشرقي).
- محمد او وسعدين السكتاني (الأطلس الصغير الشرقي، سكتانه الجنوب).

وإن كانت بعض الروايات قد سجلت مواقف تتم عن وجود منافسة بين الشيخ وبعض هؤلاء المتصوفة، إذ قال أدفال، نقلا عن أحد تلاميذ الشيخ امحمد او يعقوب، أنه "وقع مرة بين الشيخ محمد وبين الشيخ احمد غيار (أي شقاق) وكتب له سيدي محمد بن يعقوب كتابا اعتذر فيه عليه وعلى أصحابه". انظر: أدفال، تقييد، ص. 13. كما كان بين الشيخ احماذ اوموسى والشيخ امحمد اوبراهيم التمنارتي مراجعة في مسألة: "قلم يزال يتراجعان حتى سلم له ابو عبد الله واعترف له بالحق". وكتب احمد بن عبد الرحمان التزركيني كتابا لبعض اخواته يأمره بالإسراع "إلى امتثال ما أشار بهه (... سيدي احمد بن موسى. انظر: التمنارتي، الفوائد، ص. 68.

² - أدفال، تقييد، ص. 1.

³ - Drague, «Esquisse», op.cit, p. 205.

⁴ - السوسي، المعسول، ج 19، ص. 20، 21.

⁵ - تتفق الروايات على اعتبار بعض الزوايا الجزولية، سندا للدولة السعدية من أجل القضاء على نفوذ الطريقة القادرية التي تروج للأتراك العثمانيين بالجزائر، من خلال استقطاب اتباع لها من بين المنتهين إلى القادرية بالمغرب السعدي. انظر: مصطفى بنعلة، مجموعة وافية بالرسائل السعدية: دراسة وتحقيق، رسالة جامعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1988-1989، ص. 75، الهامش 55.

علي بن محمد	إداو ككار	تلميذ الشيخ	البعقلي، مناقب، ص 18
عبد الواحد (جد ال عبد الوافي)		صلى على الشيخ حين وفاته	السوسي، المعسول، ج 12 ص 54
عبد الرحمان بن موسى	تومار	تلميذ الشيخ	وثيقة أوصى فيها الشيخ احمد أموس به وبأولاده خيرا موجودة بخزانة سيدي احمد أموس بتازروالت.
يجي بن يدير	إداو كسموك	تلميذ الشيخ	البعقلي، مناقب، ص 16
محمد بن يدير	تاغلولو	تلميذ الشيخ	البعقلي، مناقب، ص 17، المعسول، ج 12 ص 7
يعقوب بن ابراهيم ابن يوسف	إغشان	"كان يخدم لسيدي احمد اموسى فأعجبه منه تدينه وصلاحه فزوجه ابنته عائشة	السوسي، اليغ قديما وحديثا، ص 26
علي بن يوسف	تاكضوين	خادم الشيخ	البعقلي، مناقب، ص 14
سليمان بن علي	تياسين	تلميذ الشيخ	البعقلي، مناقب، ص 14
أحمد بن علي	ترسواطت - قاعدة مانوزة	تلميذ الشيخ	المعسول، ج 12 ص 43
احمد بن الحسن	أمانوز	راعي الشيخ	السكي، تقويد، ص 1
عبد الرحمان	تزينت	تلميذ الشيخ	السوسي، رجالات العلم العربي في سوس، من القرن الخامس الهجري الى منتصف القرن 14هـ، والطبعة الاولى، طنجة 1989، ص 16
سليمان بوتوميت	ايت باعمران	تلميذ الشيخ	المعسول، ج 12 ص 55
ياسين	اداوسمالال	خادم الشيخ	المعسول، ج 12 ص 44
عبد الله بن ابراهيم	اداوسمالال	زار الشيخ وتبرك برؤيته	التمنارتي، الفوائد ص 70
محمد بن ابراهيم	تمنارت	تلميذ الشيخ	الاعلام، ص 235
عبد الله بن سعيد	حاحة	تلميذ الشيخ	المعسول، 19 ص 79
ابراهيم بن علي	ادوتنان	تلميذ الشيخ	المعسول، ج 15 ص 45
ابراهيم بن عبد الرحمان	عبدة	تلميذ الشيخ	الحضيكي، مناقب، ج 1، ص 12
جد ال زاوية تاسفت	تاسفت (قرب تينمل الموحدية وسط وادي نفيس)	تلميذ الشيخ	المعسول، ج 12 ص 54

علي بن محمد الحارثي	شياظمة	تلميذ الشيخ	محمد بن عيشون الشراط الروض العطر الانفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، دراسة وتحقيق النظام زهراء رسالة جامعية، الرباط، 1990 ص 467.
موسى بن شعيب الدمجي	نزيل مراكش	تلميذ الشيخ	الحضيكي
احمد بن بلقاسم ابن سالم الزمراني الصومعي	تادلة	تلميذ الشيخ	الصومعي، المعزي في مناقب الشيخ أبي يعزى، دراسة وتحقيق الجاري علي، رسالة جامعية، الرباط 1989، ج 1 ص 215 الحضيكي، مناقب، 1 ص 44-47.
علي بن ناصر	أحمر	تلميذ الشيخ	المعسول، ج 12 ص 55
سعيد بن ناصر	أحمر	تلميذ الشيخ	المعسول، ج 12 ص 55
ابراهيم بن احمد	أولاد مطاع	" خديمه الجاري في مآرب الشيخ وأشغاله، الساعي في إعطاء حوائجه قديما وحديثا"	البعقلي، مناقب، ص 15
عبد الله بن مبارك	أقا	تلميذ الشيخ	المعسول، ج 12 ص 55
محمد بن ابي بكر أبا عرور	مجهول النسب	تلميذ الشيخ	البعقلي، مناقب، ص 15
حسين بن عبد الله الرجيتي		تلميذ الشيخ	الحضيكي، مناقب، ج 1
أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن الوقاد	تلمسان	تلميذ الشيخ	التمنارتي، الفوائد، ص 21- 67
عبد الله الغالب (السلطان السعدي)		تلميذ الشيخ	الفاسي، تمتع الاسماع، ص 50
بلقاسم الغازي	ايت حمد	تلميذ الشيخ	البعقلي، مناقب، ص 29
ابراهيم بن محمد داوود بن علي	ولاتة	تلميذ الشيخ	الفوائد، ص 70
بيورك بن الحسين	إبلالين	تلميذ الشيخ	الفوائد، ص 71

ملاحظة على الجدول:

يكون التلمذ على يد الشيخ احمد أو موسى إما بمرافقته أو بزيارته والتبرك به . تنتفي، ولم يثبت أن أجاز الشيخ احمد
أموسى أحد مريديه، ولم يكن يقبل منهم كلمة: "شيخي" وكان معتمده الأساس هو علم الباطن.

2-5 الإطعام:

جعل الشيخ احمد اموسى من مهمتي الانفاق والإطعام أبرز الخدمات التي تسعى الزاوية السملالية إلى تقديمها لزوارها ومريديها، فهو يقول: "كيف أستحق المقامات عند الله إن دخل ضيفي بجوع وخرج بجوع"¹ وهذه نقطة أساسية، يجب التسطير عليها. فالزاوية ذات وظائف متعددة، لكنها تسعى بتطورها إلى محاولة التخصص. إن الحديث عن ظاهري الإنفاق والإطعام، كما تمثلتها الزاوية السملالية، يستدعي الحديث عن أصولها الصوفية، التي تستقي على غرار باقي زوايا العصر من النبع الجزولي، الذي وقفنا بإيجاز على مدى واقعيته، وارتباطه الكلي بالجانب التطبيقي من التصوف أكثر من اهتمامه بالتنظير والمناقشة الفلسفية، بحيث نجمل أهداف الطريقة الجزولية في حث أصحابها على الجهاد لقهقر الفقر والأجنبي.

ولعل ما يستوقفنا، بخصوص الزاوية السملالية، هو محاولتها التغلب على الفقر المادي من خلال سن مجموعة من الإجراءات التي خولت للزاوية التصدي لمشاكلها المحلية.

وللحديث عن دور الشيخ احمد اموسى، في الإنفاق والإطعام تحيلنا المصادر على أربع مراحل من حياته:

أ- مرحلة بومروان:

سبقت الإشارة إلى أن أولى أماكن استقرار الشيخ احمد اموسى هي بلدته بومروان، حيث استقبل المريدين والزوار، وقد ارتبط انتقاله منها بكونها: "بلدة قصيرة الغلل زراعا وغيره"² لذلك نجد الشيخ ينتقل بين مجموعة من الأماكن قبل الاستقرار النهائي بمكانه الحالي بتازروالت. ويعني هذا أن أولى الإجراءات التي قام بها الشيخ احمد اموسى لمواجهة ضعف الموارد وقتها، هو تغيير المجال، ولعل هذا ما جعل الروايات الشفوية تحتفظ بمأثورات في هذا الشأن، يصرح خلالها الشيخ أن: "بومروان أيروان، تازروالت أيزدرن"³.

ب- المرحلة الثانية:

لقد شهدت الزاوية السملالية بتازروالت، تطورات عامة ارتبط بعضها بالظروف المحلية وبعضها الآخر بأحداث خارجية ساهمت في الكشف عن مشروع تأسيس لزاوية تقوم على استقطاب الأتباع ومحاربة الفقر. فرواية أدفال تسجل لنا التحول الذي عرفته زاوية الشيخ من فترة الفقر المدقع إلى المرحلة التي "فاضت فيها عليه الأسباب"⁴. وقد تزامنت الفترة الأولى وانتقاله من بلدته بومروان وما تلا ذلك من دخول عنيف إلى تازروالت، أذكته النزاعات مع حرييل،⁵ وقد حكمت اختيار الشيخ لهذا المجال الجديد ظروف اقتصادية ودينية، إلا أن طموحاته اصطدمت بظروف موضوعية ساهمت في تقليص موارد الزاوية مما كان له كبير الأثر على قدرتها الانفاقية. وأمام هذا الوضع الجديد، عمد الشيخ احمد اموسى إلى سن إجراء ثان تمثل هذه المرة في تخزين المؤن والموارد واستعمالها في الفترات العصيبة. فبينما تربط المصادر المكتوبة هذا الإجراء بكرامات الشيخ وقدرته الفائقة على تجاوز المصاعب المادية،⁶ تجمله كتابات أخرى مرتبطة بالقدرة على التنظيم؛ فالباحثة موني (Meunie) تعتقد أن المطمورات المشهورة في كل سوس والجنوب المغربي، تمتد جذورها بالخصوص إلى بداية ق 16م، وهو تاريخ النقلة الكبرى التي عرفها متصوفة تازروالت.⁷

¹ - الثمنارتي، الفوائد، ص. 72.

وتتحدث الروايات الشفوية من جهتها عن التوجهات الصوفية للشيخ احمد اموسى وتجلها في: "أكلزيم إيواكال، إكنزي إيواكال، تعبوت إحمان، أو حليك إخوان".
وتتمحور حول حث المريدين على الاهتمام بالفلاحة، والمواظبة على العبادة، مع السعي لتوفير الطعام للجوع.

² - البعقلي، مناقب، ص. 21.

³ - بومروان: ملاءمة لكن تازروالت أكثر قدرة.

⁴ - أدفال، تقييد، ص. 9-10.

⁵ - عقد أحد الباحثين مقارنة بين الزاوية الوزانية والزاوية الابليغية السملالية على عهد الشيخ المؤسس فخلص إلى أن "الزاوية الابليغية ولجت منذ وقت مبكر، المجالين السياسي والتجاري وتخلت حتى عن بعض المميزات التي يعتبرها جيلنر أساسية بالنسبة للمرابط، ألا وهي المسالمة من جهة والابتعاد عن الخوض في الصراعات القبلية من جهة ثانية. انظر: محمد منصور، تصوف الشرفاء، ضمن التاريخ وأدب المناقب، ص. 16، الهامش 4.

⁶ - أدفال، تقييد، ص. 9.

⁷ - Meunie, *Sités*, op.cit, p. 16.

ج-المرحلة الثالثة:

وهي التي اصطلح عليها ادفال بالمرحلة التي: "فاضت فيها الأسباب"¹ وقد اقترنت بتنامي مداخيل الزاوية من هبات وصدقات، فبعد أن كانت موارد الزاوية تقاس لقلتها بالأصوع: "صاعين من قمح، صاعين من شعير، صاعين من الجلبان"² أصبحت تقاس بأحمال الدواب³، ولم تعد الغلل المنتجة محليا تشمل المواد الضرورية فحسب، بل أصبحت تضم الفواكه، من عنب وفقوس وغيرها،⁴ ولكن نظرا لتعدد الزوار وتكاثرهم المستمر مع ضعف الإمكانيات الطبيعية للمنطقة، عمل الشيخ احمد أوموسى لضمان استمرار الزاوية في أداءها لوظيفتي الإطعام والإنفاق، على أحسن وجه، على سن إجراء ثالث يعتبر في نظرنا أساس عمله الصوفي، ونعني بذلك حثه المستمر للمريدين والزوار، على السواء على الاقتصاد، وعدم الإسراف.⁵

ح-المرحلة الرابعة:

مع تزايد نفوذ الزاوية السملالية، أصبح الإطعام والإنفاق من أهم الأدوار الاجتماعية التي اهتمت بها الزاوية. وقد مكنتها هذا من الانفتاح على المجالات الاقتصادية المحيطة بها.

وإذا كان المحيط الطبيعي لزاوية تازروالت لا يخول الظروف الملائمة لإنشاء زاوية ذات صيت في الإطعام، كما هو شأن زاوية وسعيدن بسكتانه⁶ فإن الروايات الشفوية، مع ذلك، تجعل من علاقة الشيخ احمد أوموسى بسيدي محمد أويغوب⁷ علاقة تتجاوز الإطار الصوفي المحض لتشمل الانفتاح الكلي على حاجيات زاوية إيمي ن تاتلت التي بنيت: "بناحية لا مزروع فيها (...) ولا ماء إلا بوية صغيرة"⁸ فهي تركز على الإعانات التي كانت تمنحها زاوية الشيخ احمد أوموسى لزاوية إيمي ن تاتلت مما خول لهذه الأخيرة استقبال: "الأعداد الكثيرة من الناس فيطعمهم (أي الشيخ) بين الليل والنهار أربع مرات"⁹ وإذا كانت المصادر المكتوبة، حسب علمنا لا تقف على علاقة الشيخين في إطارها الإجرائي هذا، فإنها تقدم لنا زاوية الشيخ احمد أوموسى كمستهلك مباشر للعديد من "الخنائف"¹⁰ التي تصنع بزاوية إيمي ن تاتلت¹¹، وقد تدخل هذه العملية في إطار مشروع أكبر يشمل تبادل المنتجات الفلاحية والصناعية بين الزاويتين. ورغم قلة الإشارات التاريخية الكفيلة بتعميق هذه الرؤية فإننا نخلص إلى انتهاء الزاوية السملالية في شخص مؤسسها احمد أوموسى إلى إجراء رابع تمثل في "تصدير" ما زاد عن حاجيات الزاوية والمريدين واستبداله بمواد أخرى ضرورية.

3- موارد الزاوية:

تحدثنا سالفًا عن الظروف الطبيعية المحيطة بزاوية تازروالت، ورأينا كيف أن هذه الظروف لا تسمح لمفردتها بتقديم خدمات كبرى، في إطار ما أسميناه بمشروع الإنفاق، كما تمثلته الزاوية السملالية، لذا سنعرض لباقي الظروف الداخلية والخارجية التي خولت للزاوية السملالية الحصول على موارد متنوعة.

ويمكننا تقسيم موارد الزاوية إلى أربعة مصادر:

3-1 ارتبط المصدر الأول بما وفره الشيخ نفسه من إمكانيات مستفيدة مما تسمح به الظروف المحلية، فكان أن تبني عملية إحياء الأراضي الموات وتعهدتها بالإصلاح والعناية.¹² ولم يلتزم بهذا العمل بتازروالت، فحسب، بل شملت رعايته وكراماته الأراضي المجاورة.¹³ والروايات الشفوية والمكتوبة غنية بأمثلة من هذا القبيل، خاصة منها تلك التي تقدم لنا الشيخ

¹ - أدفال، تقييد، ص. 10.

² - نفسه، نفس الصفحة.

³ - الحضيكي، مناقب، ج 1، ص. 2.

⁴ - نفسه، نفس الصفحة. أدفال، تقييد، ص. 2.

⁵ - ومن ذلك ما رواه الشيخ أحمد بن عبد الرحمان التزركيني عن الشيخ امحمد أوبراهيم التمنارتي أنه ذهب إلى الشيخ احمد أوموسى مع رجل اعتقد فيه الخير الكثير فلما لقيه قال له الشيخ احمد أوموسى: "لا تمشي مع ذلك الرجل، فإنه مكتوب في جبهته (إن الميزرين كانوا إخوان الشياطين)". أدفال، تقييد، ص. 2.

⁶ - انظر ذلك في: التمنارتي، الفوائد، ص. 10-11. الحضيكي، مناقب، ج 2، ص. 14-15.

⁷ - انظر ترجمته في: التمنارتي، الفوائد، ص. 58.

⁸ - السوسي، المعسول، ج 16، ص. 49.

⁹ - نفسه، نفس الصفحة.

¹⁰ - الخنيف: الثوب الغليظ، والمقصود به الطيلسان الغليظ الأسود.

¹¹ - محمد بن يعقوب، مناقب، مخطوطة خزنة المختار السوسي، بتزنيب، ص. 20.

¹² - الحضيكي، مناقب، ج 1، ص. 8.

¹³ - ومن ذلك ما جاء في مناقب الحضيكي أن تلميذه حسين بن عبد الله الرجتي قال له: "يا سيدي أحمد بن موسى سكنت قرية بورا لا ماء فيها وإني أحتاج خضرة طعامي"، فقال له الشيخ: "تحفظ على شجرة تنبت ساحة مسكنك". راجع: الحضيكي، مناقب، ج 1، ص. 8-9.

احمد أوموسى في إطار عمله بحقول وبساتين تازروالت، في حين كان فيه معاصره التمارتي يركز عناية أكبر على التدريس ونشر العلوم وترسيخها بين طلبة تمارت¹.

لكن رغم الجهد الكبير الذي بذله الشيخ ومريدوه في استغلال كل الإمكانيات الطبيعية التي يوفرها محيط تازروالت، فإن هذا لم يمنع الزوار من التصريح بكون الأمر فيه: "تعب كثير ونفع قليل"².

3-2- وأمام هذه البيئة المقللة، كان لزاما البحث عن مصادر أخرى لضمان استمرار الزاوية في أداءها لوظيفة الإنفاق: وقد وجدت الزاوية السملالية في الخدمات التي توفرها للمريدين والأتباع³ مكافأة تطوعية ومستمرة في شكل أعشار وهدايا وذبائح⁴. ومع تنامي الأدوار الاجتماعية التي تقوم بها الزاوية واتساع شهرة شيخها أحمد أوموسى، تنامت مداخيلها لتشمل صدقات سلطانية⁵.

3-3- المصدر الثالث: ما توفره القبائل من أعشار وهدايا⁶، وقد تحدثت المصادر عن إعتناء قبائل مجاط بتوفير المؤونة لمدرسة تازروالت، وإذا كان البعض يعتقد أن هذا الأمر لاحق عن الفترة المدروسة، فإن الرجوع إلى الروايات التي خاضت في علاقة الشيخ بقبيلة مجاط يجعلنا نقف على التزام هذه القبيلة في حياة الشيخ بأداء جزء من محاصيلها لزاويته بتازروالت⁷. ولعل ذلك مكافأة على الحماية الروحية التي حولها سيدي احمد أوموسى لقبيلة مجاط إبان استقراره بالمنطقة، وهكذا نجد أعضاء القبيلة: "يدفعون من عندهم سنويا عن كل كانون، صاعا من الحبوب"⁸.

3-4- المصدر الرابع: حين الحديث عن موقع زاوية الشيخ، لا يمكن للمرء أن يتجاهل الأهمية الاقتصادية التي يخولها هذا الموقع، فهو منطقة تكامل اقتصادي بين سكان الجبال المحيطة والأودية، وهو أيضا مجال لمرور قوافل التجار القادمين من السودان الغربي عبر افران الاطلس الصغير. والمتجهين نحو مينائي أكادير وماسة، ونظرا للأمن والاستقرار اللذين توفرهما هذه الزاوية وسط محيط قبلي يتسم بالحركة والتصارع المستمر، فقد كان طبيعيا أن تستفيد من مداخيل جانبية اعترافا من التجار خاصة والحجيج عامة بأهمية الشيخ احمد أوموسى⁹.

ونخلص من هذا كله إلى أن الزاوية السملالية، قد التزمت، شأنها في ذلك شأن زوايا العصر السعودي عامة، بالإنفاق على المريدين والزوار، كل واحدة حسب قدراتها وتنوع مواردها، فكان الإنفاق بالنسبة للزاوية السملالية يشمل أموراً متعددة، منها توفير الطعام للفقراء والزوار، وإذا كانت أكالات الشعير و "الحسوة بالشوم" هي أبرز ما تلتزم الزاوية بتقديمه للمريدين والشيخ¹⁰، على حد سواء، فإن السلطان عبد الله الغالب قد خص باستقبال متميز، إذ "هياً له النزول وما يصلحه وأعد له ما يناسبه من الأطعمة الرفيعة النفيسة وقدم إليه الثمر الجيد واللبن الحليب"¹¹. وكانت كرامات الشيخ تتدخل لإطعام ضيوف الزاوية، وكل من استنجد بها ممن أشرف على الهلاك بسبب الجوع¹². ومن الأمور الأخرى التي يشملها الإنفاق، إيواء الزوار المتزدين على الزاوية، خاصة منهم الفقراء والمريدين، ويضم حرم الزاوية شواهد تاريخية لحجرات بنيت وسقفت بنفس الطريقة التي بنيت عليها بيوت القرية، والتي كانت تفي بالغرض.

كما كان للشيخ احمد أوموسى يد في تنظيم المعاملات بين الشركاء لضمان ارتفاع المردود، فقد شكاه بعض الفقراء "أنه كان يبده، وكان له غرس من النخل وكان له شريك في ذلك وربما يأخذ مرة من ذلك الغرس" فكان جواب الشيخ: "ذلك الغرس يصلح، حين يدخل الواحد جناحه من الصباح إلى العشي ويمسك يده". انظر: أدفال، تقييد، ص. 2.

¹ - تتفق المصادر التي تناولت حياة الشيخ امحمد أوبراهيم التمارتي على اهتمامه بالعلوم "فضلاء بلاد سوس متفقون على عمله وفضله وأنه من القادة الأخيار غزير العلم والديانة". انظر: ابن عسکر، دوحة الناشر، ص. 83.

² - الحضيكي، مناقب، ج 1، ص. 4.

³ - ومن بين هذه الخدمات: التعليم والتحكيم والتطبيب... الخ.

⁴ - السكيكي، تقييد، ص. 2.

⁵ - علي بودميعة، ديوان البيوعات، نسخة خاصة.

⁶ - ومنها تلك القطع الأرضية التي توصل بها الشيخ في كل من "تامورزت" و"تازمليت" وهي القطع الوحيدة التي لم تشملها دورة الصدقة التي "فقدت" بموجبها زاوية الشيخ احمد أوموسى ما توصلت به من هبات وصدقات. انظر: علي بودميعة، "ديوان البيوعات".

وإضافة إلى هذه القطع الأرضية سجل ديوان البيوعات حصول الزاوية على "هبة ممنوحة للولي الصالح سيدي احمد أوموسى من طرف محمد بن احمد الجليلي المجاطي، للولجة والتي هي ملك له، هبة مؤرخة بصفر 970، فبراير 1563م".

⁷ - Justinand, «Sidi Ahmed ou Moussa», op.cit, p. 22.

⁸ - السوسي، خلال جزولة، ج 4، ص. 149.

⁹ - السكيكي، تقييد، ص. 2.

¹⁰ - الحضيكي، مناقب، ج 1، ص. 4.

¹¹ - الفاسي، ممتع الاسماع، ص. 50.

¹² - الحضيكي، مناقب، ج 1، ص. 2.

عمل الشيخ على توزيع الصدقات على المحتاجين، إسهاماً منه في تقليص الفوارق الاجتماعية، وقد تنوعت هذه العطايا لتشمل الملابس والمال¹. وإذا كانت زوايا العصر السعودي، قد التزمت، في إطار التصوف الجزولي، بمحاربة الجوع والفقير، فإن زاوية تازروالت قد نفذت هذا المشروع في إطار أوسع إذ لم تكتف بتوفير الطعام والمسكن والحث على استصلاح الأراضي وتعهدوا بل زودت بعض الزوار بالمال الضروري لتفريج ضائقتهم المادية. وقد وظفت بعض هذه الأموال في تجارة الصحراء فتمت بكثير "بركته الشيخ احمد أوموسى".

¹ - السكيتي، تقييد، ص. 2.

الفصل الثالث

تجليات انفتاح الزاوية السملاية

على محيطها القبلي

I / الزوايا والقبائل خلال القرن 16م

من القضايا التي مازالت تطرح بجدّة على المؤرخين مسألة الحسم في نوعية العلاقة التي كانت تربط صلحاء القرن 16م بالمجال القبلي المحيط بهم، وإذا كان من غير الممكن الوقوف على جميع جوانب هذا الموضوع، فإننا سنحاول استقراء بعض الروايات للخروج بملامح عامة عن هذه العلاقة¹، والتي لا يمكن فهم بعض جوانبها ما لم نقف بوضوح على الوضع القبلي في نفس الفترة. وبما أن إمكانيات البحث والحدود المجالية التي يشملها لا تخول لنا الحديث عن هذا الوضع في كل المغرب السعدي²، فإننا سنكتفي بإعطاء نظرة عامة عن تنقلات القبائل في الجنوب المغربي لنلخص إلى الإطار العام الذي تنبني عليه علاقة الشيخ احمد أوموسى كمتصوف بتلك القبائل.

معلوم أن العهد السعدي كان مليئاً بتحركات القبائل والسكان إما لأغراض عسكرية أو معيشية. وقد شملت التحركات جل القبائل، سواء منها التي كانت تسكن الصحراء أو تلك التي تقطن الجبال والمنخفضات³. ونظراً لاختلاف ظروف عيشها وتميزها التام، فإننا لن نستطيع الحديث إجمالاً، عن كل القبائل دفعة واحدة بل سنعمل على تتبع كل قبيلة على حدة مراعين التسلسل الكرونولوجي والأهمية التي تكتسبها هاته القبيلة أو تلك ضمن المجال الإشعاعي للزاوية. لكن قبل هذا وذاك لا بد من الإشارة إلى أن أغلب تنقلات هذه القبائل المزمع الحديث عنها تبدو في بعض الأحيان منطقية، باعتبارها قبائل رحل أو أنصاف رحل.

1- تحركات القبائل في منطقة سوس في بداية القرن 16 م

تركز الكتابات التي اهتمت بالجنوب المغربي، ما بين القرنين 14م و16م، على قوة ودينامية القبائل المعقلية⁴. فقد تقوّت شوكة الأعراب المعقلين بعيداً عن الضغط المحلي، وأخذ التباين بينهم وبين المحليين يتزايد متخذاً مظاهر عدة منها المادية ومنها المعنوية⁵. ويوعز البعض⁶ هذه القوة إلى اختناق اقتصاد المغرب ما بين نهاية القرن 14م ونهاية النصف الأول من القرن 16م، وما ترتب عن ذلك من تراجع في وثيرة التجارة مما قلل من احتياج المستقرين لمواد ومنتجات الرحل (الصوف، الجلد، ...)، في حين ازدادت فيه حاجيات الرحل إلى المنتوجات الأساسية التي يوفرها المستقرين، مما خلق ضغوطاً ملحوظة على هؤلاء المستقرين، كرد فعل طبيعي من أجل البقاء والاستمرار، نتج عنه تحركات للقبائل في كل الاتجاهات، وهذا ما حدا ببعض الباحثين إلى اعتقاد أن خراب تامدولت كان نتيجة حركة سكانية ساهم فيها عرب معقل⁷.

وعموماً يمكننا تتبع دور هؤلاء في الجنوب المغربي من خلال المنحنى الذي رسمته مصادر الفترة⁸. فبعد أن كانوا خلال القرن 13م و14م مجرد رحل يعيشون في حالة تنقل دائم، مستفيدين بذلك من تجارة الصحراء بدأوا انطلاقاً من نهاية القرن 14م في فرض سيطرتهم على المستقرين⁹.

¹ - تجمل الدراسات علاقة الأولياء بالقبائل في نقطتين أساسيتين: فض النزاعات أو ما يصطلح عليه بالتحكيم، ثم إعتبار القبيلة كمجال إقتصادي يستثمر من خلال تراكم الهبات والصدقات، لكن ما يلفت الانتباه أكثر هو القدرة الكبيرة، التي كانت لصلحاء القرن 16م، للحد من النزاعات وفرض الصلح على المتنازعين. انظر:

- Morsy (M), *les Ahnsala, Examan du rôle Historique d'une famille Maraboutique de l'Atlas Marocain au XVIIIe siècle*, Mouton, Paris, 1972.

- Hammoudi, «Sainteté», op.cit, pp. 629- 637.

- Pascon, *le Haouz*, T I, op.cit, p. 255.

² - يمكن استكمال الصورة بالرجوع إلى:

- محمد مزين، فاس وباديتها، ج 1، ص ص. 83-170.

- Mezzine (L), *le Tafilalt*, op.cit, pp. 273-280.

- مصطفى ناعمي، الصحراء من خلال بلاد تكتة تاريخ العلاقات التجارية والسياسية، منشورات عكاظ، 1988، ص ص. 103-125.

³ - مزين، فاس وباديتها، ج 1، ص ص. 83.

⁴ - عبد الرحمان ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، القسم الأول، ج 6، بيروت، الطبعة الثالثة، 1967، ص ص. 77-78. الوزان، وصف أفريقيا، ج 1، ص ص. 50-54-78-157-

272. كريخال، أفريقيا، ج 3، ص ص. 151-153.

⁵ - للوقوف على بعض جوانب هذا الموضوع راجع: م ناعمي، الصحراء من خلال بلاد تكتة، ص ص. 94-96.

⁶ - Mezzine, *le Tafilalt*, op.cit, p. 274.

⁷ - Rosenberger, «Tamdukt», op.cit, p. 133.

⁸ - ابن خلدون، كتاب العبر، ص ص. 77-78. الوزان، وصف أفريقيا، ص ص. 50-54-78-157-272.

⁹ - وقد تمثلت أولى بوادر الضغوط المعقلية، على السكان المستقرين بالجنوب المغربي، في صعود كزولة من الصحراء والمناطق شبه الصحراوية، حيث كانوا يستقرون خلال ق XI م، نحو الشمال، حيث نجدهم يستوطنون خلال القرن 13م منطقة الكست (المجهولة الموقع). راجع بهذا الصدد:

- Rosenberger, «Tamdukt», op.cit, p. 133.

وقد تزايد هذا الضغط مع نهاية القرن 15م وبداية القرن 16م فجاء تكالب المد المسيحي المعقلي ليزيد من عبء الخسارة السياسية، والعسكرية، والتجارية، والديموغرافية التي كان يعاني منها المحليون آنذاك¹. إلا أنه مع نهاية النصف الأول من القرن 16م، سيعرف هذا المد تراجعاً ملحوظاً بصعود السعديين إلى الحكم. لكن لا ينبغي أن تفهم، مما قيل، المسؤولية المطلقة لعرب معقل، في كل الحركة السكانية والغليان السياسي والبشري الذي عرفته المنطقة خلال القرنين 15م و16م. فالظاهرة ليست حكراً على العهد السعدي دون أية فترة أخرى. كما أنها ليست حكراً على عامل واحد دون الآخر. ومن ثمة يمكننا تتبع عوامل أخرى ساهمت في هذه الحركة السكانية، منها بالخصوص ما هو مرتبط بظروف محلية تمثلت في المجاعات والأوبئة. فداء الطاعون الذي عرفته المنطقة في سنوات 1509م، 1511م، 1518م، 1520م، كانت له نتائج وخيمة على التجمعات السكانية خاصة في السهول، مما حدا بالعديد إلى الانتقال إلى المناطق الجبلية التي تخول مناعة أكبر².

نستنتج، مما سبق ذكره، أن الحركة السكانية في الجنوب المغربي في أوائل القرن 16م ارتبطت بأسباب متعددة تداخلت فيما بينها لتعطينا صورة عالم متحول لم ترتسم معالمها الأساسية إلا مع توطيد الحكم السعدي في المنطقة³، وليس غريباً، في إطار هذه التحولات أن نرى الزوايا في سوس تتبنى المد الجهادي وتمارس سلطة دينية ودينية أقوى على محيطها القبلي.

2- تفاعلات زوايا سوس مع حركة القبائل:

يرى بعض الدراسين أن زوايا سوس والصحراء لم تغير من طبيعة الأمور إلا في فترة استعملت خلالها كأداة لمحاربة المد الأعرابي الجارف والإبقاء على هوية تتحدى الكوارث الاقتصادية والديمغرافية⁴. وبالفعل فقد تزامن بروز هذه الزوايا على ساحة الأحداث، وظروف خاصة، فضلاً عن الأزمة السياسية التي أعقبت سقوط الدولة الوطاسية، إزداد التهديد البرتغالي للسواحل، وتنامت ضغوط عرب معقل على منطقة سوس بالخصوص. وقد ساهمت هذه العوامل مجتمعة في تشكيل توجه كل زاوية على حدة، ونظرتها إلى المجال المحيط بها. وهو أمر نلمسه بوضوح لدى أبرز زوايا المنطقة، فزاوية الشيخ أحمد اوبراهيم التمارتي، مثلاً، سعت إلى محاربة المد المسيحي وتوثيق واقع بلادها السوسية⁵، من خلال إبرام شيخها أحمد اوبراهيم التمارتي لاتفاقية مع العرب الذين شكلوا عرقلة أمام تزويد الدولة السعدية الناشئة بالموارد الضرورية لتقوية صفوفها⁶، وكذا من خلال عقده لاتفاقية تعايش ووثام مع الحراطين المحليين. في حين تمتعت زاوية سعيد ابن عبد المنعم الحاحي بنفوذ روحي كبير في قبائل حاحة وعبدية التي التفت حولها في جهادها ضد المسيحيين المحتلين لشواطئ المنطقة. وقد تقوت شوكة هذه الزاوية بفضل استمالتها لهذه القبائل مما جعل السلطان السعدي بأمر بإغلاقها⁷. واتخذت علاقة زاوية زداغة، من جهتها، بالقبائل المجاورة لها على عهد شيخها المؤسس، عبد الله بن سعيد ابن عبد المنعم الحاحي، بعدين إثنين: أولها إنصاف المنتسبين للزاوية من ظلم ممثلي المخزن السعدي بمنطقة حاحة مستغلاً لذلك نفوذه الروحي في قبائل مسكينة⁸ وثانيها احتراسه الشديد من الناس⁹، ولعل ذلك نابع من ظروف الفترة التي اتسمت، كما هو معلوم، بالغليان السياسي والبشري.

هذه، إذن، بعض صور تفاعلات زوايا سوس مع محيطها القبلي، فإلى أي حد استطاعت الزاوية السملالية على عهد الشيخ أحمد اوموسى الإفتتاح على هذا العالم المتحول، المليء بالتناقضات؟ وكيف تمكنت من اثبات هويتها داخل محيط قبلي ضم فضلاً عن المحليين (المجايطين والحرايل) قبائل معقلية مدفوعة بفعل الظروف المعروضة سابقاً نحو اكتشاف مجالات جديدة؟

¹ - تشير وثيقة 1499م، إلى وجود تحالف سياسي بين شيوخ قبيلة بني عامر وملوك قشتالة.

- Cenival (P), et la chapelle (F), «Possessions Espagnoles sur la côte occidentale d'Afrique. Santa Cruz de mar pequena et Ifni», in Hesperis, 2-3 trimestres, 1935, pp. 19-77.

² - راجع: السوسي، ايليج قديما وحديثا، ص. 239.

- Rosenberger, «Famines», op.cit, pp. 116-117 et p. 120.

³ - مزين، فاس باديتها، ج 1، ص. 83-170.

⁴ - ناعمي، الصحراء من خلال بلاد تكنة، ص. 96-95، 114-116.

⁵ - ناعمي، مادة "احمد اوموسى"، ص. 163.

⁶ - الدوماني، روضة التحقيق، نسخة خزنة الحضيكي. راجع أيضاً: السوسي، المعسول، ج 12، ص. 40-41.

⁷ - السوسي، المعسول، ج 16، ص. 49.

⁸ - نفسه، ج 19، ص. 76.

⁹ - وقد اعتبر ذلك من بين وصايا الشيخ أحمد اوموسى له، وهذا أمر لا يتناقض وطبيعة الشيخ أحمد اوموسى الذي أثر عنه أنه كان يقول: "إعرف رب الدار ورب البلد إذا عرفت رب الدار ورب البلد أمنت كلاب الدار وكلاب البلد وإذا عرفت الدار والبلد دون رب الدار ورب البلد لم تأمن الكلاب فيما أكلت أو منعك من الوصول إلى رب الدار ورب البلد". انظر: التمارتي، الفوائد، ص. 69.

II / علاقة الزاوية الشمالية بحيطها القبلي:

اختلف موقف الشيخ احمد أموسى من القبائل باختلاف الروابط التي كانت تجمعها بها. لذلك سنعمل على تتبع حيثيات هذه العلاقة ابتداء بالحديث عن علاقته بإداوكرسموك وانتهاء بعلاقته بمجاط التي مازالت تجمعها، إلى الآن، بزاوية الشيخ روابط متميزة.

لكن قبل ذلك، تجدر الإشارة إلى صعوبة تحديد مواقع ومجالات تحرك تلك القبائل التي كانت لها صلات بالشيخ، وذلك لأسباب عديدة، فمصادر الفترة¹ لا تتقصى مواقعها وفروعها والتنقلات التي شهدتها. مع العلم أن العهد السعودي، كما أسلفنا، كان مليئاً بتحركات القبائل والسكان، إما لأغراض عسكرية أو معيشية. أما المراجع الحالية فلا تعدو أن تكون استقراء للخرائط عن الوضع الحالي للقبائل². وهو أمر لن يفيدنا في هذا العمل.

1- علاقته بإداوكرسموك:

أشرنا حين حديثنا عن أصول الأسرة الشمالية، إلى ارتباط هذه الأسرة بمنطقة إداوكرسموك، باعتبارها أولى المحطات التي شهدت استقرار الأسرة بعد انتقالها من تامدولت. وتبقى معلوماتنا، حول علاقة الشيخ احمد أموسى بإداوكرسموك، رهينة بما تقدمه الروايات الشفوية، بحيث يحكي بعضها عن علاقة احمد أموسى الشاب بأقرانه من هذه القبيلة، في حين تشير أخرى إلى توافد قبائل متعددة للسكنى بتازروالت، بعد إجلاء أيت حريل عنها، فكان الرسموكيون من بينها.

تشكل إذن علاقة الشيخ بإداوكرسموك مجالا خصبا للتساؤل عن حيثيات هذه العلاقة وظروفها العامة. وإذا كنا لم نجد جوابا شافيا فيما اطلعنا عليه من مصادر ووثائق، فإن الأهمية الاقتصادية للمنطقة قد تكون في نظرنا وراء هذا الاهتمام³.

2- علاقة الزاوية الشمالية بالقبائل العربية⁴:

شكلت علاقة الشيخ احمد اموسى بقبائل احمر المعقلية⁵، نموذجا متميزا سطر لنا بعض مواقف الزاوية الشمالية من القبائل. ولفهم هذه العلاقة سنعمل على تتبع مراحل تنقل قبائل أحمر، ابتداء بوجودها بين موريطانيا وساحل الذهب، حيث كانت، حسب فرنديز (Fernandes) 1506م-1507م، مجاورة لكل من البرابيش والأودايا ورحامنة⁶، ومرورا بسكناها ب "صحراء تكانوت"⁷ على عهد الحسن الوزان، حيث كانوا "يتلقون بعض الإعانات المالية من سكان قرية تكاووست"⁸، لنجدهم سنة 1517 جنوب أكادير، وربما جنوب ماسة إلى جانب أولاد دليم، والأودايا والرحامنة⁹، أي القبائل المعقلية الثلاث التي شكلت أهل سوس في الجيش السعودي. وتحديث مصادر متأخرة عن استقرار بعضهم بهوارة بسوس¹⁰، لينتهوا بعد ذلك إلى موطنهم الحالي "في قبيلة أرضها وادي تانسيفت، من مراكزها الشماعية واليوسفية، تجاورها من جهة الغرب قبيلة شياظمة وقبيلة عبدة التي عاصمتها مدينة آسفي على المحيط الأطلسي"¹¹.

ويبدو أن هذا التنقل، المستمر، للقبائل المعقلية محكوم بظروف موضوعية جعلتها تغادر المجال الذي كانت تشغله بين السنغال والساحل الأطلسي إلى أماكن بالشمال¹². وقد نجد بعض حيثيات هذه الظروف فيما قدمه فرنديز (Fernandes)

¹ - على الرغم من أن العديد منها، وعلى غير المؤلف، يذكر أسماء القبائل فكتب التراجم التي ألف أغلبها في نهاية القرن 17م وبداية القرن 18م تقدم لنا صورة واضحة عن إعتناء سكان الجنوب المغربي بإثبات أصولهم القبلية، على سبيل المثال: البعقلي والرسموكي والدرعي والتمنارتي والسكتاني والمانوي والأدوزي والجشتميني... الخ.

² - تكتب أيضا رسموكة، وهي فرع من ادولتيت التي تتألف من ثلاث "تقبيلين": تاقبيلت-ن- إداوكرسموك وتاقبيلت-ن- إداوسمال وتاقبيلت-ن- إداويعقيل.

³ - عن الأهمية الاقتصادية لمنطقة إداوكرسموك راجع: عمر أفا، مادة "أكوتام"، معلمة المغرب، ج 2، ص ص. 635-637.

⁴ - ونعني بها القبائل المعقلية التي فرضت هيمنتها على كل الجنوب الغربي خلال القرن XVIم. راجع: الوزان، وصف إفريقيا، ص. 54. كرخال، إفريقيا، ج 1، ص. 106، ج 3، ص. 151.

⁵ - تكتب أيضا: حمير والنسب حمري وحميري. انظر: الوثائق، مجموعة وثائق دورية تصدرها مديرية الوثائق الملكية، المجموعة 3، المطبعة الملكية، الرباط، 1976، ص. 130، هامش 1.

⁶ - Fernandes, *Description*, op.cit, pp. 68-69.

(⁶) أشار المترجم إلى أن تكانوت، لعلها هي تكاووست. انظر: الوزان، وصف إفريقيا، ص. 54، هامش 1.

⁷ - الوزان، وصف إفريقيا، ص. 54.

⁸ - نفسه، نفس الصفحة.

⁹ - Castries, *Sources Inédites*, op.cit, pp. 128-131.

¹⁰ - حيث "وجدت نفسها ترتدي في أحضان البرتغاليين، لتقيم معهم علاقات تجارية، حين كانوا يفونتي منذ أوائل القرن العاشر الهجري (16م)". انظر: الناصري، الاستقصاء، ج 4، ص. 139.

¹¹ - أحمد التوفيق، مادة "أحمر"، معلمة المغرب، ج 1، ص. 177.

¹² - فالرحامنة وأولاد دليم، وغيرها من قبائل معقل، كانوا يشاركون في المبادلات التجارية التي تتم بين بلاد السودان وزناكة وجنوب غرب المغرب وتصل قوافلهم إلى آسفي حيث يشترون الخيول، لمبادلتهما بالعبيد الذي يبيعهون لمسيحي أركوين.

- Colin (G), *Mauritania*, in *Hesperis*, XI, 1930, p. 142.

ففي إطار حديثه عن آليات التجارة الصحراوية والمساهمة الفعلية للقبائل العربية فيها، سجل بعض الإشارات التي تسمح بالوقوف على مدى الفائدة التي تجنيها تلك القبائل¹. فبعيدا عن الموارد المباشرة المترتبة عن حمايتها للقوافل، اكتسبت هذه القبائل معرفة مهمة بالشمال شجع تنقلها في اتجاهه. إلا أن التنقل الجماعي لبعض فروع القبائل المعقلية تم بإيعاز من السلطة السعدية نفسها. وقد شمل النقل بالخصوص أحمر هوارا بسوس² لتشكيل دعامة أساسية ضمن الجيش السعودي مستفيدين بذلك من قوة أحمر التي بلغ عدد محاربيها، في بداية القرن 16م: "ثمانية آلاف محارب"³. وقد ساهم المتصوفة الجزوليون في تسهيل إدماج هؤلاء في سلك الجندية. ونلاحظ ذلك بالخصوص في الدور الذي قام به الشيخان، احمد اوموسى ومحمد أبراهيم التمارتي من أجل الحد من الضغوط التي أحدثتها قبائل معقل على المستقرين في درعة وسوس، مع نهاية القرن 15م وبداية القرن 16م، مستغلين بذلك مكائنها الروحية وقدرتها الفائقة على التوفيق بين متطلبات الدولة السعدية وحاجيات العرب الرحل⁴. غير أن اتصال قبيلة أحمر بالشيخ احمد اوموسى قد تم قبل ذلك بكثير؛ إذ ابتدأت هذه العلاقة مع سياحته حيث رافقه كل من سعيد بن ناصر وعلي بن ناصر الحمري⁵. واستمرت هذه الصلة بينهما لتأخذ بعدا أكثر تحديدا بأخذها الرماية عنه. وقد توصلت العلاقة بين أحمر والزواوية السملالية منذ أن كان هؤلاء بهوارا بسوس، وظلت مستمرة لوجود عادات متشابهة في تعظيم مرابطي تازروالت⁶. وإذا كانت المصادر المكتوبة لم تول عناية لهذا الموضوع⁷، فإن مصادر أخرى أكثر تخصصا في ميدان الرماية والفنون الحربية، تسمح بالوقوف على مظاهر هذه العلاقة. وقد راجعنا بهذا الخصوص مخطوطة تتعلق بالرماية، كانت لشيخ الرماة في عصره بسوس أحمد بن إبراهيم الماسي، ذكر في الفصل الرابع منها صفة الشيخ الذي يعلم الرماية فقال: "إن من الأشياخ المعلمين للرماية سعيد بن محمد الناصري القاطن فوق زيمة عين عريض بموضع يقال له عين عريض يعني في قبيلة أحمر، وكان راميا فارسا تقصده الوفود للأخذ عنه"⁸ ثم أتبعه بذكر آخرين إلى أن قال: "إن أحمر سيدي سعيد بن ناصر، أخذ الرماية عن الشيخ سيدي احمد اوموسى التازروالتى وقد كانا معه في ذهابه إلى المشرق"⁹.

وفي تقييد آخر: "قد أخذنا الرماية من الأب الأبر الأرضي الرئيس أحمد بن إبراهيم العمري السوسي، تم أخذنا من الأب النحرير أبي العباس السيد محمد بن محمد الخلاطي الشريف، ثم أبي العباس المذكور عن سيدي أحمد ابن زعيم عن سيدي علي بن ناصر الذي أخذها عن سيدي احمد اوموسى"¹⁰.

ورغم سكوت مصادر الفترة عن هذه العلاقة، فإن الذاكرة الشعبية ظلت تحتفظ إلى الآن بصورة عن: "إنحياش آل حمر إلى آل الشيخ احمد اوموسى حين يخدمونهم ويصلونهم فيدفعون لهم إلى الآن في كل سنة ما يدفعون"¹¹.

ولم تقف علاقة آل حمر بالزواوية السملالية عند ذلك الحد بل ظلت قائمة إلى فترات متأخرة، فقد كتب الحسين أوهاشم، حفيد الشيخ احمد اوموسى، إلى السلطان الحسن الأول رسالة بتاريخ 27-8-1302هـ الموافق لـ 11-6-1885م يذكر فيها أنه أرسل من قبله من يجمع له على العادة في كل "الزيارات" التي يعطيها أهل قبيلة أحمر إلى بيت آل سيدي احمد اوموسى، فمنعهم القائد الجليلي ولد هدي مع العلم بأن تلك "الزيارة" قائمة من قديم¹².

وقد تفسر العلاقة المستمرة بين آل حمر والزواوية السملالية حتى بعد وفاة الشيخ احمد اوموسى، بالاعتراف المطلق للشيخ بالريادة في مجال تعليم الرماية. فقد استفاد آل حمر من الدروس التي أخذوها عن الشيخ احمد اوموسى، بحيث استطاعوا تشكيل تنظيمات شعبية في جماعات محلية تتدرب على الرماية بالبنادق، لا يعرف بالضبط تاريخ ظهور هذه التنظيمات، إلا أن أقدم النصوص-في هذا الصدد- لا يتجاوز بها المائة الهجرية العاشرة¹³، وهي نفس الفترة التي أخذ فيها سعيد

¹- Fernandes ,Description, op.cit, p.73.

²- الناصري، الاستقصا، ج 4، ص. 139.

³- الوزان، وصف إفريقيا، ص. 54.

⁴- الدوماني، روضة التحقيق، نقلا عن: السوسي، المعسول، ج 7، ص. 41.

⁵- السوسي، خلال جزولة، ج 2، ص. 33.

⁶- التوفيق، مادة "أحمر"، ص. 178.

⁷- والإشارة الوحيدة التي تتحدث عن علاقة الشيخ بالقبائل العربية، الطارئة على منطقة سوس، نجدها عند التمارتي الذي تحدث عن محاولة الشيخ إقامة نوع من التآلف بينهما وبين المحليين من خلال تخصيص جانب من مجلسه لها واهتمامه الكبير بها، مما جعل أحد مريدي الشيخ من المحليين يقول: "حازه العرب عنا"، فكان جواب الشيخ احمد اوموسى "مجلسنا ليس فيه طرف وهو كله وسط العرش". راجع: التمارتي، الفوائد، ص. 71-72.

⁸- أحمد بن إبراهيم الماسي، مخطوطة حول الرماية، الفصل 4، مخطوطة خزانة ابلينغ بتازروالت، ضمن مجموع يضم مؤلف للسيوطي و"شجرة لأصحاب الرماية".

⁹- نفسه.

¹⁰- السوسي، خلال جزولة، ج 2، ص. 38.

¹¹- نفسه، ص. 34.

¹²- التوفيق، مادة "أحمر"، ص. 178.

¹³- محمد المنوني، "قطعة عن نشاط الرماية الشعبية بالجنوب المغربي": تقديم وتحقيق، مجلة الباحث، العدد 1، السنة الأولى، 1972، ص. 108.

بن ناصر وعلي بن ناصر عن الشيخ احمد أوموسى. هذا وتؤكد الدراسات المتأخرة، أن المدرسة الحربية التي تشكلت في قلب أحمري والتي ترجع أصولها إلى الشيخ احمد أوموسى، تمتاز بالالتزام التعليمي، والابتعاد عن الطموح إلى الحكم¹. فكان هذا من بين الأسباب التي أدت إلى استمرار رماية الجنوب وامتداد تعاليمها إلى العقود الأولى من هذا القرن.

3- علاقتها بإداوبعقل²:

اتخذت علاقة الشيخ احمد أوموسى بقبيلة إداوبعقل بعدين اثنين:

أولهما: استقبال زاويته للعديد من الطلبة البعقلين الذين اختار من بينهم خداما لها، ومن هؤلاء موسى بن داوود وإبراهيم بن الحسن البعقلي وآخرين³. ولم تكن علاقته بهذه القبيلة تقتصر على هؤلاء بل كان يرد عليه -حسب البعقلي-: "الأشياخ الكبار الفضلاء من بلادنا"⁴.

وثانيهما: زيارته المتكررة لهذه القبيلة وخاصة لمسجدها "موزايت" بحيث يرى أن: "مسجد موزايت ومسجد تاكوشت بأيت صواب لا يشبهها مسجد في هذه البلاد فضلا وكرامة"⁵. وتحكم علاقة احمد أوموسى بإداوبعقل، مقومات أساسية، منها ما يجد مبرراته في أصول الأسرة السملالية التي تشترك وإداوبعقل في كون سيدي زوزان جدها الأكبر، فقد رأينا سابقا، أن لزوزان ثلاثة أبناء هم: محمد، الملقب بتازاليت، وهو الجد الأكبر لإداوبعقل، وحركيل جد إداوكسموك، وإدريس جد السملالين⁶. وإذا كانت المصادر المكتوبة لا تسمح، مرة أخرى، بضبط علاقة الشيخ بهذه القبيلة فإن بعض النصوص تؤكد على تبجيل الشيخ للبعقلين إذ نجده يقول: "طوبى لمن رأى عمي إبراهيم بن الحسن"⁷ فهو يصرح بوجود رابطة العمومة بينه وبين إداوبعقل في شخص إبراهيم بن الحسن البعقلي، وتوطدت هذه الرابطة بمصاهرة الشيخ لها⁸. وإضافة إلى الأصل المشترك الذي يبدو لنا أكبر مقوم لهذه العلاقة، هناك قرب موطن إداوبعقل من تازروالت إذ: "يفصل مجاليها تل صغير"⁹. وهذه مجرد شواهد قد تفسر جزئيا، علاقة الشيخ بهذه القبيلة لكن يجب التأكيد على أن انتقال إداوبعقل إلى حلف تاحكات المضاد لحلف تاكوزولت¹⁰، ساهم كثيرا في طمس معالم هذه العلاقة، إذ نجد في الروايات الشفوية، المتداولة إلى الآن، آثارا واضحة للعداوة القديمة بين إداوبعقل ودار إيليج، تعدت هذه الآثار القرن 17م لتنسج، على نفس المنوال، حكايات تصور الصراع المزعوم بين أحمد أباعقل، شيخ إداوبعقل، واحمد أوموسى، شيخ إداوسملال¹¹.

4- علاقة الزاوية السملالية بقبيلة مجاط¹²:

على الرغم من أن الروايات الشفوية تجعل من علاقة الشيخ أحمد أوموسى بمجاط علاقة ضرورية تأسست مع بروز مشروع بناء زاوية الشيخ، فإن الضبابية مازالت تحف هذا الموضوع، ذلك أن المصادر التاريخية المكتوبة تكاد لا تعطي هذه العلاقة أية أهمية، لذا فإن الحديث عن قبيلة مجاط باعتبارها مساهما أساسيا في بناء زاوية الشيخ وضمان تموين مستمر لها يدعوننا إلى تتبع مراحل علاقة الشيخ بهذه القبيلة وكذا الظروف العامة المحيطة بها.

تعد مجاط أحد فروع صنهاجة التي هي جذم من البرانس الذين يرجع إليهم مع البتر جميع أنساب الأمازيغ¹³ كانت تسكن في القديم أقاصي الصحراء، واستوطن المجاطيون الذين انتقلوا إلى الشمال حوض ملوية العليا ثم انتشروا بعد ذلك في جبال الأطلس، وقد تحدث البكري في القرن 5هـ/1م عن مدينة "تاجمجت" في وادي درعة، على بعد مرحلة من "تيومتين" عاصمة

¹- Michaux-Bellaire, *Quelques Tribus de La Région du Habt*, in *Archives Marocaines*, Vol XVII, p. 73.

- Drague, *Esquisse d'Histoire*, op.cit, p. 29.

- Laoust (E), *Contes Berbères du Maroc*, paris, 1927, p. 303.

²- قبيلة تنتمي إلى اتحادية إداولنتيت، تستوطن المنطقة الممتدة ما بين أنزي وتافراوت بالأطلس الصغير، وتضم: "أيت بجمان"، و "أيت أوفلا أزور"، و "أيت تغمي" و "أيت عمر". راجع: أحمد التوفيق، مادة "إداوبعقل"، *معلمة المغرب*، ج 1، ص. 221.

³- الحضيكي، مناقب، ج 1، ص. 3.

⁴- البعقلي، مناقب، ص. 9.

⁵- السوسي، المعسول، ج 12، ص. 19.

⁶- راجع الفصل الخاص بالأصول.

⁷- السوسي، المعسول، ج 12، نفس الصفحة.

⁸- السوسي، *رجال العلم العربي*، ص. 17.

⁹- التوفيق، مادة "إداوبعقل"، ص. 221.

¹⁰- للوقوف على بعض المعلومات عن حلفي تاحكات وتاكوزولت، راجع: أفا، *مسألة النقود*، ص. 103، وأيضا: - Meunie, *Geniers*, op.cit, p. 219.

¹¹- السوسي، المعسول، ج 5، ص. 139.

¹²- تدعى محليا إجماض.

¹³- حجي، *الزاوية الدلانية*، ص. 29.

هذا البلد¹. وربطت الروايات انتقال مجاط من الصحراء نحو الشمال بالوباء الشهير الذي اجتاحت: "ساكني سوس في أواسط القرن الثامن سنة 747هـ/1347م" مما يجعل مجاط الموجودة اليوم بسواحل الساقية الحمراء أصلا لهذه القبيلة³. ولعل هذا التنقل المستمر لقبائل مجاط، هو الذي يفسر انقسامها إلى أربع قبائل كبرى يطلق عليها نفس الاسم⁴ يهمنها منها مجاط سوس⁵ التي تعد أهم هذه القبائل، إذ تسكن غير بعيدة عن تازروالت حيث زاوية الشيخ احمد أوموسى. تحدها شمالا قبيلة "إداوسمال" وجنوبا "إفران" -الأطلس الصغير- وشرقا "أيت عبد الله"، وغربا "أيت رخا"، وتتبع إداريا "الأخصاص". ومن أفخاذ مجاط سوس: "أيت بوردي" و"أيت موسى"... الخ.

ارتبط ذكر مجاط، في الروايات الشفوية، بصراع تاريخي طبع علاقتها بحربيل⁶. وإذا كانت تازروالت قد شهدت إحدى مراحل هذا الصراع، فإن خيوطه الأولى تعود إلى فترة خراب تامدولت. فأيت حربيل يؤكدون أن أمنصاك الذي تحمله الروايات مسؤولية هذا الخراب منهم⁷. في حين تؤكد مجاط، في روايات أخرى، أنه منها⁸.

انتقلت بؤرة الصراع من تازروالت نحو الجنوب في منطقة أيت عبد الله أوسعيد⁹ التي عرفت بدورها، ما بين القرنين 17 و19م تنافسا حادا بين مجاط وحربيل حول امتلاك مجالات الرعي.

وقد استغلت مجاط احتفاء أيت عبد الله أوسعيد بها، إذ "كان كل أكرام (أي الشريف) من أيت عبد الله أوسعيد يختار من مجاط "أمرغوسا" أي حاميا"¹⁰ لكسب أراضي جديدة. لتصبح أراضي أيت عبد الله أوسعيد مجالا خصبا لبروز الأحقاد القديمة التي ظلت تميز علاقة مجاط بحربيل. وتكون بذلك علاقة الشيخ احمد أوموسى بقبيلة مجاط قد ظهرت في إطار هذه المنافسات الثنائية التي عرفت امتدادا مجاليا وزمنيا. وإذا كانت المصادر لا تعير هذه العلاقة أية أهمية، فإن هذا لا ينفي الدور الكبير الذي لعبه الشيخ احمد أوموسى لترجيح كفة مجاط. وقد اختلفت الروايات حول سبب هذا الاصطدام، فبينما ترجعه بعضها إلى رفض أيت حربيل السماح للشيخ ببناء زاوية على أراضيهم¹¹، تؤكد أخرى على أن الاصطدام ارتبط باختلاف واضح في المعتقدات، فاحمد أوموسى لم يرقه اعتماد حربيل على الأعراف وتركهم للشريعة¹²، ولما لم يستجيبوا لدعوته استعان عليهم بمجاط التي أجلتهم عن كل تلك الناحية¹³.

وقد تزامنت هذه الأحداث، حسب مقولة الرواية الشفوية، مع اشتغال الشيخ احمد أوموسى برعي أغنام مجاط، مما جعله على بينة من الصراع القديم بين القبيلتين استغله الشيخ لكسب مجال لبناء زاويته. وتوطدت العلاقة بين الشيخ ومجاط بزواجه منها. وإذا كانت صلته بهذه القبيلة قد عرفت نوعا من الفتور، بسبب إساءتها إليه¹⁴، فإنها كفرت عن ذنبها بالتزامها أداء جزء من محصولها السنوي لأبنائه، وهكذا نجد المجاطين السوسيين، إلى اليوم، ينفقون على مدرسة الشيخ احمد أوموسى التي يعتبرونها مدرستهم الخاصة، فيصرفون من زكواتهم على من بها من الطلبة والمحتاجين.

¹ - البكري، المغرب، ص. 155-156.

² - السوسي، المعسول، ج 12، ص. 12.

³ - نفسه، نفس الصفحة.

⁴ - هذه القبائل المجاطية هي :

أولا: مجاط مكناس، ويقومون على بعد نحو 10 كلم من هذه المدينة في طريق الحاجب، ومن بطونها أيت بوحيات وأيت كراط وأيت محمد... الخ.

ثانيا: مجاط ناحية مراكش، وتشمل فريقين: مجاط التحتية التي تحدها قبائل الودايا شمالا وشرقا، وقبيلة أحمر غربا، وأيت يمور جنوبا، ومجاط الفوقية على ضفاف نهر (أسيف المال) وتبعد عن مراكش بنحو 70 كلمتر في طريق أمزميز ومن بطونها: أيت بوعمران، وأيت بوتير وأيت حمان... الخ.

ثالثا: مجاط أصحاب المعيزات، وهم سكان الساقية الحمراء، وقد رأينا ذلك في ظهير السلطان الحسن I الذي أسدل فيه أردية التوقير والاحترام على مجاط أصحاب المعيزات سكان الساقية الحمراء. والظهير مؤرخ بـ 20 جمادى الأولى عام 1292هـ.

انظر: السوسي، المعسول، ج 12، ص. 12. حجي، الزاوية الدلانية، ص. 257. الوثائق، ص. 78، هامش 1، ص. 155، هامش 3. الوثائق، المجموعة 3، ص. 473.

⁵ - انظر بهذا الصدد :

- السوسي، المعسول، ج 12، ص. 12. السوسي، ايليج قديما وحديثا، ص. 4-9. حجي، الزاوية الدلانية، ص. 257-258.

- Basset, *la Relation*, op.cit, p. 13, n°2.

⁶ - Rosemberger, «Tamdult», op.cit, p 131.

⁷ - Ibidem.

⁸ - Rosemberger, «Tamdult», op.cit, p 131.

⁹ - Chaumeil (J), «Histoire d'Une tribu Maraboutique de l'Anti Atlas: les Ait abdellah ou said», in *Hesperis*, 2 ème trimestre, 1952, p. 20.

¹⁰ - Ibid, p. 206.

¹¹ - السوسي، المعسول، ج 12، ص. 12.

¹² - نفسه، نفس المرجع.

¹³ - تعيش أيت حربيل حاليا بقرب أولاد بوعيطة بتراب تكنة بوادي نون.

¹⁴ - Pascon, *la Maison d'Iligh*, op.cit, p. 157. Jutinand, *Un Petit Royaume*, op.cit, p. 22.

- استنتاجات:

بعد عرض حيثيات العلاقة التي تربط الزاوية السملالية، على عهد الشيخ المؤسس، بالقبائل المجاورة لها انطلاقاً مما تسمح به مصادر الفترة نعود، الآن، لنحاول الربط بين خيوط هذه العلاقة لاستخلاص مقوماتها العامة.

يبدو لنا أن أولى مقومات علاقة الزاوية السملالية بالقبائل خلال ق 16 م هو:

- الأصل المشترك: ويمكننا أن ندرج في هذا الإطار علاقتها بكل من إداوكسموك وإداوبعقيل في حين ظلت علاقة زاوية الشيخ احماد أموسى بموطنها الأول إداوسملال غامضة، فلاحة الميردين، المستوحاة من كتب التراجم والمناقب وكتب التاريخ والوثائق التي اهتمت بشخص الشيخ احماد أموسى، لا تشير إطلاقاً إلى وجود بومرواني بينها.

- المقوم الثاني هو الزواج: يعد زواج الشيخ احماد أموسى من إداوبعقيل¹ ومجاط عاملاً أساسياً على التحالف بين الزاوية والقبيلتين، وإذا كنا نجهل ظروف هذه الزيجات وكذا الفائدة التي جنتها الزاوية السملالية منها، فإن بعض الروايات المحلية تشير إلى انقسام مجاط إلى قسمين: أحدهما رافض لتزويج مجاطية من الشيخ احماد أموسى وثانيهما مبارك لهذا الزواج.²

- المقوم الثالث: لقد ساهمت الزاوية السملالية، كما هو معلوم، في استيطان بعض القبائل بالمنطقة ونذكر منها على وجه الخصوص قبيلة مجاط وبعض فروع قبيلة إداوكسموك. في حين استفاد أهل إفران من السلطة الروحية للشيخ احماد أموسى. وبذلك يكون مستقرو الواحات (مجات وأهل إفران) أبرز من اعترف بالسلطة الروحية للزاوية التازروالتية لأنها توفر لهم الأمن والاستقرار وسلامة الطرق وذاك أمر يشكل بالنسبة لهؤلاء مصالحي حيوية لا يمكنهم ضمانها انطلاقاً من طاقاتهم الخاصة³. وقد تولد عن هذا تبادل للمصالح بين الزاوية والقبيلتين بالخصوص، فالزاوية تحمي المستقرين وتضمن سلامة قوافلهم التجارية مقابل الخدمة التي يقدمها هؤلاء، والمتمثلة في الزيارات والأعشار والهبات⁴.

- المقوم الرابع: التلمذ

إذا كان هذا التلمذ، حسب لائحة الميردين، يشمل جل القبائل التابعة روحياً للزاوية السملالية، فإن مبادئه تختلف باختلاف انتماء الميردين والأتباع. فباستثناء أولاد احمر الذين استفادوا إفادة مباشرة من الشيخ بتلقينه إياهم لمبادئ الرماية وفنون الحرب، فإن باقي الميردين لم يكونوا يقصدون الزاوية رغبة في أخذ الأوراد بقدر ما كانوا يقصدونها للتبرك والتماس الدعاء⁵. ولعل هذا ما جعل كتب التراجم والمناقب التي تناولت علاقة الشيخ بمريديه تكاد تكون خالية من الأسانيد الصوفية ومن أي نقاش لعقيدة التصوف ومذاهبه معوضة ذلك بالتأكيد على بركة الشيخ وكراماته المتعددة. يؤدي بنا هذا إلى إبداء ملاحظات تكميلية لما سبق ذكره.

- الملاحظة الأولى:

اعتماد الزاوية السملالية، على عهد الشيخ احماد أموسى، اعتماداً واضحاً على قبيلتين أولاهما: قبيلة مجاط الأمازيغية التي تمتد أراضيها غير بعيد عن زاوية الشيخ بتازروالت، وثانيهما قبيلة أحمر المعقلية التي انتقلت بفعل ظروف سياسية إلى منطقة الحوز ويمثل هذا الامتزاج بين الولاء الأمازيغي والولاء العربي لزاوية تقع في قلب سوس، صورة مصغرة للمجال القبلي للزاوية الذي هو مجال التقاء للرحل والمستقرين من جهة وللعرب والأمازيغ من جهة ثانية.

- الملاحظة الثانية:

¹ - تحدثت بعض الروايات عن زواج الشيخ من بعقيلة في حين أشار البعقلي في مناقبه إلى تزويج الشيخ احماد أموسى لإحدى بناته من الفقيه يحيى بن إبراهيم البعقلي، توطيداً للعلاقة بينهما. انظر محمد البعقلي، مناقب، ص. 8.

² - Pascon, *la Maison d'Iligh*, op.cit, p. 157.

³ - السكيبي، تقييد، ص. 1.

⁴ - وقد وقفنا على بعض هذه الهبات في "ديوان البيوعات" لبودميعة، راجع: الفصل 2، ص. 95.

⁵ - الثمارتي، الفوائد، ص. 75.

وهي لا تعدو أن تكون نتيجة مباشرة للملاحظة الأولى نصيغها على شكل السؤال التالي: لماذا سعى الشيخ احمد أوموسى إلى نقل تجربته الحربية إلى أحمر، رغم أنها تعد أبعد قبيلة عن الإشعاع الروحي للزاوية، عوض تلقينها لمجاط التي أظهرت منذ البداية خضوعا تاما للشيخ؟.

وعموما يبقى المجال القبلي للزاوية السملالية، على عهد الشيخ المؤسس، ممتدا ليشمل جهات متعددة من سوس والصحراء. فلائحة المريدين التي تعد نموذجا مصغرا لآلاف الوافدين على الزاوية، تشمل العديد من القبائل يحيط بعضها بالزاوية: كناغلولو وإداككار ومجاط، ويمتد بعضها الآخر في بعض جهات الأطلس الصغير، غير بعيد عن تازروالت، كإداوبعقل، وإداوسملال، وإداوكسموك، في حين ينتسب باقي المريدين إلى عبدة وحاحة وتمنارت وأقا ودرعة وسجلماسة وفكيك، وولاتة. وبذلك يكون للزاوية السملالية إطار محلي يضم القبائل التابعة مباشرة للزاوية، نجد على رأسها مجاط التي عملت على نسج روابط الولاء والتبعية للشيخ، ثم إطار أوسع يشمل اتحادية قوية هي اتحادية إداولتيت التي بسطت نفوذها في كل الجهة الجنوبية الغربية من الأطلس الصغير، فإطار ثالث عام سمح للزاوية بخوض المغامرة التاريخية، والدخول في علاقة مباشرة مع السلطة السعدية الناشئة. وقد ساهمت القبائل العربية في تسطير بعض معالم هذا الإطار الثالث.

الفصل الرابع

علاقة الزاوية السملالية

بالمخزن السعدي

لوقوف على موقف الزوايا من المخزن السعودي نستعين ببعض الروايات التاريخية التي على اختلافها وتضاربها تقدم صوراً متداخلة عن ممارسة الأولياء للتحكيم، وإقبالهم المستمر على فض النزاعات القبلية من خلال اعتبار زواياهم وأضرحتهم أماكن فوق العادة تسمح بممارسة الأنشطة الدينية والدنيوية دون خوف أو قتال. لكن إذا كان الحال دائماً كذلك، فلماذا نجد مواقف المخزن من الأولياء متذبذبة؟

I. الزوايا والمخزن السعودي - نظرة عامة-

باستقراء المصادر التاريخية السعودية¹، يتبين لنا أن الأهمية الاجتماعية والدينية وكذا الاقتصادية التي كانت لأولياء وشيوخ القرن 16م، كانت سبباً مباشراً لجعل السلطة السياسية السعودية تنظر إليهم بكثير من الحيطة والحذر، لهذا نجد أنها تقرب بعضهم بعد امتحانهم² وتغلق أبواب زوايا أخرى حين استفحال أمر شيوخها³، وتلجأ في أحيان أخرى إلى تصفيتهم جسدياً⁴. وإذا ما قصرنا اهتمامنا على منطقة سوس سنجد أنها تمنحنا، بدورها، صوراً متنوعة عن مواقف الزوايا من السلطة السعودية، أجملها التمارني فيما يلي: "سمعنا ممن أدركناه أن سلطان وقته (محمد الشيخ) كان يقول: سيدي عبد الرحمان (بن موسى) يخاف الله ولا يخافنا وسيدي محمد بن ابراهيم يخاف الله ويخافنا"⁵ ويسجل هذا اطمئنان السلطة السعودية إلى بعض هؤلاء المتصوفة، واحتياطها التام من الآخرين. وقد ترجم البعض منهم موقفه من السلطة إلى أفعال وممارسات أدت إلى إغلاق زاويته، كزاوية سعيد بن عبد المنعم، في حين أظهر البعض الآخر خضوعاً تاماً⁶، مساهماً بذلك في الدفع بعجلة السلطة الناشئة نحو التثبيت والاستقرار. وإذا كنا نورد هنا، كمثال، زاوية سعيد بن عبد المنعم الحاحي التي أظهرت منذ البداية منافسة كبيرة للسلطة السعودية في الجنوب، فإننا نسعى من وراء ذلك إلى الوقوف على موقف الزوايا المعاصرة من هذا الحدث. فالكتابات التاريخية وإن عملت على تسطير الدور الكبير الذي كان للطريقة الجزولية واتباعها المنبثين في كل الأنحاء في الدعوة للدولة السعودية الناشئة⁷، فإنها لم تخف بعض الاختلافات الجوهرية في المواقف، ومن ذلك اختلاف الآراء حول زاوية سعيد بن عبد المنعم المغلقة بأمر من المخزن السعودي، فبينما يصر أحمد بن عبد الرحمان التزركيني، في رسالة مطولة بعث بها إلى الشيخ ابي عثمان سعيد بن عبد المنعم، على خطورة الوقوف في وجه السعوديين، ومحاولة منازعتهم الحكم⁸ نرى محمد أويقوب التاتلي يخالف أمر السلطان السعودي أحمد الأعرج، الذي "سمر دار (سعيد بن عبد المنعم)^(١) فتوعد من فتحها"⁹ إذ أسرع إلى حاحة وفتح زاوية الشيخ بها قائلاً: "نحن نهرب من الشريف إلى الله"¹⁰.

وإذا سلمنا، انطلاقاً مما سبق ذكره، بكون نشاط بعض أولياء القرن 16م قد تجاوز حدود المقدس ليصبح نشاطاً زمنياً، فإنه يمكننا تصور الولي في إطار هاته الدينامية التي تقوده من العزلة والسلم إلى ممارسة الأنشطة السياسية¹¹، ثم الوقوف في وجه الخصوم بدلاً من تقديمه في ذلك القالب الجاهز الذي يجعل منه مجرد حكم مسالم. ولهذا لن يكون عملنا مقتصرًا على تتبع

¹ - منها على سبيل المثال:

- ابن عسك، دوحة الناشر، ص. 102، 103، 104، 105.

- التمارني، الفوائد، ص. 65-66.

² - كما هو شأن الزاوية البوعمرية. انظر: جلاب، ظواهر سعودية، ص. 13-22.

³ - عمد محمد الشيخ السعودي سنة 958هـ/1551م إلى امتحان ارباب الزوايا والمتصدين للمشيخة خوفاً على ملكه منهم.

انظر: محمد المؤقت، الاستبصار في ذكر حوادث الاعصار، ضمن مجموعة المواقف العصرية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1349هـ، ص. 65.

⁴ - ابن عسك، دوحة الناشر، ص. 55.

⁵ - التمارني، الفوائد، ص. 66.

⁶ - ومن بين هؤلاء: الحسن بن عثمان التملي الذي اكتسب مكانة متميزة لدى الأمير أحمد الأعراج، فقد بعث إليه التمارني رسالة يطلب فيها: "المساعدة عند الأمير الأعرج ليعفيه من خطة القضاء". كما أن أبا بكر بن احمد التازولتي (أحد كتاب محمد الشيخ السعودي) ذكر اسمه ضمن رسالة وجهها الى محمد الشيخ مستشفعا به، ومما جاء في الرسالة: "إني يا سيدي ممن أخذ أولاً عن شيخكم العالم الرباني شيخ الجماعة سيدي الحسن بن عثمان (...). وتلك وسيلة أضعها بين يدي نجواي". انظر: السوسي، المعسول، ج 13، ص. 270، ج 7، ص. 288.

⁷ - ابن عسك، دوحة الناشر، ص. 97. الفاسي، ممتع الاسماع، ص. 38، 50، 59، 60.

⁸ - التزركيني، رسالته إلى أبي سعيد بن عبد المنعم، انظر: السوسي، المعسول، ج 13، ص. 272.

هذا مع العلم أن احمد بن عبد الرحمان التزركيني كان: "لا يهاب الأمراء كغيره، ولم يكن من أصحابه من يواجههم بما يواجههم به من الحق". ادفال، تقييد، ص. 2.

(.) أي أغلق زاويته.

⁹ - محمد او يعقوب التاتلي، مناقب، مخطوطة خزنة المختار السوسي بتزنييت، ص. 18.

¹⁰ - نفسه، نفس الصفحة.

¹¹ - حمودي، الانقسامية، ص. 51-52.

علاقة الشيخ احمد او موسى بالسلطة السعدية في إطارها السطحي، بل سنحاول رصد، قدر الإمكان، الفائدة التي جناها الطرفان من جراها.

II. علاقة الزاوية السملالية بالمخزن السعدي:

يكتنف علاقة الزاوية السملالية بالسلطة السعدية، على عهد الشيخ احمد أو موسى، الكثير من الغموض، فحتى برجعنا إلى الإستوغرافيا الرسمية¹، لا نجد من تحدث عن هذه العلاقة سوى الإفرائي². وقد اعتمد في ذلك على رسالة السلطان السعدي زيدان إلى الحاحي، والتي عالج خلالها بعض جوانب علاقة الأولياء، بعبد الله الغالب، فجاء ذكر الشيخ احمد أو موسى في هذا الإطار، باعتباره أبرز من عاصر السلطان السعدي³. انطلاقاً من هذا ظل ذكر الشيخ احمد أو موسى في المصادر اللاحقة⁴ مرتبطاً بذكر السلطان عبد الله الغالب، واجتهدت الروايات في تمطيط هذه العلاقة، إذ جعلت الشيخ يستقبل السلطان بتازروالت⁵، ثم قدمته وهو يزوره بمراكش⁶.

وإذا كانت علاقة الشيخ بثالث سلاطين السعديين قد أخذت حيزاً، وإن كان متأخراً، من اهتمام الإخباريين، فإنه على العكس من ذلك، ظلت علاقته بمؤسسي الدولة السعدية خافتة جداً، فلا نجد لها صدى في الكتابات سواء منها المعاصرة كمناقب أدفال، والبعقلي، أو اللاحقة كالمؤلفات الغربية التي تناولت حياة الشيخ⁷. ثم إن البحث في أرشيفات الأسرة السملالية لم يعطينا أية إيضاحات حول العلاقة بين الزاوية السملالية والسلطة السعدية الناشئة⁸، مع العلم أن انتقال احمد او موسى إلى زاويته بتازروالت تزامن والتحركات الأولى للسعديين في المنطقة⁹. أما إذا عدنا إلى الروايات الشفوية فإنها لا تعير هذه المسألة أدنى أهمية إذ تستمر الذاكرة الشعبية المحلية في طمس بعض معالمها التاريخية، من خلال اتخاذها مكان التقاء السلطان السعدي، عبد الله الغالب، باحمد أو موسى مجالا لممارسة بعض الطقوس المعتادة في الموسم السنوي لتازروالت¹⁰. وهكذا يعتبر الدوماني، في حدود علمنا، المؤلف الوحيد الذي قدم بعض معالم علاقة احمد او موسى بالسلطان السعدي أحمد الأعرج¹¹، وإن جاء ذلك في خضم حديثه عن علاقة الشيخ امحمد ابراهيم التمارتي بالسلطان نفسه، في حين أشار التمارتي عرضاً إلى علاقة الشيخ احمد او موسى بالسلطان محمد الشيخ وزيارته له بتارودانت¹². ورغم قلة الإشارات التاريخية الكفيلة ببناء الصورة السياسية للزاوية السملالية، على عهد الشيخ المؤسس، فإننا سنحاول تتبع بعض مراحل تداخل وظيفتي الزاوية السملالية والمخزن السعدي من خلال تناولنا لبعض الأحداث التي قادت الشيخ احمد او موسى إلى ممارسة النشاط السياسي.

¹ - ونعني بذلك كتابات كل من:

- الفشتالي: *مناهل الصفا في مآثر مولينا الشرفا*.

- ابن القاضي، *المنتقى المقصور في مآثر الخليفة المنصور*، دراسة وتحقيق محمد رزوق، الرباط، مكتبة المعارف 1986.

² - الإفرائي، *نزهة الحادي*، ص. 47.

³ - نفسه، نفس الصفحة.

⁴ - ومن بينها: الفاسي، *ممتع الاسماع*، ص. 59-60. الناصري، *الاستقصاء*، ج 5، ص. 57.

⁵ - الفاسي، *ممتع الاسماع*، ص. 59-60.

⁶ - الإفرائي، *نزهة الحادي*، ص. 55.

⁷ - يعتبر دراك (Drague)، حسب علمنا، أول من أشار إلى الدور الذي لعبه الشيخ في الحد من التوترات القبلية وتحفيز الهمم لتعقب الأتراك الذين اغتالوا محمد الشيخ السعدي في 23 أكتوبر 1557م، إلا أنه لم يتحدث عن العلاقة المحتملة بين الشيخ والسلطان.

- Drague, *Esquisse Historie*, op.cit, p. 63.

⁸ - تضم خزنة دار ايليغ بتازروالت العديد من المراسلات المخزنية التي تبودلت بين حفدة الشيخ احمد او موسى والسلطان العلويين، انظر:

- Pascon (P), et Ennaji (M), *le makhzen et le sous al-aqsa, les correspondances politique de la maison d'Illigh 1821-1894*, Paris, Casablanca Toubkal, 1988.

⁹ - يقول العروي في هذا الصدد، "يعود بناء زاوية تازروالت، التي اتخذت لأسباب جغرافية شكل امارة مستقلة، إلى فترة الاضطرابات التي تلت نهاية الدولة الوطاسية".

- Laroui, *les Origines*, op.cit, p. 137.

¹⁰ - ذكر لنا السيد المغاري، المكلف بخزنة الشيخ احمد او موسى بتازروالت، أن "مراكع سيدي حساين" الموجودة ضمن حرم الزاوية، والتي تمارس فيها بعض طقوس الزيارة، هي في الواقع مكان تاريخي شهد لقاء الشيخ بالسلطان عبد الله الغالب خلال الزيارة التي قام بها لتازروالت.

¹¹ - الدوماني، روضة التحقيق، نقلا عن: السوسي، *المعسول*، ج 7، ص. 141.

¹² - التمارتي، *الفوائد*، ص. 234.

1-1- إنتقال الشيخ احمد او موسى من السلمية الاجتماعية إلى ممارسة النشاط السياسي.

استطاعت الزاوية السملالية، في ظرف وجيز، أن تكتسب الآلاف من الأتباع وأن تحقق تراكما ماديا مهما، ففي أقل من نصف قرن من تأسيسها إتسع نفوذها ليصل الى مناطق بعيدة مثل درعة، وحاحة، وسجلاسة¹. وقد كانت الهدايا والزيارات التي تتوصل بها الزاوية مصدرا مهما من مصادر هذا التراكم. وهذا ما يمكن استخلاصه من تقييد أدفال الذي يشير إلى كون الزاوية قد استطاعت الحصول على مبالغ هامة من المال، جعلت المرحلة الثانية من حياة الزاوية " مرحلة فاضت فيها الأسباب"² وقد علق على ذلك بكون: " حكم الله في أهل الله في بدء أمرهم الفقر والذل، ثم الوجد والعز لحكمة في ذلك"³. لكن لا يهمننا، هنا، الوقوف على حجم التراكم المادي الذي حققته الزاوية بقدر ما تهمننا معرفة ما خوله لها ذلك التراكم من إنفتاح على محيط اقتصادي بموازاة المجال الروحي الصرف، والذي يمتد جنوبا ليلامس بلاد السودان ويحده غربا البحر المحيط ويصل شرقا إلى مكة والعراق⁴. وهو أمر جعل صيت الشيخ يتعدى الإطار الوطني لينفتح على إطار أوسع غذته سياحته التي جاب خلالها معظم أرجاء المعمور⁵. إلا أن استقرار الشيخ بزوايته بتازروالت، والذي تزامن والتحركات الأولى للسعديين بالمنطقة، كان له أثر واضح في دخوله ساحة الأحداث السياسية، وقد وجد في اهتمام السلطة السعدية به، واستشارتها المستمرة له ما يناسب المكانة التي تحققت له في الجنوب الغربي. كما تفتن الشيخ إلى أن "القطبانية الصوفية" تسمو به فوق الرتب السياسية وهذه إستراتيجية سياسة في حد ذاتها جعلته يفوق من خلالها معاصره السلطان عبد الله الغالب نفسه، لذلك نجد الشيخ احمد او موسى يجيب من سأله عن من هو القطب بقوله: "هو أحمد، فقال له (السائل) ثم من؟ قال: سيدي احمد ابراهيم (التمنارتي) فقال له ثم من؟ قال الملك عبد الله"⁶ وهذه السلطة الروحية أعظم شأنًا لأنها تمتد في مجال أوسع، "فلو أراد الإبل لجاءت إليه من (بغداد) مثل النمل إلى موضعه بقصر تسلا"⁷ إلا أن هذه "القطبانية الصوفية" لا تجعل الشيخ احمد او موسى بعيدا عن الساحة السياسية مادامت التربية والتدريس والإطعام والإنفاق والحماية من أهم الوظائف الدينية والاجتماعية التي تشترك الزاوية في القيام بها مع المخزن، مما يجعل الحدود بين المقدس والدنيوي، بين مجال الزاوية ومجال المخزن، غير واضحة. ثم إن إعتناء الزاوية بالحفاظ على مصالحها الذاتية، وكذا مصالح أتباعها جعلها تخوض المغامرة السياسية لذا نجدها تتجاوز إطارها المحلي وتقفز على دورها كتجمع بشري، وكجال للوساطة، لتصبح قوة سياسية بدخولها في علاقة مباشرة مع السلطة عبر العديد من الروابط. ويمكننا تتبع مراحل تداخل وظيفة الزاوية السملالية ووظيفة المخزن السعدي، من خلال عرض مختلف الأطوار التي عرفتها علاقة الشيخ احمد او موسى بالسلطين السعديين.

1-2- علاقة الشيخ احمد او موسى بأحمد الأعرج (1514م-1540)⁸

تندرج علاقة الشيخ احمد او موسى بالسلطان أحمد الأعرج، حسب الدوماني في إطار حركة عامة لمتصوفة الجنوب من أجل تدعيم أسس الدولة الناشئة وتثبيت ركائزها⁹. لذا نجد الرواية، التي تحمل تفاصيل هذه العلاقة، غنية بأسماء صلحاء، آخرين كان لهم نفس الدور تقريبا وهم: الشيخ احمد ابراهيم التمنارتي، والشيخ محمد أو يعقوب التاتلي، وسعيد بن عبد المنعم الحاحي، والشيخ احمد او موسى¹⁰. وإذا كانت هذه الرواية تعرض، بالخصوص علاقة السلطان احمد الأعرج بالشيخ احمد ابراهيم التمنارتي، فإن دور الشيخ احمد او موسى لم يقل أهمية عن دور هذا الأخير، والرواية تشير في عمومها إلى الظروف التاريخية التي كانت وراء اللقاء الذي جمع بين شيوخ الفترة وأول سلاطين السعديين وهي تطابق زمنيا سنة 932هـ/1527م¹¹ التي سجلت اجتياح وباء الطاعون لكل المغرب، وقد اشتد هذا الوباء بمراكش، مما جعل السلطان احمد

¹ - راجع الجدول الخاص بالمريدين.

² - أدفال، تقييد، ص. 10.

³ - نفسه، نفس الصفحة.

⁴ - نفسه، ص. 3.

⁵ - راجع ما قلناه في سياحته.

⁶ - التمنارتي، الفوائد، ص. 64.

⁷ - السكيتي، تقييد، ص. 2.

⁸ - أنظر ترجمته في: محمد حجي، مادة "أحمد الأعرج"، معلمة المغرب، ص. 159.

⁹ - تناقل العديد من الباحثين رواية الدوماني، معتقدين أن الأمر يتعلق بأحمد المنصور الذهبي، وقد اعطت الباحثة موني (Meunie) لهذه الرواية ابعاد اساسية واقتصادية، إذ اعتقدت أن عملية احياء تامدولت، التي قام بها احمد كانت تهدف الى ضرب قوة تازروالت.

- Meunie, Greniers Citadelles, t 1, op.cit, p. 218.

¹⁰ - ضمن الرواية اسما متصوفة اخرين لم يتمكن من الوقوف على ترجمتهم سواء لدى التمنارتي او الحضيكي ومن هؤلاء: ابراهيم بن عبد الوافي المرقوشي.

¹¹ - وهي السنة التي شهدت حسب الدوماني لقاء أحمد الأعرج بمتصوفة الجنوب المغربي.

الأعرج يغادر المدينة متجها نحو مكان أقل تضررا وأكثر أمنا هو منطقة أقا¹. وقد ارتبط انتقاله إلى هذا المكان، حسب البعض²، بالحاجة الملحة إلى مداخيل جديدة تضمن للدولة الناشئة الاستمرار في الحروب التي كانت تخوضها على واجهتين، ساحلية ضد البرتغاليين وداخلية ضد الوطاسيين، فاهتم أحمد الأعرج بإحياء مدينة تامدولت، من خلال إحياء مناجم النحاس بها³، وعمل بالخصوص على استخراج معدن النحاس من بعض الجبال المشرفة على وادي تامزرارت، وذلك بتوجيه من أحد متصوفة المنطقة هو الشيخ ابراهيم بن عبد الوافي بن علي المرقوشي. ويفسر إهتمام أحمد الأعرج بمادة النحاس بكون المادة أساسية في التجارة مع افريقيا السوداء، فهي مادة مطلوبة بكثرة في السودان الغربي وتبادل محليا بالذهب⁴. إلا أن عملية إحياء مجد تامدولت وإشعاعها الاقتصادي اصطدم بتحركات القبائل المعقلية وغيرها في الجنوب الغربي، ولقد رأينا سابقا بعض حيثيات هذه الحركة⁵، إلا أن ما يهمنا، الآن هو الوقوف على الدور السلبي الذي كان لهؤلاء إزاء السلطة السعدية. فمع بدء عملية استخراج المعادن بدأت "القبائل العربية والشلمية تتقاطر بجموع كثيرة، فحالفوا السلطان"⁶ ولما فشل في رد هذه الجموع، نظرا لقلّة جيوشه⁷ استعان بالسلطة الفعلية المحلية والمتمثلة في المتصوفة، فكان اللجوء إلى الشيخ محمد ابراهيم التمارتي لوقوع زاويته على بعد يوم واحد فقط من أقا، ولذويوع صيته بين هذه القبائل الثائرة. وقد كان لتدخله أثر ملحوظ في إضفاء نوع من المشروعية على تصرفات السلطان السعدي، إذ سارع، أولا، إلى كتابة رسالة إلى السلطان يدعوه فيها إلى الصبر ويذكره أن "لكل ملك مطيعا وعاصيا"⁸، والرسالة، إلى هذا، تصور الولاء التام للسلطان والسعي إلى إرضائه: "سنأتيك إن شاء الله بما يرضيك ويسرك بحول الله وقوته، فلا تجزع ولا تخف من غير الله سبحانه، والسلام"⁹. ثم جاءه، بعد ذلك إلى أقا وخاطب الناس من أعلى المسجد قائلا: "أيها المؤمنون من العرب والعجم إن الله أمركم بطاعة أمراءكم فإنهم خلفاء الله في أرضه، فمن عصى مولاي احمد منكم، فالله حسيبه ومنتمم منه، ألا فاسمعوا وأطيعوا خليفة الله أمير المؤمنين وعليكم بامتثال أوامره"¹⁰. إلا أن موقف الشيخ محمد ابراهيم لم يكن وحده كفيلا بضمان السلامة للسلطان وجيشه بل كان لابد من تدخل الشيخ احمد أم موسى إذ "انصرف السلطان وفي يمينه الشيخ وعن يساره الشيخ احمد أم موسى فسارا معه ساعة فقالا له نحن معك فلا تخف عربا ولا عجماء بعد اليوم ما دمت"¹¹. وقد كان لتدخلها دور في نقل مجموعة من القبائل لتقوية صفوف الدولة الناشئة في الشمال، إذ رجع أحمد الأعرج إلى مراكش ومعه من القبائل: "شكنة وحربيل وأمبريض وسلام والأدارسة والعرب الكثيرون من المعافرة والسباعيين وغيرهم، وعمر الغرب بالقبائل السوسية"¹² لذلك نجد الآن عناصر من شكنة في السهول الغربية لشيشاوة، وأيت حربيل شمال تانسيفت، وأولاد بوسباع بين إمي تنانوت وشيشاوة¹³. وبهذا يكون الأولياء السوسيون قد شكلوا عنصرا متميزا ضمن ثلاث سببهم السلطان، الولي، والقبائل. وإذا كان البعض يرى أن مثل هذا العمل يندرج في ما عرف عن الشيوخ والأولياء من نزوع نحو ربط الصلة بين السلطان والرعية، والقيام بدور الحكم المصلح لذات البين بين العناصر المتنازعة¹⁴، فإن ما يبدو لنا جليا هو السلطة القوية التي كانت لصلحاء سوس، في بداية القرن 16م والتي خولت لهم إخضاع القبائل الثائرة على المخزن السعدي. وبذلك يتعد تدخلهم عن الوساطة الحميمة التي تكشف عن رغبات كل عنصر على حدة.

3-1 علاقته بمحمد الشيخ السعدي

غاب أحمد الأعرج عن ساحة الأحداث السياسية بسوس وذلك لاستئثار أخيه بحكم هذه المنطقة¹⁵، إذ شهدت سنة 1542م اقتسام الأراضي السعدية بين الأخوين المتنازعين، فكانت تافيلالت وكورارة وتادلا ومراكش من نصيب أحمد في حين

¹- Rosenberger, «Famines», op.cit, p. 141.

²-Ibid, p. 141.

³- الدوماني، روضة التحقيق، ص. 35.

⁴- الوزان، وصف افريقيا، ج 2، ص 117.

⁵- أنظر الفصل الخاص بعلاقة الزاوية السملالية بالقبائل.

⁶- الدوماني، روضة التحقيق، ص. 41.

⁷- نفسه، نفس الصفحة.

⁸- نفسه، نفس الصفحة.

⁹- نفسه، نفس الصفحة.

¹⁰- نفسه، ص. 42.

¹¹- نفسه، نفس الصفحة.

¹²- نفسه، نفس الصفحة.

¹³- Rosenberger, «Famines», op.cit, pp. 141-142.

¹⁴- عبد اللطيف الشاذلي، الحركة العياشية، حلقة من تاريخ المغرب في القرن 17م، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1982، ص. 72.

¹⁵- ابو القاسم الزياتي، الترجمان المغربي، ص. 345.

أكتفى محمد الشيخ بمنطقتي سوس ودرعة¹. وترتب عن هذا استقطاب السلطان الجديد لكل السلطة المحلية، واستغلال نفوذها من أجل إنجاز مشاريعه في المنطقة². لذلك نرى أن علاقة الشيخ احمد اموسى بالسلطان الجديد لن تحيد عن الخط الذي سطرته علاقته بأحمد الأعرج. فإذا كانت تلك العلاقة قد برزت في إطار توجه هذا الأخير نحو إحياء تامدولت، وفتح الطريق من جديد أمام تجارة الصحراء لتساهم بقسط وافر في الدفع بعجلة الاقتصاد السعودي، وسد الحاجيات الملحة التي ترتبت عن توالي الحروب والمجاعات والأوبئة في بداية القرن 16م³، فإن علاقة الشيخ احمد اموسى بمحمد الشيخ، كما يبدو، تدخل في نفس الإطار، رغم سكوت مصادر الفترة⁴ عن أسباب الزيارة التي قام بها للسلطان بعاصمته الأولى تارودانت، وكذا عن تاريخ هذه الزيارة، فظروف الفترة تجعلنا أمام احتمالين: إما أن تكون زيارته، هذه، إثر امتحان محمد الشيخ لأرباب الزوايا والمتصدرين للمشيخة وذلك عام 958هـ/1551م⁵، إلا أن حثيات الزيارة تؤكد أن للشيخ احمد اموسى دالة على السلطان فقد أنزله "دار الامارة بتارودانت فأناه الناس يزورونه ووفق خديمه الرجل الصالح صاحب شرطته الأمير زكرياء ابن الغازي يزود الناس عنه"⁶، أو أن تدخل الزيارة في إطار اهتمام محمد الشيخ بتجارة الصحراء⁷ مما يستلزم تكثيف الجهود للتعبئة العامة التي ستخول ضمان الأمن والاستقرار الضروريين لنجاح العمليات التجارية عبر الطريق الغربي. وتبقى هذه مجرد افتراضات، تزيد من صعوبة الجزم فيها قلة المادة التاريخية، فإذا كان التمارني قد تحدث عن زيارته له بتارودانت، فإن الروايات لم تضيف إلى ذلك شيئاً، بل اعتقد الإفرائي أن السلطان المزور هو عبد الله الغالب وليس محمد الشيخ، وجعل ذلك في مراكش⁸. ومع كل هذا، فلا يمكننا تجاهل المواقف السياسية المتميزة للشيخ احمد اموسى والتي عبر عنها خلال زيارته للسلطان بتارودانت، إذ عارض صاحب الشرطة الذي كان ينظم الوافدين على الشيخ بقوله: "لا تقل ذلك (أي من زار خرج)، بل قل من جار خرج"⁹ ثم نجده حسب بعض الباحثين، يدعو الناس إلى الثورة على الأتراك الذين اغتالوا محمد الشيخ في 23 أكتوبر 1557م، وكانت هذه الدعوة حافزاً لمعاداة الأتراك وتعقبهم وقتل العديد منهم¹⁰. وإذا أخذنا بعين الاعتبار الظرفية التي قتل فيها محمد الشيخ، والمتمثلة في الحملة التي قادها لإخضاع القبائل الثائرة¹¹، نرى أن تدخل احمد اموسى، حتى بعد وفاة محمد الشيخ، كان يتوخى على ما يبدو، التخفيف من حدة التوترات القبلية وتوجيه النظر نحو المسألة التركية، وكذا التركيز على الخطورة التي أصبح الأتراك العثمانيون يمثلونها، ليس فقط في المنطقة الحدودية، بل وحتى في أبعد المناطق واقصاها وهي سوس، حيث امتدت يدهم لقتل السلطان السعودي وحمل رأسه إلى إسطنبول¹². ولعل التحركات التي قام بها الشيخ احمد اموسى لصالح السلطة السعودية بالمنطقة كفيلاً بتدعيم موقفه لدى ثالث سلاطين السعوديين. فما هي إذن حثيات العلاقة بين الزاوية السملالية والسلطة السعودية في مرحلتها الجديدة؟ ثم هل التزمت العلاقة بإطارها السوسي الذي ظل يميزها على عهد السلاطين الأوائل؟ أم أنها تكيفت مع الظروف العامة للدولة السعودية التي مر الآن أزيد من ربع قرن على تأسيسها؟

2. علاقة الشيخ احمد اموسى بعبد الله الغالب (1558م - 1574م)¹³ قراءة في علاقة المتصوف بالسلطان:

¹- Le Tourneau (R), *les Débuts de la Dynastie Saadienne Jusqu'à la Mort du Sultan M'hammed ech-cheikh (1557)*, Institut d'Études Supérieures Islamiques d'Alger, 1954, p. 45.

²- بخصوص هذه المشاريع راجع:

- Berthier (P), *les Anciennes Sucrieries du Maroc et leurs Réseaux hydrauliques*, Rabat, 1966, TI, p. 248.

- Celerier (J), «*le Maroc, Pays du Sucre et de l'Or*», in *France-maroc*, septième année N° 79, juin 1923, pp. 113-115.

- Mauny (R), «*L'expédition Marocaine d'Oudane (Mauritanie) vers 1543-1544*», in *bulletin de l'Institut Français d'Afrique noire*, 1949, p. 129.

³- ZaKari (D. I), *l'Afrique Noire dans Les Relations Internationales au XVI siècle*, Karthala, 1982, p. 105.

⁴- أشار التمارني الى زيارة الشيخ لمحمد الشيخ السعودي ضمن رسالة موجهة الى بودميعة حاكم ايليغ يدعو فيها الى الحد من ظلم ولايته بمدينة تارودانت. انظر: "التمارني، الفوائد، ص. 234.

⁵- المؤقت، الاستبصار في ذكر حوادث الاعصار، ص. 65.

⁶- التمارني، الفوائد، ص. 234.

⁷- للوقوف على علاقة محمد الشيخ بتجارة الصحراء، راجع:

- Meunie, «*l'Expédition Marocaine*», op.cit, p. 129.

⁸- الإفرائي، نزهة الحادي، ص. 55.

⁹- التمارني، الفوائد، ص. 234.

¹⁰- Drague, *Esquisse d'Histoire*, op.cit, p. 63.

¹¹- الناصري، الاستقصا، ج 5، ص. 20.

¹²- كرخال، أفريقيا، ج 2، ص. 31.

¹³- إهتمت أغلب الدراسات المعاصرة بالحديث عن علاقة الشيخ اموسى بعبد الله الغالب لكونها تجسد جانباً مهماً من علاقة متصوفة النصف الأول من القرن XVIم بالسلطة السعودية، وإذا كانت هذه الدراسات قد قدمت صوراً متكاملة عن هذه العلاقة، فإن مصدر معلوماتها لم يكن يتجاوز النصف الأول من القرن 18م، اعتماداً على روايتي الإفرائي، نزهة الحادي، ص. 47-55.

الفاسي، ممتع الأسماع، ص. 59-60. ومن بين هذه الدراسات:

- المازوني، آل امغار في تيط، ص. 215.

- Pascon, *la Maison d'Iligh*, op.cit, p. 156. Le chatelier, tribus du sud, op.cit, p. 36.

رغم حديث البعض¹ عن دور الشيخ احمد أموسى في تحريك الهمم وتوجيه الأنظار نحو الخطر التركي، مما سهل دعامة لدى السلطة الجديدة، فإن بعض المصادر التي تناولت علاقة الشيخ احمد أموسى بالسلطان السعدي عبد الله الغالب، تجاوزت كل الظروف المعروضة سابقا، لتضع لنا تفاصيل الخيوط الأولى لنشوء هذه العلاقة. وكانت أولى مراحلها، حسب الفاسي هي الحاجة الملحة إلى اتخاذ ولي يضمن للسلطان الجديد الاستمرار في الحكم، ويضع حدا للأخطار التي تهدد ملكه²، ولتحقيق هذه الرغبة كلف عبد الله الغالب، أبا عبد الله محمد بن يوسف الترغي³ بالقيام بهذه المهمة. وأما البعقلي فيعرض الأمور بشكل مغاير إذ يقول: "ذكر لي شيخنا المحقق المتفنن سيدي محمد بن يوسف الترغي مشافهة أنه كان يتمنى أن يرى وليا من أولياء الله في قيد الحياة بسمته ونعمته، قال: فطال علي الزمان ولم أظفر به في مدينة (مراكش) ولا في غيرها، حتى قدر الله تعالى رحلتي إلى زيارة سيدي عبد الرحمان بن علي في بلاد (جزولة)"⁴. نلاحظ، إذن، أن البحث عن الشيخ، حسب رواية البعقلي، كان نابعا من رغبة شخصية من محمد الترغي، وليس بتكليف من السلطان عبد الله الغالب، ثم إن الشيخ الذي وقع عليه الاختيار هو عبد الرحمان بن علي الحامدي⁵ وليس احمد أموسى لذا تضعنا روايتنا البعقلي والفاسي أمام احتمالين: إما أن تكون حادثة البحث عن الولي مقترنة، فعلا، برغبة الترغي وتكون بذلك رواية البعقلي منتهية عند هذا الحد، أو تكون الروايتان مكملتين لبعضهما البعض، بحيث يكون اختيار محمد الترغي لعبد الرحمان الحامدي نابعا ومن قناعة صوفية، في حين يبقى تعيينه للشيخ احمد أموسى رهينا بظروف موضوعية⁶، ونستشف ذلك من خلال الحوار الذي سجلته رواية الفاسي، فقد ذكر كل من رأى من المشايخ إلى أن أتى على ذكر الشيخ احمد أموسى فقال: "هو ولي ثم ولي سبعا"⁷. فقال له عبد الله الغالب: "كأنك تدلني عليه وأنه مطلوبي والمقدم على غيره"⁸، فكان جواب الترغي: "لا أدلك عليه ولا عندي ما أعرف به تقديمه إلا أن هذا الذي ظهر لي"⁹ وبالتالي فالترغي لم يحسم في أسبقية وتميز الشيخ احمد أموسى عن غيره في شيء ظاهر، ولكنه إختار للسلطان باعتباره الأنسب له.

افتتاحا لهذه العلاقة، قام السلطان عبد الله الغالب بزيارة للشيخ احمد أموسى بتازروالت، ورغم أننا نؤمن بأن انتقال السلطان وحاشيته إلى أقاصي سوس والحلول بزواية الشيخ يدخل، حتما ضمن مخططات سياسية¹⁰ فإننا نظل عاجزين عن الوقوف بالضبط على الظروف التي عجلت بهذه الزيارة، خصوصا وأن المصادر لا تفصح عن تاريخها¹¹. أما عن أهدافها فتتخلص في أمرين: اتخاذ الشيخ وسيلة إلى الله¹²، وتمهيد الملك للسلطان من خلال ضمان ولاء كل قبائل سوس والجنوب¹³. ولن تبقى علاقة الشيخ احمد أموسى بالسلطان السعدي عند هذا الإطار المحلي بل سيجدان في التهديد التركي والبرتغالي عاملا مساعدا على نقلها إلى إطار أوسع يضمن للزواية السملالية الشهرة والتميز ويجعل من شيخها "مستشارا" خاصا للسلطان.

- كيف ذلك؟

¹- Drague, *Esquisse d'Histoire*, op.cit, p. 63.

²- الفاسي، *ممتع الأسماع*، ص ص. 60-61.

³- ورد في الفوائد أنه، "العالم الكبير الماهر في علم القرآن والتفسير أبو عبد الله محمد بن يوسف الترغي الفاسي مولدا المراكشي دارا، تشد إليه الرحال لأخذ علوم القرآن من سائر آفاق المغرب وزاحمته الركب طول عمره في نيل ذلك المطلب عنه (...) إلى أن مات بست وألف بمراكش". التمنارتي، *الفوائد*، ص. 29.

⁴- البعقلي، *مناقب*، ص. 29.

⁵- انظر ترجمته في: التمنارتي، *الفوائد*، ص. 35.

⁶- معلوم أن منطقة سوس كانت خلال القرن 16 م زاخرة بالمتصوفة اتباع الطريقة الجزولية -التباعية- لكن استقطاب الشيخ احمد أموسى للاهتمام، و اعتباره شيخ سوس الكبير، كان يستجيب للظرفية العامة التي كانت تقتضي التسليح بأسس دينية-صوفية وكذا الانفتاح على متطلبات الوسط اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا، ونستطيع تتبع المكانة المتميزة للشيخ احمد أموسى من خلال مقارنتها بشيوخ معاصرين وشهادة محمد أويغوب كفيلا بذلك فهو يقول: "ليس في بلدنا من وراء سيدي سعيد إلا سيدي أحمد بن موسى، وذلك بعد موت سيدي سعيد بن عبد المنعم، أما فلان لبعض الأشياخ (..) فقد كان اليوم كثير التقوى، كثير الورع، لكن طريق سيدي احمد أفضل". أما الشيخ امحمد اوبراهيم التمنارتي فقد قال عنه: "إن أردتم الدنيا فهو لكم قبالتها، وإن طلبتم الأخرى فهو لكم قبالتها وإن طلبتم ربحكم فهو لكم قبالتها". وبذلك يكون الشيخ احمد أموسى قد فاق معاصريه من المتصوفة بتحقيقه للمريد متطلباته الدينية والدنيوية. أدفال، *تقييد*، ص. 3.

⁷- الفاسي، *ممتع الأسماع*، ص ص. 60-61.

⁸- نفسه، ص. 60.

⁹- نفسه، نفس الصفحة.

¹⁰- فقد سأل الشيخ احمد أموسى تمهيد الملك له واعتذر: "بأنه لا يمكنه العيش بدون ولا يأمن على نفسه ولا تأويه أرض إن هو تخلى عنه". انظر: الفاسي، *ممتع الأسماع*، ص. 60.

¹¹- أشار الزياتي، نقلا عن صاحب المرأة، أن الملك عبد الله الغالب زار الشيخ احمد أموسى في حياة والده محمد الشيخ السعدي، سائلا إياه تمهيد الملك له. وهذا يتنافى والمثبت تاريخيا من أن عبد الله الغالب كان وليا للعهد، ولم تسجل المصادر التاريخية قط محاولته الثورة على أبيه أو الاستئثار بالحكم دونه. هذا وقد اقترح لوشاتولي (le chateleur) من جهته سنة 1560م كأنسب تاريخ للزيارة. انظر: الزياتي، *الترجمان المغرب*، ص. 349. Le Chatelier, *Tribus du Sud*, op.cit, p. 36

وقد نقبل بهذا التاريخ، خصوصا إذا علمنا أن عبد الله الغالب قد تولى الحكم عام 1557م وأن وفاة احمد أموسى كانت سنة 1564م، في حين ذكر الافراني أن السلطان قد بنى جامع الاشراف بصنعة الكيمياء، التي علمها له الشيخ احمد أموسى، وبما أن تاريخ البناء كان عام 1563م فإنه يمكننا وضع تاريخ الزيارة ما بين 1557م و1563م.

¹²- الفاسي، *ممتع الأسماع*، ص ص. 60-61.

¹³- ومن أجل تحقيق ذلك ردد الشيخ احمد أموسى النداء التالي: "يا عرب يا بربر، يا سهل يا جبل، أطيعوا السلطان مولاي عبد الله ولا تختلفوا عليه". الفاسي، *ممتع الأسماع*، ص. 60.

مرت علاقة الشيخ احمد أم موسى بالسلطان السعدي عبد الله الغالب عبر مراحل متعددة، رأينا أولها وهي المتمثلة في إخضاع القبائل السوسية لنفوذ السعديين وضمان ولائها المستمر لهم، وبعد أن استقرت الأوضاع في سوس واتخذت منحى يلائم متطلبات الدولة السعدية وجهت هذه الأخيرة اهتمامها نحو الضغوط الخارجية، فشكّل البرتغاليون والأتراك قطبي صراع تتأرجح بينهما كفة السعديين، وإذا كان عبد الله الغالب قد استطاع رد خطر الأتراك عن مدينة فاس بالخصوص¹، فإن ترددهم على بوغاز طنجة وسبتة² خلف تخوفاً جديداً من ازدياد نفوذهم في المنطقة، لذلك نجده يلجأ إلى مهادنة بعض القوى الأجنبية الأخرى لتركيز اهتمامه على محاربة المد التركي³، لكن سياسته هذه عارضها بعض المتصوفة واستفحلت المعارضة بعقده لمعاهدة تقضي بتسليم القصر الصغير للفرنسيين عام 1559م⁴، ورغبة من عبد الله الغالب في التقليل من حدة الضغوط الداخلية الناتجة عن سياسته الخارجية سعى مجدداً إلى إحياء الصلة بالمتصوفة الجزوليين ذوي النفوذ الكبير في كل المغرب السعدي. لكن الحركة الصوفية، في بداية القرن 16م، لم تكن تعمل لصالح السعديين فحسب بل كانت مسانداً أساسياً لكل القوى السياسية المتناحرة. ولقد تفتن كل من العثمانيين والسعديين إلى رسوخ هذه الحركة في مجتمعاتها مما جعلها يتسابقان نحو استمالة أرباب الزوايا والتصوف. وهكذا نجد سياسة العثمانيين ممثلة في استمالة مشايخ القادرية وجعلهم سندا يجاهون به الطريقة الشاذلية الجزولية، فيتحقق لهم النفوذ السياسي بالمغرب من خلال بسط الطريقة القادرية لنفوذها على باقي الطوائف الصوفية⁵، وسعى السعديون بدورهم إلى استمالة القادرية لتحقيق سياسة المعادلة بينهم وبين الشاذليين الجزوليين، وكذا إفشال المخطط العثماني⁶. وإذا كان البعض يعتقد أن اهتمام السعديين بالصوفية إنما كان حكراً على الجزوليين ضدًا على القادريين⁷، فإن لدينا من القرائن التاريخية ما ينفي ذلك. إذ لاحظنا نوعاً من التقارب بين الطريقتين، خاصة عند أقرب المتصوفة للسلطة السعدية وأكثرهم التصاقاً، ونعني بذلك الشيخ احمد أم موسى فقد أثبتت زاويته بتازروالت شخصيتين مقربتين من الشيخ، كان لهما دور في نشر تعاليم الطريقة القادرية في المغرب وإحيائها به، والشخصيتان هما عبد الرزاق الدرعي، صاحب زاوية قادرية في "تمسلا بأفلاواسيف"⁸ والشيخ أدفال الدرعي الذي أخذ الطريقة عن شيخه "الاستاذ الكبير زين العابدين بن محمد بن محمد بن عبد الرحمان البكري الصديقي"⁹ وإذا كان عبد الله الغالب قد وجد في الشيخ احمد أم موسى معيناً على نشر التآلف بين أتباع الطريقتين¹⁰ وهو أمر ساهم، إلى حد ما في إفشال المخططات العثمانية، فإن حملاتهم العسكرية ظلت متواصلة "ففي سنة خمس وستين وتسعمائة، في جمادى الأولى منها، غزاه (أي عبد الله الغالب) حسن بن خير الدين باشا التركي صاحب تلمسان في جيش كثيف من الأتراك"¹¹. وركزت أبرز الحملات التركية على بوغاز طنجة وسبتة، مما أدى بالسلطان السعدي إلى الاستغاثة، مرة أخرى، بالصلحاء والمتصوفة¹². وإذا كان استنجاده بأولياء وأشرف سبتة والنواحي أمراً طبيعياً، لقبهم من المكان المهدد، فإن استشارته للشيخ احمد أم موسى في أقاصي سوس يفتح أمامنا باباً للتأويل. على أن النظر إلى الموضوع من زاوية البعد الجغرافي لن يفيدنا كثيراً في فهم كنه علاقة السعديين بالأتراك من جهة، وبالزاوية السملالية من جهة ثانية، فقد رأينا سابقاً كيف أن النفوذ التركي امتد إلى حدود تارودانت حيث اغتيل السلطان السعدي محمد الشيخ، كما وجدنا في بعض المصادر ما يشير إلى اهتمام العثمانيين بمنطقة سوس من خلال محاولة استمالة بعض شيوخها البارزين¹³، وهي أمور قد تفسر، إلى حد ما، استشارة عبد الله الغالب للشيخ احمد أم موسى، لكن هذه الاستشارة وإن لم تكن كفيلاً برد الخطر التركي عن الثغور الشمالية¹⁴، إذ اضطر عبد الله الغالب لايقاف

¹ - الافراني، نزهة الحادي، ص. 46.

² - الناصري، الاستقصاء، ج 5V، ص. 49.

³ - نفسه، ص ص. 54-55.

⁴ - Caillé, *la Représentation Diplomatique de la France au Maroc*, Apedone, Paris, 1951, p. 10.

⁵ - مصطفى بنعلة، مجموعة وافية بالرسائل السعدية: دراسة وتحقيق، رسالة جامعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ص. 75، هامش 55. عبد الله نجمي، "اللامتية"، مجلة تاريخ المغرب، العدد 1، الرباط، 1980، ص. 57.

⁶ - Cour (A.), *l'Établissement des Dynasties des Chérifs au Maroc 1509-1830*, Paris, 1904, p. 98.

⁷ - Druage, *Esquisse d'histoire*, op.cit, p. 64.

⁸ - السوسي، المعسول، ج 19، ص. 120.

⁹ - التمارتي، الفوائد، ص ص. 56-57.

¹⁰ - أي الطريقتين الجزولية نسبة إلى محمد بن سليمان الجزولي، والقادرية نسبة إلى عبد القادر الجيلاني.

¹¹ - الناصري، الاستقصاء، ج 5، ص. 39.

¹² - Michaux-Bellaire, *Essai sur l'Histoire*, op.cit, p. 149.

تحدث عن استعانة عبد الله الغالب بزاوية أولاد البقال الجزولية.

¹³ - يقول الدوماني في الفصل الخامس من كتابه روضة التحقيق: "دخل عليه (أي على الشيخ احمد أوبراهيم التمارتي) رجل بصاعين من الذهب والإبريز فقال له: هذا من الملك عبد الرحمان العثماني أهده إليك"، ورغم أننا نؤمن أنه ليس من بين الملوك العثمانيين من يحمل هذا الاسم، وأن الشيخ قد عاصر من السلاطين سليم وسليمان القانوني، فإن هذا لا ينفي كون العثمانيين قد ساهموا بوسائل متعددة في استمالة شيوخ التصوف المغربي.

¹⁴ - فرواية الفاسي التي نقلت لنا تفاصيل هذا الحدث تذهب إلى أن الشيخ لما وصله بريد السلطان قال: "يا ترك ارجعوا إلى بلادكم ويا مولاي عبد الله هناك الله في بلادك بالعافية". انظر: الفاسي، ممتع الاسماع، ص. 60-61.

الزحف التركي إلى التخلي عن حجر باديس للإسبان "فنتقطع بذلك مادة الترك عن المغرب، ولا يجدوا سبيلا إليه¹، فإنها مع ذلك تحمل أكثر من مغزى. فيمكننا النظر إليهما من زاويتين: تتم الأولى عن اطلاع الشيخ احمد أموموسى على أمور الحرب وتتبعه المتميز لمجريات الأحداث، مما جعله يتفطن إلى اختلاف موازين القوى بالمنطقة، فبعد الله الغالب اشتهر باهتمامه بتأسيس ما بيده وتحصينه بالعدد والعدة ولم "تطمح نفسه إلى الزيادة على ما ملك أبوه من قبله"² مما جعل سياسته الخارجية تقوم على الدفاع، مستغلا تعدد أطراف النزاع لمهادنة هذا الجانب على حساب الآخر، أما الأتراك فقد تزايد نفوذهم في المنطقة، واشتدت قوتهم خاصة بعد قتلهم لمحمد الشيخ السعدي، فكان بذلك خطرهم على دولة عبد الله الغالب يفوق باقي الأخطار المحذقة بها. ولعل هذا ما حدا بالشيخ احمد أموموسى إلى تنبيه السلطان إلى عواقب المواجهة مع الأتراك ناصحا إياه بأن يتركهم: "يذهبون إلى بلادهم ولا يتعقبهم ساعة"³. وموقفه هذا يعد دعوة صريحة إلى التزام سياسة الهدنة مع الأتراك وعدم خوض معارك قد تفقد المغرب السعدي هيئته وتجعله فريسة للقوى الخارجية.

أما النقطة الثانية التي تحيلنا عليها استشارة عبد الله الغالب للشيخ احمد أموموسى فيمكن فهم كنهها من خلال الوقوف على السياسة التركية في الصحراء. فقد سعى الأتراك العثمانيون، منذ احتلالهم للجزائر، إلى ضمان تدفق ذهب السودان إلى خزائهم. ولتحقيق ذلك عملوا، من خلال حملاتهم العسكرية على بعض الواحات الصحراوية، على تمهيد الطريق أمام تجار الصحراء لارتداد الطريق الشرقي الذي أصبح يعرف منافسة ملحوظة من قبل المحور الغربي، لذا يبدو أن استشارة احمد أموموسى تدخل في إطار وعي السلطان بأهمية موقع ترزوال، وكذا أهمية الدور الذي يقوم به الشيخ من أجل توفير الأمن والاستقرار لقوافل التجار⁴ الذين شكلت تجارتهم الركيزة الأساسية للاقتصاد السعدي. لكن اهتمام السعديين بتجارة الصحراء المتدفقة عبر المحور الغربي سيعرف منافسة خطيرة من قبل البرتغاليين الذين استطاعوا من جهتهم ربط علاقات تجارية مع المرافئ الرئيسية بالمنطقة، خاصة ميناء ماسة الموجود جنوب واد سوس⁵، وهذا ما جعل الحروب الجهادية السعدية ضد برتغالي أكادير تقوم على أساس تحويل الطرق التجارية، إلا أن الظروف الداخلية المتمثلة في الصراع ضد الوطاسيين أدت إلى تأجيل المشروع السعدي القائم على تحرير باقي الثغور الساحلية من السيطرة البرتغالية، مكثفين بذلك بتحرير سانت كروز عام 1541 م، وقد عمل البرتغاليون المنهزمون على السواحل السوسية على تجميع قوتهم في مراكز شمالية، فمع نهاية سنة 1514م تم التخلي عن كل من أزموور وآسفي وتمركزت كل القوة البرتغالية في البريجة التي حصنها بما فيه الكفاية⁷. وهكذا جهز السلطان عبد الله الغالب حملة عسكرية ضد البرتغاليين بهذه المدينة عام 969هـ/1562م: "استنفر لها قبائل الحوز (...). وعقد عليهم لابنه محمد المعروف بالمسلوخ"⁸، وكان حصار البريجة أيضا فرصة لجمع شتات المتصوفة الجزوليين واستغلال سلطتهم المحلية لحياء سنة الجهاد، لذلك وجدناه يستقطب أبرز شيوخ التصوف وهو امحمد أوبراهيم التمارتي⁹. وقد عقد العديد منهم آمالا على نجاح هذا الحصار، ولا أحد كان يظن: "أن يرجعوا من غير أخذها"¹⁰ إلا أن للشيخ احمد أموموسى رأيا مغايرا، فقد رآه أدفال يقول: "لا يأخذوها وإن كان فيه سيدي فلان (أي الشيخ امحمد أوبراهيم)"¹¹. واضعا لأخذها شروطا، لم يذكرها أدفال، وهو ما يكشف عن منظور أكثر واقعية وحكمة سياسية يميز بين موازين القوى المحلية¹².

ونخلص مما سبق ذكره، إلى اهتمام الشيخ احمد أموموسى بالأحداث السياسية العامة التي كانت تمس عن قرب سلطة السعديين، إلا أن علاقته بعبد الله الغالب عرفت تحولا ملحوظا، ربطه البعض بسياسة السلطان الخارجية التي أدت إلى تسليم حجر باديس للإسبان والتفكير في التنازل عن القصر الصغير للفرنسيين¹³، وقد زاد من تفاقم الوضع الحملة التي شنها السلطان ضد الشرفاء المغاربة. فقد كانت لعبد الله بن حسين المغاري مكانة متميزة في منطقة الحوز خولت له استقبال الكثير

¹ - الإفرائي، نزهة الحادي، ص. 29.

² - الناصري، الاستقصاء، ج 5، ص. 39.

³ - الزباني، الترجمات بالمغرب، ص. 349.

⁴ - من بين الأدوار الأولية التي قام بها الشيخ احمد أموموسى مساهمته في إخضاع القبائل لسلطة المخزن، وهذا في حد ذاته عامل مساعد على التقليل من حدة التوترات التي كانت تحدثها التحركات القبلية في الجنوب والتي ساهمت إلى حد كبير في عرقلة سير النشاط التجاري عبر المحور الغربي.

⁵ - le Tourneau (R), *les Débuts de la Dynastie*, op.cit, p. 9.

⁶ - Ibid, p. 43.

⁷ - Castries(H.de), *Chronique de Santa-Cruz du Cap de Gué (Agadir)*, texte portugais du XV le siècle, traduit et annoté par Pierre de cenival, Paris, 1934, p 18.

⁸ - الناصري، الاستقصاء، ج 5، ص. 42.

⁹ - ابن عسك، دوحة الناشر، ص. 112.

¹⁰ - أدفال، تقييد، ص. 14.

¹¹ - نفسه، نفس الصفحة.

¹² - يتفق هذا، على ما يبدو، مع ما أشرنا إليه سابقا من أن البرتغاليين قد ركزوا، بعد انهزامهم بأكادير عام 1541م، كل قوتهم بمنطقة البريجة، فكان: "تحصينهم لها بما فيه الكفاية". انظر:

الناصرى، الاستقصاء، ج 5، ص. 42.

¹³ - Drague, *Esquisse d'histoire*, op.cit, p. 64.

من المريدين والاتباع. ولما رأى السلطان عبد الله الغالب ذلك أرسل إليه قائلاً: "إما أن تخرج عني أو أخرج عنك"¹ فقال له الشيخ عبد الله ابن الحسين: "بل أنا أخرج"². فكان إغلاق دار الشيخ بمراكش وانتقاله إلى تامصلوحت. ويبدو أن الأمر لم يرق للشيخ احماد أموسى، باعتبار الصلات المتميزة التي تربطه بصلحاء زاوية تامصلوحت، فانتقل الشيخ إلى مراكش "برسم ملاقاته عبد الله بن الحسين"³. ومنحه بابا من الخشب كعربون على صدق المحبة ورغبة في نيل بركة الأشراف ويعتقد البعض أن نقل هذا الباب قد يكون دليلاً على منح الزاوية الحصانة والمناعة ضد تعسف السلطة السعدية⁴. وتتفق الروايات التي تحدثت عن زيارة الشيخ احماد أموسى لمراكش، على أنه لم يسع إلى زيارة السلطان بل "قدم إلى مراكش زائراً من بها من أهل الله"⁵ فطلب منه السلطان "أن يدخل داره هو وأصحابه ويصنع لهم طعاماً"⁶. إلا أن الشيخ رفض ذلك متعللاً بأن "من أكل طعام السلطان وهو حلال أظلم قبله أربعين يوماً ومن أكله وفيه شبهة مات قبله أربعين سنة"⁷. وقد يفسر هذا الموقف بتعفف الشيخ عن مال السلطان وزهده فيه، لكن بوضعه في إطار الظروف المعروضة سابقاً، نرى أن الأمر يتعلق، على ما يبدو، بمحاولة الضغط على السلطان للتراجع عن بعض مواقفه المستبدة إزاء الزوايا⁸.

تعددت، إذن، صور افتتاح الشيخ احماد أموسى على الأحداث السياسية التي عرفتها الدولة السعدية منذ فترة التأسيس وإلى غاية منتصف القرن 16م. وهو أمر جعل الزاوية السملالية تمثل في سوس نموذجاً للزاوية الموالية للمخزن السعدي، رغم التذبذبات التي عرفتها هذه العلاقة، والتي حاولنا تتبع بعض جوانبها انطلاقاً مما تسمح به مصادر الفترة، وبما أن زاوية الشيخ احماد أموسى سائرة في الخط السياسي للدولة السعدية منذ نشأتها، فإن الأمر يستدعي وجود قرائن مادية تسمح بالوقوف على مدى استفادتها من الأدوار التي قام بها الشيخ لفائدة المخزن السعدي بالمنطقة. وإذا كان قد حظي بزيارة السلطان لزاويته بتازروالت، واستقبال هذا الأخير له بتارودانت ومراكش، فإن الأمر يستدعي إلى جانب ذلك، وجود ظهائر سلطانية "لفائدة" الزاوية السملالية، خصوصاً وأنا نعلم مدى ما تحقق للزوايا الكبرى، على العهد السعدي، نتيجة مساندتها للدولة السعدية ضدًا على الدولة الوطاسية، فخرانات هذه الزوايا تضم، إلى الآن، ظهائر التوقير والاحترام والانعام من السعديين. كما كان العديد من الزوايا يسعى إلى الحصول عن الظهائر التي كانت السلطة المركزية تعفي عادةً بموجبها من بعض الضرائب والإتاوات التي تطالب بها سواد السكان⁹. وهكذا كانت الزاوية البوعمرية¹⁰ المعاصرة للزاوية السملالية في فترة التأسيس، تتلقى العديد من الظهائر منها على سبيل المثال: ظهير توقير واحترام صادر من عبد الله الغالب، كما تحدث صاحب روضة التحقيق عن "وصية عبد الله الغالب بالله بالشيخ محمد بن إبراهيم التمارتي"،¹¹ حاثاً أولاده على توقيره واحترامه. وتؤكد أرشيفات الأسرة الأدفالية بدرعة على وجود صلات مثينة بين السلطة السعدية والشيخ ادفال الدرعي إذ "يحتفظ الأدفاليون اليوم في قصرهم بظهير لعبد الله الغالب مؤرخ بأواخر رمضان عام 973هـ/أبريل 1566م يتضمن تعظيم الأسرة وتوقيرها"¹².

وهكذا فإن شيوع مسألة إصدار الظهائر، لفائدة بعض الزوايا وأرباب التصوف على العهد السعدي يجعل غيابها من أرشيفات الأسرة السملالية أمراً مثيراً للاستغراب إذ تشير كل الدلائل التاريخية إلى غياب الظهائر لفائدة الشيخ احماد أموسى والأمر لا يتعلق، على ما يبدو، بضياعها ولا بتعرضها للتلف عند هدم السلطان العلوي الرشيد لإبليغ في يوليو 1670م¹³، فقد استطاعت الأسرة السملالية الحفاظ على مكتسباتها المادية والمعنوية من خلال تسجيل الوثائق والرسوم والعقود والظهائر ضمن مجموعة من الكنائش والسجلات. وبرجوعنا إلى هذه الكنائش لاحظنا غياب الظهائر من بينها، لكننا

¹ - الناصري، الاستقصاء، ج 6، ص. 48.

² - نفسه، نفس الصفحة.

³ - الإفرائي، صفوة من انتشار، ص. 150.

⁴ - المازوني، آل امغار، ص. 215.

⁵ - الفاسي، ممتع الاسماع، ص. 60-61.

⁶ - نفسه، نفس الصفحات.

⁷ - نفسه، نفس الصفحات.

⁸ - هذا مع العلم أن السلطان زيدان بن أحمد المنصور الذهبي يرى أن ذلك لم يكن من شيم الشيخ احماد أموسى فقد كان "يقوم للشفاة ويشفع ولا يتعقب ولا يبحث عما وراء ذلك، باق على عهده ومودته". راجع: الإفرائي، نزهة الحادي، ص. 47.

⁹ - حمودي، الانقسامية، ص. 115.

¹⁰ - جلاب، ظهائر سعديّة، ص. 15.

¹¹ - الدوماني، روضة التحقيق، نقلاً عن: السوسي، المعسول، ج 7، ص. 43.

¹² - محمد حجي، مادة "أدفال"، معلمة المغرب، ج 1، ص. 284.

¹³ - Pascon (P), «La propriete Des terres et Des Eaux LA Maison d'Iligh, d'Après le polytyque de Ali bou Damia (Tazerwalt, 1640)», in la Maison d'Iligh, op.cit, p. 11.

صادفنا، بالمقابل، تقييدا يشير إلى تصدق السلطان السعدي عبد الله الغالب، " بجميع عناصر الثانية " بأزولو تكسلت " لفائدة المرابط محمد بن احمد او موسى، " صدقة صحيحة محبسة مؤيدة قاطعة قصد بذلك وجه الله العظيم والتواب"¹.

عرضنا من خلال ما سبق ذكره مختلف مراحل اتصال الشيخ احمد أموسى بالسلطة السعدية، انطلاقا مما تسمح به المصادر المتوافرة، ورأينا مدى إستجابة الشيخ لرغبات السلطان من خلال تسخير نفوذه المحلي وسط القبائل الثائرة وحملها على الخضوع، إلا أن تدخل الشيخ لتحقيق متطلبات السلطة المركزية كان يخضع لظروف محلية استوجبت استعمال القوة والحكمة السياسية، ونجمل مختلف مراحل تدخل الشيخ احمد أموسى إلى جانب السلطة السعدية في ثلاث مراحل أساسية:

أولا: مساهمته في إنجاح المشاريع التأسيسية التي اعتبرت من بين الركائز الاساسية لبناء القوة السعدية المنافسة للسلطة المرينية في الشمال، وهذه المشاريع هي:

(أ) إنعاش الطريق الصحراوي القديم من خلال إحياء تامدولت.

(ب) تقوية صفوف الدولة الناشئة، وذلك بجمل القبائل السوسية والصحراوية على الانخراط في الجيش السعدي. وقد برز دور الشيخ في هذه المرحلة في إطار حركة صوفية عامة هدفها تدعيم السلطة الجديدة التي ارتوت وإياه من نفس النبع الصوفي.

ثانيا: دخول الشيخ في مرحلة جديدة، فبعد المرحلة التمهيدية التي دامت أزيد من ربع قرن، انتقل من العمل الجماعي الموسوم بصيغة صوفية إلى القيام بمبادرة فردية حملته إلى قصر السلطان بتارودانت حيث حظي باستقبال خاص ساعد على الكشف عن مكانته المتميزة وسط محيط غير محيطه الوليتي. وقد خولت له زيارته لعاصمة السعديين الأولى إبداء ملاحظات حول الظلم المتفشي بين مستخدمي المخزن والحاشية السلطانية.

ثالثا: ساهمت الأوضاع القبلية واستفحال الخطر التركي في تكثيف المشاورات بين السلطان عبد الله الغالب والشيخ احمد أموسى، وبذلك يكون السلطان قد تفتن إلى الدور الإيجابي الذي قام به الشيخ داخل مجتمعه، إذ أنه حقق للسلطة السعدية ما قد لا تستطيع هذه الأخيرة تحقيقه من خلال فرضها لسلطة مباشرة على القبائل، ذلك أن المواجهة المباشرة بين المخزن والقبائل محفوفة بالمخاطر، كما أنها ستتحول إلى منافسة خطيرة للشيخ داخل مجله القبلي.

معلوم، إذن، أن الزاوية السملالية تدين بمكانتها هذه إلى أهمية موقعها ونفوذها وسط القبائل الثائرة وكذا علاقاتها المتميزة مع السلطة المركزية، فإلى أي حد ساهم انفتاحها على المحيط الاقتصادي المجاور لها في تدعيم مكانة الشيخ وتمييزه عن معاصريه؟.

¹ - سجل علي بودميعة الايليغي، ج 1، ص. 158.

الفصل الخامس

مظاهر انفتاح الزاوية السملالية التازروالتية على الصحراء وتجارتها

يبدو أن زوايا النصف الثاني من القرن 16م قد أصبحت منفتحة أكثر من السابق¹، على محيطها الاقتصادي والاجتماعي² ويقترن هذا الانفتاح ب بروز حركة صوفية استهدفت الحد من الأزمات الاقتصادية، وتحرير الثغور الساحلية من الاختناق الاقتصادي، والذي مارسه البرتغاليون منذ 1415م أي سنة احتلال سبتة. وإذا كان بعض هذه الزوايا قد أنشأ ما يمكن الاصطلاح عليه بالزاوية الفلاحية³ لاهتمامه المكثف بأمور الأرض والفلاحة، فإن زوايا أخرى، نظرا لوجودها في أماكن جافة لا تسمح بممارسة هذا النوع من النشاط، التزمت بمقتضيات محيطها الطبيعي، والاقتصادي لتشكل ما نسميه تجاوزا ب "الزاوية التجارية"⁴. ومن هذا نخلص إلى نقطة نعتبرها أساسية وهي عدم انفصال أرباب الزوايا والتصوف عن مقتضيات وسطهم القبلي وحاجياته العامة. وهو أمر يدعونا إلى محاولة التعمق في تجربة الزاوية السملالية، على عهد شيخها أحمد أوموسي، التي سنتتبع دورها في التجارة الصحراوية بمعزل عن معطين اثنين:

أولها: الرغبة في إيجاد قالب جاهز لزاوية تشترك والزوايا المذكورة آنفا، في الالتقاء إلى نفس المدرسة الصوفية، أو إلى نفس الظرف التاريخي، إذ أن هذا وحده لا يكفي لجعلنا نبنى تصنيف الزاوية السملالية ضمن إطار "الزوايا الفلاحية" أو في إطار "الزوايا التجارية" لذلك ستكون انطلاقتنا من معطيات خاصة بالزاوية السملالية، نحدد بمقتضاها أي نوع من الزوايا هي؟ وثانيها: الوقوع في شبك الإرث التاريخي للزاوية السملالية⁵ الذي يكاد يجب عنا أدوارها العامة على عهد الشيخ المؤسس، وإذا كنا إلى حد الآن قد استطعنا رغم الصعوبات الجمّة، الحديث عن بعض الأدوار التي قامت بها الزاوية السملالية، فإن تتبع دورها الريادي في تطوير التجارة الصحراوية يكتنفه الكثير من الغموض وتحكمه ظروف أساسية منها:

أولا: سكوت الكتابات التاريخية عن هذا النشاط وتقرير بعضه في إطار كرامات يمتزج فيها التاريخي بالأسطوري⁶. وثانيها: شهرة حفدة الشيخ احمد أوموسي خاصة في ميدان تجارة الصحراء⁷ التي أقصت كلية دور الشيخ المؤسس، وإن كان البعض يرى أن "بركة" الشيخ احمد أوموسي هي التي خولت لحفدته تحقيق تراكم مادي ملموس جعل الزاوية ترتقي في ظرف وجيز

¹ يشير الباحث إيكلمان إلى أن انتشار الزوايا في البوادي قد أحدث تغييرا جوهريا في طبيعة التصوف ذاته ولم تعد الزوايا مجرد مراكز متواضعة لنشر فهم معدل للتعاليم الإسلامية. راجع: إيكلمان، الإسلام في المغرب، ص. 38.

² راجع على سبيل المثال ما قلناه عن اهتمام الزاوية السملالية بمسألتي الإطعام والإنفاق، الفصل الثاني، ص. 90-96.

³ وفي هذا الصدد نقف عند ثلاث شخصيات جزولية لعب كل منها دورا متميزا داخل المجال الجغرافي الذي استقرت به، أولى هذه الشخصيات عبد الله الغزواني الذي اشتهر في منطقة الحوز بتسخير قدراته من أجل تنظيم سقي الأراضي الزراعية. وقد ورث عنه عبد الله بن حسين المصلوحي اهتمامه بالجانب الاقتصادي من حياة المريدين والأتباع، ولعل محاربته للجراد والحشرات التي تضر بالمحاصيل الزراعية أكبر مؤشر على سعي عبد الله بن الحسين إلى تزكية دوره داخل محيطه القبلي، ولم يكن اهتمامه المتصوفة الجزوليين عموما منصبا على السهول بل تعداها إلى نقل مشاريعهم الإصلاحية إلى الفجاج والمنخفضات الجبلية والأودية الوعرة، ويعد امحمد اوبراهيم التمارتي رائد المشاريع الكبرى، فقد أنجز العديد من السدود الجبلية الصغرى ومد الجسور والقناطير، فكان تشييده لقنطرة واد ولغاس، دليلا واضحا على اهتمامه بالحد من الأضرار الناجمة عن فيضان هذا الواد. راجع: السوسي، المعسول، ج 7، ص. 10.

⁴ لم نعتمد خلال وضعنا لهذا المصطلح على أي تصنيف تقني متعارف عليه وإنما وضعناه على منوال الزاوية الفلاحية التي يمكن تتبع عناصر نشوءها ومواصفاتها في عمل باسكون: - Pascon, le Haouz, TI, op.cit, p. 259, 262.

ومن بين الزوايا التي يمكن أن تخضع لهذا التصنيف زاوية القنادسة بمنطقة فكيك/ التي تشرف على مجاهل الصحراء والتي كانت قبل ظهور الشيخ محمد بن أبي زيان بها " مجرد قرية صحراوية نائية، يعيش أهلها فقرا مدقعا وحرمانا على جميع الأصعدة " لتعج بعد ذلك بالحركة وتتسع عمليات البيع والشراء بها بفضل " بركة الشيخ" وكذا لفضل مساهمته الفعلية فيها. فقد كان الشيخ محمد بن أبي زيان " إذ أحضرت الركبان الثلاث مائة أو الأربع مائة" يشتري القنطارين والثلاثة من الحناء ويقسمها للمريدين". راجع بخصوص هذه الزاوية: مرزاق، الشيخ محمد بن أبي زيان وزاويته، ص. 207-210.

وينطبق هذا التصنيف أيضا، على ما يبدو، على الزاوية الناصرية بدرعة والتي شكلت عائدات التجارة الصحراوية مداخيل هامة تستفيد منها الزاوية، مقابل حمايتها للقوافل التجارية. انظر: - Bodin, La Zaouia, op.cit, p280

كما شارك شيوخ الزاوية مباشرة، أحيانا في العمليات التجارية وأسهموا في تنشيط الطريق التجاري الرابط بين توات ودرعة. انظر: محمد بن عبد الله الخلفي، الدرّة الجليلية في مناقب الخليفة، دراسة وتحقيق أحمد عمالك، رسالة جامعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1986، ص. 48.

⁵ للوقوف على هذا الإرث انظر: السوسي، ايليج قديما وحديثا، ص. 312-42. Pascon, la Maison, op.cit, p. 9 à p. 111.

⁶ فعلى الرغم من أن العديد من كتب التراجم قد اهتم بشخصيات صوفية تنتمي إلى النصف الأول من ق XVI م إلا أن أغلبها أغفل الحديث بشيء من الوضوح عن الأدوار الاقتصادية للزوايا وأرباب التصوف معتبرين الغرض من التأليف ليس هو الوقوف على كل جوانب حياة المتصوف موضوع الترجمة بل هو عرض ما ينم عن زهده وتشفه في الأمور الدنيوية.

⁷ اهتم المختار السوسي بجمع المعلومات الكافية لتتبع الدور الريادي لحفدة الشيخ احمد أوموسي في تجارة الصحراء، المرجع السابق، ص. 312-42، إلا أن عمل باسكون (Pascon) في هذا المجال فاق من حيث الدقة ما جاء به السوسي، والفضل في ذلك يعود إلى حصوله على السجلات التجارية لدار البيع.

إلى إمارة مستقلة تفرض سيطرتها على كل السفوح الجنوبية من الأطلس الكبير وتافيلالت ودرعة ليصل نفوذها إلى بلاد السودان¹.

وللغوص في أعماق تجربة الزاوية السملالية، محاولة منا فهم كنه علاقتها بتجارة الصحراء، نستنير بالأسئلة التالية:

1- ما هي الظروف الاقتصادية التي أفرزت الزاوية السملالية؟

2- لماذا انفردت تازروالت، دون تكاوست، أو تمنارت أو تارودانت بزاوية الشيخ احمد أموسى؟

3- أين تكمن الأهمية الاقتصادية لتازروالت خلال القرن 16م؟

4- وهل كانت للزاوية السملالية مساهمة فعلية في تجارة الصحراء؟

وستكون محاولة جوابنا على هذه الأسئلة موازية لاستحضارنا للظرفية العامة التي عرفها مغرب القرن 16م، ومنها بالخصوص:

1- وضعية المحاور التجارية الرابطة بين المغرب والسودان الغربي.

2- ثم دور السلطة السعدية في ترجيح كفة هذا المحور على حساب الآخر.

3- الوجود البرتغالي والتركي، وتأثيره في تجارة الصحراء خلال هذا القرن، إيماننا منا بأن فهم التاريخ المحلي لا يتم بمعزل عن

أحداث عامة تجعل الرقعة المدروسة على ضيقها منفتحة على مجال أوسع قد يتجاوز الإطار الوطني لينخرط في إطار

علاقات ومواقف من بلدان وقوى مجاورة.

I. ظهور تازروالت على ساحة الأحداث خلال القرن 16م:

أشرنا حين حديثنا عن آليات تأسيس الزاوية السملالية أن إسم تازروالت ارتبط في التاريخ المحلي للجنوب المغربي بتأسيس زاوية الشيخ احمد أموسى بها. وبذلك يكون انتقال الشيخ من مسقط رأسه بومروان إلى تازروالت قد ساهم إلى حد بعيد في تسليط الضوء على هذه المنطقة. وتعرضنا لحديثات انتقال الشيخ احمد أموسى إلى بسيت تازروالت، والتي خضعت في عمومها لظروف الأزمة الاقتصادية التي عرفها مغرب بداية القرن 16م والتي سجلت رواية البعقلي بعض جوانبها،² يضعنا أمام سؤال أساسي هو:

أيها أسبق؟ هل الأهمية الإستراتيجية لتازروالت هي التي أكسبت الشيخ احمد أموسى، وكذا الأسرة السملالية في عمومها تلك المكانة المرموقة التي احتلتها الأسرة طيلة ثلاثة قرون، أي من القرن 16م إلى القرن 19م؟ أم أن المكانة الروحية للشيخ احمد أموسى هي التي خولت لتازروالت لعب دور الوسيط في تجارة الصحراء، وجعلتها بذلك تنافس مراكز أخرى مجاورة كتارودانت وتمنارت؟

¹ - Pascon, *la Maison*, op.cit, pp. 43-44.

² - البعقلي، المناقب، ص. 21.

لن يكون الجواب عن هذه الأسئلة سهلاً، خصوصاً وأنا نضع المكانة الروحية للشيخ في مقابل الأهمية الإستراتيجية للمنطقة، وليس غرضنا من هذا الاستهانة بالمكانة المتميزة للشيخ احمد أموسى بين باقي متصوفة العصر، وإنما نبغي وضع اليد على العلاقة الجدلية الواقعة بين مكانته واستراتيجية المكان. وسوف نتضح لنا بعض جوانب هذه العلاقة من خلال ما يلي:

1. دور سياحة الشيخ احمد أموسى في الانفتاح على عالم الصحراء:

إذا كنا قد تطرقنا في ما سبق للأبعاد الصوفية لسياحة الشيخ احمد أموسى، فإن هذا الموضوع قد خول لنا تتبع بعض الأماكن التي زارها خلال سياحته لنخلص إلى أن جملها كان في الجنوب المغربي والصحراء، وهي أمور لها دلالة واضحة تجعل الشيخ على بينة من مجريات الأحداث في هذه الأماكن، ولعل ما يلفت الانتباه أكثر من سياحته هو انتهاءه بدخوله البحر عند خليج ماسة، وهي بذلك ترسم لنا إطاراً عاماً لتنقل سكان الجنوب المغربي سواء كانوا فرادى في إطار السياحة، كما هو شأن سياحة الشيخ احمد أموسى أو جماعات ضمن قوافل التجارة العابرة للصحراء والتي تتخذ ميناء ماسة كإحدى نهاياتها الأساسية¹.

وإذا كانت سياحة الشيخ قد مكنته من الانفتاح على عالم الصحراء فإنها خولت له اختيار المنطقة المناسبة لبناء زاويته، وهي كما يراها أهل بومروان قابلة لأن "بني فيها جامعاً نعبد الله فيه"²، و"نستغلها مدة حياتنا ونترك أولادنا في السعة ورغد العيش"³. وإذا كان الاستقرار النهائي للشيخ بتازروالت قد جاء بعد سلسلة تنقلات في بعض الأماكن المجاورة، فإن أمر التنقل، رغم اتسامه بالغموض، يطرح أمامنا عدة احتمالات منها: انحسار أماكن الاستقرار الأولى بين الجبال الوعرة مما جعل المكان غير قادر على استيعاب الأعداد الوافدة على الزاوية كما أنه شكل عائقاً أمام مبادرة متصوفة الزاوية من أجل توفير مداخل جانبية، وهو أمر نلمسه بوضوح حين عقد مقارنة بين زاوية تازروالت وزاوية امحمد وابراهيم الشيخ بتمنارت⁴. وبذلك يكون الاختيار الموقف للمكان قد ساهم، إلى حد بعيد، في جعل الزاوية السملالية على عهد الشيخ المؤسس تستقطب العديد من الأتباع وتفرض سيطرتها المباشرة على محيطها القبلي، كما كان هذا الاختيار سبباً كافياً في خوض الزاوية للتجربة السياسية سواء بمولاتها للمخزن السعدي، أو بمعارضتها له⁵. ويمكن إذن دور الشيخ احمد أموسى، بالدرجة الأولى، في تفتنه لأهمية المكان، ومحاولته استثمار هذه الأهمية من خلال المساهمة في فرض الأمن والاستقرار على القبائل الثائرة، وكذا تطوير المكان باستصلاحه، وهذا يدعونا إلى محاولة مقارنة سؤال آخر هو:

2. أين تكمن الأهمية الاستراتيجية لتازروالت؟

لن ننتقل للجواب عن هذا السؤال من الإرث التاريخي لتازروالت وشهرتها التي كادت تحجب شهرة المراكز المجاورة كتكاوست وتمنارت وتارودانت طيلة القرن 15م وإلى غاية القرن 19م، فذلك أمر اهتمت به الكتابات التي شكل تاريخ التجارة في الجنوب

¹ - يشير دراماني (Dramani) إلى صورة المغرب والمغاربة عند الكتاب السودانيين القدامى (أمثال السعدي عبد الرحمان) (تمثلت بالخصوص في سوس ومينائه ماسة، ومخزنه الكبير تارودانت، ثم تافيلالت وعاصمتها سجماسة، ومراكش التي ستفرض سيطرتها طيلة القرن 16م كعاصمة للسعديين).

Zakari (D. I), *L'Afrique noire dans les relations Internationales au XVIe*, Karthala, 1982, p. 49.

² البعقلي، مناقب، ص. 21.

³ - نفسه، نفس الصفحة.

⁴ - من المأثور عن الشيخ احمد أموسى أنه قال عن تمنارت بعد وفاة الشيخ امحمد ابراهيم "الله يهنيكم أتمنارت، أموزكيف، أموستيف" وترجمتها "وداعاً يا تمنارت، يا أرض الحرية (كناية عن الفقر) والحجارة". وهي مأثورة تصور لنا الوضعية الاقتصادية والجغرافية لتمنارت، والتي لا تختلف كثيراً عما هي عليه في الواقع، إذ تمتد تمنارت بين جبال الأطلس الصغير، في مجال صعب الاستغلال، وهذا ما يفسر الجهود الكبيرة التي كان الشيخ امحمد ابراهيم التمنارتي يبذلها في المنطقة.

⁵ - ستخوض الزاوية السملالية تجربة المعارضة السياسية بعد وفاة الشيخ احمد أموسى، وإن كانت لم ترتق إلى مستوى المعركة التي قادها علي بودميعة والتي انتهت بتأسيسه لإمارة البغ عام 1022 هـ / 1612م. انظر: السوسي، ايلغ قديماً وحديثاً، ص. 27.

المغربي ما بين القرنين 17م و19م هاجسها الأساسي¹، إلا ان هذا لن يمنعنا من محاولة رسم منحى يوضح ارتباط القوة الاقتصادية للأسرة السملالية باستراتيجية المكان.

معلوم أن الأسرة السملالية، كما قدمتها لنا المصادر التاريخية التي اهتمت بالتحويلات التي ستعرفها على عهد حفدة الشيخ احمد أوموسى²، قد عرفت مرحلتين أساسيتين هما: مرحلة تزعم علي بودميعة هذه الأسرة، وهي المرحلة التي اصطلح عليها السوسى "بالبع القديمة"³، تبتدى مع الإرث الروحي للشيخ احمد أوموسى وتنتهي بهدم السلطان العلوي الرشيد لعاصمة السملاليين إلبع عام 1081 هـ / 1670 م - 1671م. وقد شهدت هذه المرحلة إلى جانب الهمينة السملالية على كل الجنوب المغربي تقلص نفوذ هذه الأسرة بل وإجلائها عن كل تازروالت لتلجأ إلى منطقة "آسا"⁴ جنوبا. ولن يستعيد السملاليون التازروالتيون مجدهم إلا بعد عودتهم إلى منطقة تازروالت التي ستعرف في مرحلتها الثانية الهمينة السملالية على عهدي هاشم السملالي والحسين أوهاشم⁵. ولعل ما تحيل عليه هذه الأحداث التاريخية هو ارتباط القوة السملالية باستراتيجية المكان، ونحن هنا لا ندعي أن استراتيجية تازروالت تشكل النقطة الوحيدة المحددة لهذه القوة، وإنما يبدو لنا أنها كانت نقطة أساسية فيها. فبانتفاء العوامل المتحركة في هذا التميز تراجعت منطقة تازروالت لتصبح مجرد قرية مهمشة تستفيد، جزئيا، من المداخل المحدودة للمواسم المحلية التي رغم استمرارها، كتقليد، لم تعد تخول للمنطقة نفس الإشعاع القديم.

فهل يعني هذا أن العوامل المتحركة في تمييز تازروالت ما بين القرنين 16م و19م هي انفتاحها على تجارة الصحراء التي ابتداء تاريخ تازروالت معها وتضائل بانتهاها؟

لو كان غرضنا هو الوقوف على علاقة الأسرة السملالية، في عمومها، بتجارة الصحراء لكان الجواب عن هذا السؤال سهلا، ذلك أن غزارة السجلات التجارية التي تؤرخ بدقة للعمليات التي كانت تشرف عليها دار إلبع تؤكد، بما لا يدع مجالا للشك، أن شهرة تازروالت كانت مرتبطة بالفعل بتجارة القوافل وتتحدد انطلاقا منها، إلا أن الخوض في بدايات الأسر السملالية وعلاقة ذلك بتجارة الصحراء في غياب معطيات تاريخية وشواهد ثابتة، كترك التي وجدناها عند حفدة الشيخ المباشرين، يجعل عملنا محاطا بالكثير من الصعوبات. لكن بما أن البحث في التاريخ المحلي يتوخي، عموما، المغامرة واقتناص الفرص، فإننا سنترك ذلك جانبا لنحاول انطلاقا من معطيات بسيطة ومحدودة مقارنة السؤال المطروح مع تجنب الإسقاطات.

إن أول ما يجب تسطيره هو أن تازروالت لم تنتظر مجيء القوافل التجارية ليقوم بها استقرار بشري، وهذا ما تؤكد الروايات التاريخية التي قدمت في أغلبها المجال معمرا من قبل قبائل حربيل. وهذا يدعونا إلى اعتبار علاقة تازروالت بالمحاور التجارية الغربية وتجارة الصحراء، في عمومها، حادثا أدخل المنطقة إلى نقطة الضوء التي كانت بعيدة عنها. فباستعراضنا لأهم المصادر التاريخية سواء منها تلك التي تقدم التاريخ العام⁶، أو ما خلفه الرحالة والجغرافيون⁷، لم نجد أية إشارة إلى المنطقة قبل القرن 16م بل نجد بعضها،

¹ - نجد من بينها:

- Monteil (V), *Note sur les Tekna*, Paris, 1945, p. 21. Abitbol (M), *Tombouctou et les Arma*, Maison neuve 1979, pp. 196-199. Pascon, *l'amaison*, pp. 9-43.

² - السوسى، إلبع قديما وحديثا، ص ص. 227-229.

³ - نفس، ص. 45.

⁴ - عن موقع آسا راجع: مصطفى ناعمى، مادة "آسا"، معلمة المغرب، ج 2، ص ص. 377-379.

⁵ - السوسى، إلبع قديما وحديثا، ص ص. 237-261.

⁶ - ونعني بذلك المصادر التالية: الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء. التمنارتي، الفوائد الجملة. الناصري، الاستقصا، ج 5 و6.

⁷ - راجعنا أهم كتب الرحالة الذين زاروا منطقة سوس قبل القرن 16م فلم نجد ذكرا لتازروالت ضمنها.

الذي أُلّف في بداية القرن 16م، لا يتحدث عنها¹. وإذا كانا نؤمن بأن تازروالت، انطلاقاً من المعطيات المقدمة سابقاً، كانت موجودة فإن ما يفسر سكوت المصادر عن الحديث عنها هو عدم وقوعها على إحدى المسالك التجارية الرابطة بين المغرب والسودان، ومن ثمة بعدها من المسالك المستعملة من طرف الرحالة والجغرافيين، فالوزان مثلاً لم يذكر تازروالت رغم اهتمامه بالمراكز القريبة منها كإفراة وإفران².

انطلاقاً مما قيل، تبقى تازروالت وإلى حدود بداية ق 16م، بعيدة عن ساحة الأحداث وهذا يطابق ما رأيناه سابقاً من كون انتقال الشيخ من مسقط رأسه إلى تازروالت كان حوالي 1520م³، أي بعد مرور عشر سنوات على زيارة الوزان لمنطقة سوس، وبذلك تكون تازروالت قد بدأت تعرف نوعاً من التطور على عهد الشيخ إحماد أوموسى، وهو تطور يوازي من الناحية السياسية صعود السعديين إلى الحكم⁴، ومن الناحية الاقتصادية بداية انتعاش المحور الغربي الذي شكل ميناء إفراة وماسة مرفأيه الرئيسيين، في حين شكلت تازروالت نقطة إشعاع ضرورية.

II / الإشعاع الاقتصادي لتازروالت:

لقد اخترنا الحديث عن الإشعاع الاقتصادي لتازروالت في إطار الانتعاش العام الذي عرفه المحور الغربي انطلاقاً من مراكزه الشمالية إفراة وماسة. وهذا الاختيار تحكمه ظروف موضوعية أهمها ارتباط ظهور تازروالت على ساحة الأحداث بالجنوب الغربي بالوضع الاقتصادي العام الذي عرفته نفس المنطقة، ثم وقوع تازروالت على الخط الرابط بين إفراة والجنوب وماسة في الغرب ومن ثمة استفادتها المباشرة من بعض عائدات تجارة الصحراء. إلا أن تتبع أطوار الإشعاع الاقتصادي لتازروالت لن يكون سهلاً، كما قد يبدو، لذلك سنعمل على طرح مجموعة من الظروف والحيثيات التي بدت لنا قادرة على تسليط الضوء على المكانة الاقتصادية لتازروالت ضمن الخط التجاري الرابط بين إفراة وماسة.

1- بروز دور ماسة وإفراة ضمن المحور الغربي:

لا نهدف من وراء الحديث عن المحاور التجارية الوقوف على جوانب هذا الموضوع، فذاك أمر اهتمت به كتب مختصة⁵، لكن غرضنا يكمن في تسليط الضوء، ولو جزئياً، على التحولات التي بدأت تعرفها خطوط التجارة الصحراوية، والتي تفسر إلى حد كبير الانتعاش الاقتصادي الذي عرفته بعض جهات سوس في منتصف القرن 16م. وسيكون حديثنا عن المراكز التجارية مقتصرًا على أهمية سوس وسجل ماسة ضمن محورهما التجاري الذي يرتبطان به ارتباطاً وثيقاً، إذ أن تحول هذه المحاور سرعان ما يترتب عنه تدهور للمراكز الاقتصادية المرتبطة بها، وذلك ما أثبتته المعلومات المختلفة التي ساقها الرحال العرب، الذين عبروا الصحراء أو الذين كتبوا

¹ - ونعني بذلك وصف إفريقيا للحسن الوزان.

² - الوزان، وصف إفريقيا، ج 1، ص. 113، ج 2، ص. 117.

³ - الفاسي، مرآة المحاسن، ص. 137.

⁴ - وقد عرفت الفترة محاولات السعديين الاستيلاء على جهات من الصحراء لأهمية الدور الاستراتيجي الذي تلعبه في تحقيق المشاريع السياسية الكبرى ذلك أن ارتباط جميع الحركات السياسية (الأتراك، البرتغال، المرينيون، والسعديون) بتجارة الصحراء خلال القرن XVI م ومراقبة الطرق يمثل عامل قوة أساسياً وضرورياً. راجع بهذا الصدد:

- مجهول، تاريخ الدولة السعدية الدرعية التاكدادارية، نشر كولان (ج)، المطبعة الجديدة، رباط الفتح، 1934م، ص. 7.

- الزياتي، الترجمان المغرب، ص. 345.

- ديكودي طوريس، تاريخ الشرفاء، ص. 73.

- Damio (de) , les Portugais au Maroc du 1495 à 1521, extrait de la «Chronique du Roi O. Manuel de Portugal», traduction française par Ricard, édition Felix Mooncho, Rabat, 1937, pp. 171-178.

⁵ - انظر على سبيل المثال:

- Devis (J), «Routes des commerce et échanges en Afrique Occidentale en relation avec la Méditerranée ; un essai sur le commerce Africain Médiéval du XI au XVI siècle», in Revue d'Histoire économique et sociale, T I-II, 1972, pp. 42-73 et pp. 357-379.

- Mauny, Tableau géographique de l'ouest Africain au moyen Age, d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie, in 4^e mémoire de l'IFAN, n° 16, Dakar, 1961.

عن التجارة الصحراوية، عن استمرار النشاط التجاري عبر المسالك الصحراوية الشرقية لمدة تزيد عن الستة قرون، أي من القرن 8م إلى القرن 16م، وهي مدة كافية لجعل سجلماسة "قاعدة للذهب". على أن المدينة كانت تعرف مدا وجزرا حسب التطورات السياسية إذ يظهر أنها لم تستطع الصمود طويلا بعد تخریبها في أواخر القرن 16م ويرجع ذلك إلى انعدام الأمن الذي ساد المنطقة منذ سيطرة بني معقل على الطرق المارة بسجلماسة في ظل الحكم الوطاسي¹، وعندما زار الحسن الوزان في بداية القرن 16م (سنة 1511م) وجد المدينة مخربة تماما². وكان من نتيجة هذه المرحلة تحول الطرق التجارية عن سجلماسة في اتجاه الغرب لتصبح درعة وسوس أبرز طرق القوافل التجارية وأكثرها أمنا، كما أصبحت تكاووست (بوادنون) أكبر مركز تجاري في الجنوب المغربي وورثت الدور الذي كان لسجلماسة من قبل³. وإذا كانت الإشارة التاريخية كفيلا تتبع الأهمية الاقتصادية لمنطقة درعة بتوفرها على عدد من الواحات منها: طاطا ودرعة وتامكروت⁴، فإن الحديث عن دور منطقة سوس باعتبارها ثاني مركز مستقطب لتجارة الصحراء يتراءى لنا عبر حديث بعض المصادر التاريخية عن مكانة كل من إفران وماسة، في هذه التجارة العابرة للصحراء⁵، لذلك سنقتصر اهتمامنا على ميناء "إفران" باعتباره ميناء داخليا ومعبرا أساسيا لتجارة القوافل ومرفأ ماسة لكونه إحدى النهايات الأساسية لهذه التجارة. لكن يجب تسجيل أن حديثنا عن هذه المرفأين التجاريين خلال النصف الأول من القرن 16م سيكون بموازاة الحديث عن المكانة الاقتصادية لتازروالت في نفس الفترة، لكون كلا المرفأين شكل منفذا طبيعيا لتازروالت وربطها الأساسي بتجارة الصحراء.

2. تازروالت نقطة عبور للقوافل الصحراوية

للحديث عن هذا الموضوع سنخضع لقيود تفرضها قلة المادة التاريخية:

أولها: ضبط موقع تازروالت في إطار خريطة الجنوب المغربي.

ثانيا: محاولة الإحاطة بهذا الموقع في إطار أضيق هو الإطار السوسي الذي يتحدد عبر نقط جغرافية نالت من الاهتمام ما لم تنله تازروالت وهي إفران جنوبا وماسة غربا.

أولا: ضبط موقع تازروالت.

نسعى من خلال الوقوف على موقع تازروالت إلى الخروج من الإطار المحلي الضيق الذي تفرضه الدراسة المنوغرافية⁶، إلى إطار أعم يسمح بإلقاء نظرة على موقع تازروالت كنقطة إشعاع ضمن خريطة الجنوب المغربي خلال القرن 16م. فانطلاقا من هذه الخريطة تمتد تازروالت في الجهة الجنوبية الغربية غير بعيدة عن المحيط الأطلسي، ورغم امتدادها عند السفوح الغربية لجبال الأطلس الصغير فإنها ظلت منفتحة على الجنوب والشمال، وهي تقع بذلك على طريق التحركات القبيلية التي عرفتها المنطقة ما بين القرنين 14م و16م بل نجدتها في بداية القرن 16م تشهد عنف هذه التنقلات من خلال الصراع التاريخي بين القبائل حرييل ومجاط. ثم إن وجود تازروالت في منطقة سوس، بالخصوص، جعلها تستفيد من الاهتمام الذي أولاه السعديون الأوائل للمنطقة، فهي غير بعيدة عن تارودانت (المحمدية) التي شهدت مشاريع اقتصادية كبيرة⁷، كما أنها على بعد مراحل من ميناء أكادير الذي عرف بعد استرجاعه، من قبل السعديين، حركة تجارية دائبة تتغذى مما تحمله قوافل الصحراء

¹-Lessars (J. M), «SIGILMASSA : la ville et ses relations commerciales au XIe siècle d'après El Bekri», in *Hesperis Tamuda*, Vol X, Fasc 1-2, 1969, pp. 33-34.

²-الوزان، وصف أفريقيا، ج 2، ص. 120

³- نفسه، نفس الصفحة.

⁴- منها على سبيل المثال مؤلف: كربخال، أفريقيا، ج 3، ص ص. 144-146-150.

⁵- أحمد اليعقوبي، كتاب البلدان، منشورات المطبعة الحجرية، ص. 110. الوزان، وصف أفريقيا، ج 1، ص. 114، ج 3، ص. 117.

Fernandes, *Description*, op.cit, p. 29.

⁶- إلا أننا لم نهمل هذا الإطار المحلي، فقد تطرقنا لبعض جوانبه خلال حديثنا عن الزاوية السملالية وآليات تأسيسها.

⁷- Berthier (P), «l'Archeologie Source de l'Histoire Economie», in *Hesperis Tamuda*, VII, 1966, p. 35.

- Berthier, *les Anciennes sucreries du Maroc et leurs reseaux hydrauliques*, T I, Rabat, 1966, p. 248.

وما توفره سفن التجار الأوروبيين¹. وإذا كان هذا الموقع المنفتح لتازروالت على محيطها قد ساهم في تميزها عن باقي المناطق المجاورة، فإن ارتباطها بمينائي ماسة وإفران جعلها تتحول إلى نقطة عبور لتجارة الصحراء عبر المحور الغربي.

ثانيا: تازروالت بين إفران جنوبا وماسة غربا.

شكل مركز إفران الأطلس الصغير² إحدى النقط الأساسية ضمن المحور الغربي إن لم نقل أقدمها³، وقد حظي باهتمام العديد من الرحالة والمؤرخين في بداية القرن 16م أمثال فرنديز (Fernandes) (1506م-1507م)⁴ والحسن الوزان (1511م)⁵. ولعل ما لفت الانتباه إليه هو استقطابه منذ القديم لجاليات يهودية كان لها دور كبير في تجارة الصحراء، ثم افتتاحه جنوبا على تكاووست التي عرفت نموا كبيرا بفضل تحول الطرق التجارية على الشرق حيث بدأ نجم سبلماسة يأفل، فقد تحدث الحسن الوزان، في بداية القرن 16م، عن احتضان "تكاووست" لسوق كبير للذهب⁶، لكونها أول محطة تجارية بعد "ودان"، كما أنها كانت تشكل أبرز وأهم سوق للعبيد بالمنطقة⁷. وكان جزء مهم من تجارتها يسوق عبر الطرق البرية، إحدى هذه الطرق وأهمها هي طريق إفران الأطلس الصغير⁸، التي كانت تشهد بدورها حركة تجارية دائبة من خلال توفيرها لمواد قابلة للتسويق منها بالخصوص الأواني النحاسية التي كانت تصنع محليا وتلقى إقبالا كبيرا في بلاد السودان⁹، ولا تنتهي علاقة إفران بتجارة الصحراء عند هذا الحد، بل تتحول بدورها إلى منطقة عبور تتفرغ عنها طرق تجارية تقطع الأطلس الصغير عبر العديد من الممرات لتنتهي عند خليج ماسة في حين يستمر بعضها ليربط المنطقة ببرتغاليي أكادير¹⁰. ومن بين تلك الممرات المنتهية عند خليج ماسة تلك التي تسير بمحاذاة "واد تازروالت" والتي رغم تشعبها كانت أكثر استقطابا للتجارة لكونها أكثر أمنا من طريق الاحواض الغربية خاصة منها ممر "لخصاص"¹¹. لكن على عكس ما رأيناه بالنسبة لمخطي "تكاووست" و "إفران" فإن محطة تازروالت لم تنل نفس الحظ من الاهتمام، فالإشارات التاريخية القليلة لا تتعدى اعتبارها أكثر طرق الأطلس الصغير أمنا، وهي إشارة تكفي وحدها للتساؤل عن الظروف العامة التي جعلت الطريق الرابط بين تازروالت وإفران الأطلس الصغير آمنا، وفي منزل عن المضايقات التي تشكلها تنقلات عرب معقل بالنسبة للتجارة¹²، وقد نجح بعض عناصر الجواب عن هذا السؤال من خلال إلقاء نظرة على الأدوار الاجتماعية والسياسية التي قامت بها الزاوية السملالية على عهد الشيخ احمد أموسي والتي خولت كما سبقت الإشارة إلى ذلك، للزاوية كسب العديد من الأتباع والافتتاح على محيط قبلي شكلت قبيلتا مجاط وأحمر، على قوتها، أكبر مكوناتها.

وإلى جانب توفر عوامل الأمن الضرورية لكل العمليات التجارية تبرز أهمية "وادي تازروالت" في هذه التجارة البعيدة المدى، فقوافل التجار تسير بمحاذاة هذا الواد لتنتهي مسيرتها عند خليج ماسة الذي هو مصب طبيعي لواد تازروالت ومنفذ أساسي لتجارته¹³. فقد اشتهرت ماسة لدى مؤرخي القرن 16م، باحتضانها لأهم المحطات البرتغالية في اتجاه الجنوب، وازدادت أهمية باكتشاف "أرغين" (Arguin) سنة 1448م-1449م، وعلى عكس أكادير الذي عرفت تجارته تراجعاً نسبياً بسبب الحصار الذي فرضه السعديون على هذه المدينة من (1517 إلى 1541م)، فإن مرفأ ماسة ظل يعرف حركة تجارية مهمة¹⁴. وإذا كان الحسن الوزان قد قدم وصفا دقيقا لماسة وتجارها مع البرتغاليين والفاستيين¹⁵، فإن فرنديز (Fernandes)، قبله، ركز على وجود ماسة عند مصب واد كبير¹⁶. ورغم أن هذا الواد، حسب نفس المؤلف، لا يسمح بمرور السفن التجارية عبره

¹- ديكو دي طوريس، تاريخ الشرفاء، ص. 73.

²- نقرن هنا اسم إفران بالأطلس الصغير لتمييزه عن باقي أسماء إفران المعروفة في جهات أخرى من المغرب.

³- Monteil (V), «les Juifs d'Ifran», in Hesperis, 1948, p. 151.

⁴- Fernandes, Description, op.cit, p. 29.

⁵- الوزان، وصف أفريقيا، ج 2، ص. 117.

⁶- نفسه، ص. 120.

⁷- نفسه، نفس الصفحة.

⁸- Meunie, le Maroc Saharien, TI, op.cit, p. 402.

⁹- الوزان، وصف أفريقيا، ج 2، ص. 117. كربيخال، أفريقيا، ج 3، ص. 143.

¹⁰- Meunie, le Maroc Saharien, op.cit, p. 402.

¹¹- Ibidem.

¹²- بخصوص عرقلة عرب معقل لتجارة الصحراء انظر:

- Meunie, le Maroc Saharien, op.cit, p. 874. Mezzine, le Tafilalet, op.cit, p. 586.

- مصطفى ناعمي، الصحراء، ص. 96-121.

¹³- يحمل واد تازروالت اسما آخر هو، أعالي "وادي ماسة" إذ يشكل إلى جانب "واد أيت باها" وواد أليبي، الامتداد العلوي لواد ماسة المنتهي عند البحر المحيط.

¹⁴- Ricard, Études sur l'Histoire, op.cit, pp. 132-136.

انظر أيضا: بنخادة، النشاط الاقتصادي، ص. 225.

¹⁵- الوزان، وصف أفريقيا، ج 1، ص. 113.

¹⁶- Fernandes, Description, op.cit, p. 29.

فإن العديد من القوافل التجارية كانت تسير بمحاذاته بسلع محلية كالعبر وجلود البقر والخنازير والعلك و سلع أخرى سودانية كالاندنكو والذهب¹، وهو نفس الطريق الذي يقود مباشرة إلى إفران مرورا بتازروالت.

نخلص مما قيل إلى بعض النتائج العامة لدور "تازروالت" التجاري منها:

1- أهمية موقع تازروالت الذي جعلها على اتصال بمراكز تجارية "كإفران" و"ماسة".

2- وقد زاد من أهمية هذا الموقع الأمن الذي تحقق له بفضل جهود الزاوية السملالية. ففي إطار بيئة خاضعة للتحركات القبلية والضغوط الأوروبية، ظهرت الزاوية لخلق نوع من التوازن بين متطلبات الرحل وحاجيات المستقرين، مساهمة بذلك في الحد، ولو جزئيا، من تناقضات المحيط². وقد تضافرت جهود زوايا سوس في عمومها وجهود السعديين الأوائل لجعل منطقة سوس المستقطب الرئيسي لتجارة الصحراء³، ولا يمكن أن تكون حركية الموائى السوسية سوى تأكيد على ذلك⁴.

3- لكن إذا كانت الكتابات التاريخية قد أسعفتنا، إلى حد ما، في الحديث عن استراتيجية موقع تازروالت فإنها لا تسمح بالوقوف على المساهمة الفعلية للتازروالتيين في العمليات التجارية⁵، إلا أننا مع ذلك نسجل مشاركة الافرائين فيها⁶. وقد جاءت الإشارة إلى مساهمتهم في هذه العمليات مقرونة بالحديث عن جهود الزاوية السملالية في شخص شيخها احمد أوموسى⁷.

4- وعدم اهتمام الإشارات التاريخية بالحديث عن مساهمة التازروالتيين في تجارة الصحراء لا يعني أن قوافل التجار كانت تمر بأراضي تازروالت دون أن تخلف حركية تجارية بها⁸، خصوصا وأن تازروالت بما تضمه من قبائل رحل ومستقرين وبما توفره من مواد محلية فلاحية كانت أم صناعية، قد تكون لا محالة قد ساهمت في هذه المبادلات التجارية.

5- ونختم هذه الاستنتاجات العامة بالتساؤل حول دور التمرکز الكبير لتجارة الصحراء الأطلسية منذ القرن 15م بالسوس الأقصى في نشوء مواسمها المحلية، ومن بينها مواسم تازروالت.

معلوم أن للمواسم، على عكس الأسواق، طبيعة اقتصادية ودينية، في نفس الوقت، مما يجعل نشوءها مرتبطا بقوة دينية محلية منفتحة على محيط اقتصادي واسع. وظاهرة المواسم وإن كانت معروفة في المغرب منذ القديم⁹، فإن تتبع مراحل نشوئها يبقى أمرا صعبا على أن البحث في تاريخ المواسم بمنطقة سوس في بداية القرن 16م مكننا من الوقوف على بعض هذه المواسم التي كان لها دور بارز في قيام الدولة السعدية، فالقائم بأمر الله السعدي¹⁰ "وجه القبائل لسوس وجعل لها صنيعا في يوم معلوم وهو الموسم. ودعا أشياخ القبائل (...). فلما حضروا وأطعمهم خرج بهم إلى الفضاء، وصلى بهم ركعتين وخاطبهم خطبة عجيبه بلسان البربر ذكر فيها و وعظ وحث على الجهاد"¹¹. وتزخر منطقة جزولة، إلى جانب هذا الموسم، بمواسم أخرى تخضع في قيامها لشروط الهدنة المتعارف عليها محليا، وتدوم هذه الهدنة ثلاثة أيام، تطابق عدد أيام الموسم، لفسح المجال أمام الخصوم: "ليتجروا فيما بينهم وينتقلوا من جهة إلى جهة أخرى"¹². ويقدم من خلال هذه المواسم "الطعام لجميع الغرباء الذين يوجدون هناك ولو بلغ عددهم عشرة آلاف"¹³ أما العمليات التجارية التي تشهدها مواسم بلاد جزولة فتتم كما وصفها الوزان

¹ - Ibidem.

² - راجع الفصلين الثالث والرابع من هذا البحث.

³ - ولعل أبرز الجهود التي قام بها متصوفة القرن XVIم، والتي كان لها كبير الأثر على الاقتصاد المغربي عامة، وتجارة الصحراء على وجه الخصوص، هي دخولهم في علاقات مباشرة مع قبائل الرحل الذين شكلوا في آن واحد سندا وعانقا لتجارة الصحراء، فبإخضاع هؤلاء للسلطة الجديدة وتحرير الثغور عادت التجارة الصحراوية لتساهم بقسط وافر في خزينة الدولة السعدية وكذا في اقتصاد الزوايا المنفتحة على الصحراء.

⁴ - بنحادة، النشاط الاقتصادي، ص. 225.

⁵ - ولعل السبب في ذلك يعود إلى كون المصادر التي تناولت الحديث عن بدايات الأسرة السملالية لا تعدو أن تكون كتب مناقب، تتوخى الإلمام بالجانب الصوفي من حياة الشيخ ومريديه أكثر من غيرها من الجوانب.

⁶ - السكيتي، تقييد، ص. 1-2.

⁷ - نفسه، ص. 1. وهنا لابد من الإشارة إلى أن سكان إفران يدينون بالولاء لزاوية الشيخ احمد أوموسى وهو أمر لا يتنافى وما سجله مارمول عن كون "سكان المنطقة برابر اعتنقوا الطريقة الجزولية". راجع: كريكال، أفريقيا، ج 3، ص. 143.

⁸ - فالقافلة التجارية ليست مجرد وسيلة للنقل بل هي "معرض متحرك لا تعرف فيه حركة البيع والشراء توقفا". انظر:

Abitbol, Tombouctou, op.cit, p. 190.

⁹ - فالبكري يسجل عن رباط ماسة أنه "مكان مقصود، له موسم عظيم ومجمع جليل". انظر: البكري، المغرب، ص. 161.

¹⁰ - أول أمراء السعديين، انظر ترجمته في: الناصري، الاستقصاء، ج 5، ص. 6-7.

¹¹ - Massignon, la Naissance, op.cit, p. 71.

¹² - الوزان، وصف أفريقيا، ج 1، ص. 144.

¹³ - نفسه، ص. 145.

(عام 920هـ / 1514م-1515م) على الشكل التالي: "يضع التجار بضائعهم في خيام أو أكواخ صغيرة من أغصان الأشجار، ويجمعون بحسب أصناف بضائعهم كل صنف على حدة، بحيث هناك تجار النسيج وهناك تجار الأقمشة والخردوات وهكذا. أما تجار الماشية فيكونون خارج الخيام"¹. ويستقطب الموسم سكان الناحية كلها بل "وحتى سكان بلاد السودان"²، ولعل هذه الصورة التي نقلها لنا الوزان كافية للحديث عن استمرار ظاهرة المواسم خلال القرن 16م الميلادي، وارتباطها الأكيد بتجارة الصحراء.

فما هو نصيب مواسم زاوية الشيخ احمد أموسى من هذه التجارة؟

تجدد الإشارة، أولاً، إلى قلة المعطيات التاريخية التي تغطي بدايات المواسم السنوية بزاوية الشيخ احمد أموسى، فأغلبها يشير إلى ازدهار هذه المواسم على عهد علي بودميعة دون الحديث عن مكاتها الاقتصادية ضمن خريطة المواسم التجارية خلال القرن 16م³، وإذا كنا نسلم بكون بعض المواسم التي تقام حالياً بزاوية الشيخ احمد أموسى قد استحدثت من طرف علي بودميعة "كوسم اسمكان"⁴، فإن مواسم أخرى تحيل على ظروف تاريخية قد ترتبط بفترة حياة الشيخ احمد أموسى من بينها موسم "طائفة إداولتيت"⁵، الذي يشهد انتقال فقهاء وعلماء إداولتيت في رحلة عبر العديد من الزوايا السوسية لتهيئ مسيرتها عند زاوية سيدي وكاك بألكو، بضواحي تنزيت⁶. والجدير بالذكر أن هذا التنقل الجماعي للفقهاء يتخذ بومروان، مسقط رأس الشيخ احمد أموسى، كإحدى محطاته الرئيسية، بل وتشهد بومروان إلى الآن تجمعات لهؤلاء الوليتيين من أجل الذكر والعبادة. وموسم إداولتيت، وإن كان يوحى باتسامه بالصبغة الروحية، يساهم في تأليف صفوف الوليتيين الذين رأينا كيف كانوا يشكلون الدعامة الرئيسية لزاوية الشيخ، لضم إداولتيت لأقوى قبائل المنطقة وهي: إداوكرسوك، إداوسملا، وإداوبعقل.

وقد عملت قبيلة مجاط، في نفس الإطار الافتتاحي للزاوية على محيطها القبلي، على سن موسمها السنوي المعروف بـ "موسم مجاط"⁷، الذي يقام عادة في الخميس الأخير من شهر شتنبر، حيث تعمل مجاط على تزويد الموسم بالحبوب الضرورية، وتقدم لزاوية الشيخ نصيبها من المنتج السنوي اعترافاً منها بالمكانة الروحية للشيخ احمد أموسى، وكذا بالفضل الكبير الذي كان له في ترجيح كفتها في صراعها ضد حرييل. والإشارات القليلة حول هذا الموسم تؤكد على أنه شكل مناسبة بالنسبة لمجاط لترويج منتوجها الفلاحي، ومبادلتها بمواد أخرى ضرورية⁸.

ويبقى موسم، غشت، أكبر المواسم التي تشهدها تازروالت مما يفسر اهتمام الدراسات التي تناولت الحديث عن مواسم سوس بها⁹، على أن المعلومات التي توفرها هذه الأخيرة لا تتجاوز من حيث القدم القرن 17م. ويمكن أن نستثني هنا ما أورده جيستنار (Justinard) من روايات شفوية تفيد كلها نشاط هذا الموسم على عهد الشيخ احمد أموسى¹⁰، غير أن رواياته هذه لا تجد، على حد علمنا، ما يدعمها ضمن المصادر التاريخية والمناقب التي اهتمت بشخصية الشيخ احمد أموسى عدا ما تطالعنا به تقايد أدفال والسكيكي من استقبال الشيخ لقوافل الحجيج والتجار¹¹.

ألا يمكن إذن أن يكون وصول هذه القوافل إلى المنطقة متزامناً وقيام موسم غشت السنوي؟ ثم هل يمكننا، اعتماداً على روايات أخرى¹²، اعتبار الزيارات الخاصة التي تقوم بها وفود نساء القبائل، مباشرة بعد ذلك، للزاوية السملالية على عهد الشيخ احمد أموسى نواة أولى لنشوء موسم النساء الذي يتلو كما هو معلوم، موسم غشت الكبير؟¹

¹ - نفسه، نفس الصفحة.

² - نفسه، نفس الصفحة.

³ - Le Chatelier, *Les Tribus*, op.cit, p. 42. Pascon, *la Maison*, op.cit, pp. 150-151.

⁴ - Pascon, *la Maison*, op.cit, p. 151.

⁵ - ويدعى أيضا موسم "أفقيرن" أو موسم الشيوخ.

⁶ - للوقوف على مراحل تنقل طائفة إداولتيت راجع:

- Pascon, *La Maison*, op.cit, pp.147-148.

⁷ - وعن ظروف نشوء هذا الموسم، تدعى إحدى الروايات التي اعتمدها باسكون (Pascon) أنه "تخاصم المجاطيون يوماً، فانقسموا إلى فريقين متناحرين، يتراشقان بالحجارة فأصيب الشيخ احمد أموسى بحجارة طائشة، وخوفاً من غضب الشيخ من مجاط، اتفقوا على استرضائه من خلال إقامة معروف سنوي يأكلون فيه "العصيدة" ويتقافون بالحجارة الصغيرة تمثيلاً لما وقع في السابق، وهي مناسبة لإعطاء زاوية الشيخ جزءاً من محصول مجاط السنوي". انظر:

- Pascon, *La Maison*, op.cit, pp. 157.

⁸ - Ibidem

⁹ - ومن بينها:

- Faucauld, *Reconnaissance*, op.cit, p. 169. Le Chatelier, *Les Tribus*, op.cit, p. 42. Justinand, «*sidi Ahmed ou Moussa*», op.cit, pp; 10-11 et p 18-19. Tamouh (Z.), *le Maroc et le Soudan, au XIXe Siècle 1830-1894*, Thèse 3^e Cycle, Pantheon Sorbonne, Paris (4) I, 1982, p. 222.

¹⁰ - Justinard, «*sidi Ahmed ou Moussa*», op.cit, p 10, 11, 18, 19.

¹¹ - أدفال، تقويد ص. 11. السكيكي، تقويد، ص. 1.

¹² - ومن هذه الروايات ما ورد في مخطوطة تتناول مناقب الولاية الصالحة مريم بنت محمد بن مسعود بن يعزى التي ذهبت "مرة لزيارة قطب الاقطاب سيدي احمد أموسى وعنده لقاء النساء". - مخطوطة خزانة الشيخ احمد أموسى بتازروالت- وإذا كانت هذه المخطوطة صريحة في حديثها عن نشوء موسم النساء على عهد الشيخ احمد أموسى، فإن خلوها من التاريخ يجعلنا نطرح

في غياب مصادر تاريخية مختصة، وأمام الغموض الذي أحيط به دور الشيخ احمد أوموسى في تجارة الصحراء، لجأنا إلى كتب المناقب التي: "تستحضر الأطراف النائية والأرياف والبسطاء والمهمشين"²، والتي تساهم، ولاشك رغم روحانيتها واهتمامها بالكرامات والحوار، في تمرير أحداث ومواقف تاريخية جد مهمة. إلا أن التعامل مع المناقب بمعزل عن مناخ قارة³، يبقى صعبا. لذلك فإن عملنا هذا لا يدعي الإحاطة التامة بالمنقبة موضوع الدراسة، ولا بالمنهج السيميائي المقترح لمقارنتها، وإنما يسعى فقط إلى التعامل معها كمادة غير مستقلة عن محيطها التاريخي مما يجعلها قادرة على إعطائنا تصورا للحياة. ورغم أن كتب المناقب هي كتب كرامات، والكرامة كما هو معلوم مناقضة للمعقول والمعتاد وهي بالتالي غير قابلة للتعامل في إطار المنهج التاريخي العقلاني⁴، فإننا ندرجها هنا بدءا على أساسين:

1-الأساس الأول: اعتبار الكرامة "تشكيلا" للواقع⁵ وهذا يجعلنا نتجاوز، ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، الغطاء الخيالي للنفوذ إلى الواقع.

2- الأساس الثاني، اعتبار الكرامة أسلوبا رمزيا للتعبير عن الواقع⁶، متجاوزين بذلك الرسالة الإخبارية المباشرة التي تحملها، ووسيلة للتعرف على نوع المشاكل التي تعيشها المجموعات التي أنتجتها.

وينبغي التذكير، في هذا الخضم، بأننا لا نسعى من خلال هذا العمل إلى إسقاط أفكار جاهزة على نصوص منقبية، تجمع بين الواقع والممكن وغايتها المتوخاة بالأساس هي "عالم الإمكان"⁷ بل غرضنا الأساسي من عرضها هو محاولة جمع مؤشرات دلالية تصب كلها في حقل دلالي لتعبر من خلاله على واقع اجتماعي واقتصادي لا يختلف كثيرا عما نجده في كتب التاريخ الأخرى، ويبقى عملنا هذا محاولة استنطاق سطحية لنصوص منقبية قد تساعد مقارنتها المستقبلية بنصوص تاريخية على الوصول إلى خلاصات جديدة.

-النص المنقبي الأول:

يقول أذفال: "حدثني رجل أثق به أنه لقي بماسة سائحا فقال له: أتيت سيدي احمد أوموسى وأردت أن أسأله عن مسائل فلما وصلته غلبتني همته فقال لي: لم لم تسألني عما أردت؟ فقلت له: سألتك بالله ما الذي أعطاك الله من النور؟ فقال لي: أرايت البحر إذا أرادت الشمس أن تغيب؟ فقلت: نعم فقال كذلك. وقلت له أيضا: سألتك بالله ما الذي أعطاك الله من السم؟ فقال لي: أسمع الخادم إذا كانت ببلد السودان تدق في ممراسها وقلت أيضا: سألتك بالله ما الذي أعطاك الله من الحكم؟ فأشار بيده اليمنى من ناحيته اليمنى إلى ناحيته اليسرى، ثم سألته عن الرابعة فامتنع"⁸.

معلوم أن لهذه المنقبة، شأنها في ذلك شأن المناقب عموما، معنيين: الأول واقعي حرفي والثاني ممكن ينقلب فيه المعنى الأول رأسا على عقب ليصبح المضمون الحرفي مؤشرا على مضمون أعمق، لكن وجود مؤشرات جغرافية وتاريخية بهذا النص يجعلنا نلتزم بالمعنى الأول أي المعنى الواقعي للنص، وهذه المؤشرات هي:

تساؤلات حول مدى صحة معلوماتها، هذا وإن البحث في المصادر عن ترجمته للولية المذكورة، يسمح بموصفتها تاريخيا، لم يأت بنتيجة ذلك أن البعقلي والتمنارتي والحضيكي الذين اهتموا بجمع معلومات حول شخصيات سوسية عاشت ما بين القرنين 16م و18م لم يذكرها ضمن مناقبهم وتواريخهم، على أن الحضيكي في المقابل يسعنا بالرواية التالية والتي تشير إلى أن "نساء من العرب جنن زائرات للشيخ رضي الله عنه، فتجاسرت إحداهن عليه وقبلت لحيته". انظر الحضيكي، مناقب، ص. 2.

¹ - بخصوص مراحل التهييء لموسم النساء وكذا مختلف الأنشطة التي يشهدها راجع:

- Pascon, *la Maison*, op.cit, pp. 149-150.

² - محمد القبلي، تقديم كتاب التاريخ وأدب المناقب، ص. 8.

³ - يقترح مؤلفو كتاب التاريخ وأدب المناقب المنهج السيميائي لمقاربة النصوص المنقبية، فالقبلي يقول، في هذا الصدد: "إذا كان للمؤرخ اعتناء متنام بالأثر الجوفي، والتعبير المتلجلج الدفين فلربما أصبح عليه أن يجلس إلى السيميائي فيستشف من الإحباطات ما قد لا تسمح به المقارنة الموثقة المشدودة إلى المادي الملموس". انظر: القبلي، نفس المرجع، نفس الصفحة.

⁴ - عبد اللطيف الشاذلي، المجتمع المغربي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر من خلال الآداب الصوفية، أطروحة جامعية لنيل دكتوراه الدولة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1987، ص. 61.

⁵ - نحاول هنا التوفيق بين التصنيف المقترح من طرف الاستاذ الشاذلي، ص. 61، والأستاذ محمد مفتاح، في "الواقع والعالم الممكن في المناقب الصوفية"، ضمن كتاب التاريخ وأدب المناقب، ص. 32، إذ يرى أنه بالإمكان تصنيف الكرامات إلى ثلاثة أنماط حسب درجة انزياحها عن الواقع:

النمط الأول: هو الذي يعبر عن الواقع بكل وضوح إذ يكاد القارئ لا يجد فيه أي انحراف عنه.

النمط الثاني: يستطیع القارئ أن يثبت بعض معالمه التاريخية والجغرافية ويتحقق من بعض شخصياته لكن به ما يسمح بتأويله.

النمط الثالث: وهو الذي يجد فيه القارئ انزياحا كبيرا عن الواقع.

⁶ - الشاذلي، المجتمع المغربي، ص. 61.

⁷ - محمد مفتاح، "الواقع والعالم الممكن في المناقب الصوفية"، ص. 31.

⁸ - أذفال: تقييد، ص. 3.

- ماسة، سيدي احمد أوموسى، البحر، الخادم، بلاد السودان، تدق على مهراسها.

وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا أن لكل هذه المؤشرات مرجعية تاريخية وجغرافية محددة تطابق من حيث الزمان القرن 16م وتمتد من حيث المكان من مرفأ ماسة شمالاً إلى بلاد السودان جنوباً، مروراً بمؤشرات بشرية تغطي بدورها نفس الفترة وهي، سيدي احمد أوموسى، الخادم وهي تدق بمهراسها. ثم إن استعمال مصطلح الخادم يحيل بدوره على عالم آخر مواز وهو عالم العبيد الذي شكل مادة أساسية ضمن تجارة القرن 16م¹. واعتماداً على هذه المؤشرات نفسها يمكننا ضبط توجهات الشيخ احمد أوموسى²، والتي لا تتعارض وما أشرنا إليه سابقاً من انفتاح منطقة تازروالت على عالم البحر من خلال خليج ماسة وعالم السودان من خلال الصحراء.

-النص المنقبي الثاني:

يقول السكيتي: "حكى الشيخ المانوزي أن رفقة من أهل إفران تقرب من ستمائة جمل توقفوا في بعض أسفارهم لأرض القبلة في صحراء من الأرض منقطعين عن موضع الماء مشرفين على الهلاك، فقالوا: تعالوا يعين كل واحد منا صدقة للشيخ سيدي احمد أوموسى لعل الله تبارك وتعالى يدركنا بلطفه ويفرج عنا ففعلوا. فمنهم الكثير، ومنهم المقل. فلما عينوا نذر الصدقة، إذ برجل رقيق أبيض^(١) وقف عليهم وأشار لموضع الماء قريباً منهم، فقصدوه فوجدوا فيه جانية (إناء) ماء بارد وعذب صاف، فأقاموا عليه سبعة أيام فلما قدموا منازلهم جمعوا من تلك الصدقة أربعمائة أوقية وقدموها زائرين للشيخ رضي الله عنه، فقال لهم رضي الله مالكم وهذا الشيء تتعبوننا وتتعبون أنفسكم"³.

تشير هذه المنقبة إلى صورة تاريخية لتجارة من أهل إفران الأطلس الصغير في إحدى سفرائهم لبلاد السودان (بلاد القبلة). وما يزيد من واقعية المنقبة هو إعطاؤها لحمولة القافلة التي تقرب من ستمائة جمل، وكذا تسجيلها لأهم معيقات التجارة الصحراوية المتمثلة في قلة الماء. إلى هنا لا شيء يثير انتباه القارئ، فالمنقبة تتحدث عن مكان محدد ممتد بين "إفران" شمالاً و"بلاد القبلة" جنوباً، وعن زمان يحدده بروز إسمي الشيخ احمد أوموسى والمانوزي⁴، وهو بذلك يقارب منتصف القرن 10هـ/16م. كما تتحدث المنقبة عن أناس معينين هم تجار إفران الذين عانوا من العطش في إطار بيئة صحراوية قاحلة، إلا أن ما يثير الانتباه هو استنجد هؤلاء ببركة الشيخ احمد أوموسى دون غيره من متصوفة الجنوب المغربي. وإذا كان هذا الاستنجد يؤكد ارتباط أهل إفران بزواية الشيخ احمد أوموسى فهو يؤكد، إلى هذا، انفتاح الشيخ على تجارة الصحراء والصعوبات التي تعيقها، وما توفيره للماء لقافلة أهل إفران، ولو إشارة⁵، إلا دليلاً على مساهمته المباشرة في هذه العملية.

ولا تقف منقبة السكيتي عند هذا الحد، بل تستمر لتسجل لنا الفائدة المادية التي جنتها الزاوية السملالية من هذه العملية والتي بلغت أربعمائة أوقية⁶، وهي صدقة نالتها زاوية الشيخ احمد أوموسى نظير توفيرها للأمن والاستقرار لتجارة إفران.

-النص المنقبي الثالث:

يقول التمارتي في الفوائد: "ذكر أعراي من أعراب سجلماسة أنهم اصطادوا في بعض القفار فرأوا ناقة فأسرعوا إليها، قال: فوجدنا رجلاً مسجياً في ثوبه ولم نجد الناقة فرجعنا، ثم رأينا الناقة فرجعنا إليها فلم نجد ناقة، وفعلنا ذلك مرات ثم سألناه فقال: ما ذكر، ثم قال الأعراي: وقد عرفته بصفته، ولما ظهر أمره، أتيت بتازروالت أزوره، فإذا هو الرجل، الذي رأيت في ذلك القفر. وقد عرفني وقال لي أسكت يا أعراي، ثم سافطني بدنانير وقال لي خذها ولا بد ستحتاج إليها، فحاولت بها في التجارة

¹- للوقوف على بعض جوانب هذا الموضوع انظر: الوزان، وصف إفريقيا، ج 1، ص. 120.

²- ونعني بتوجهاته نوره وسمعه اللذين يصبان غرباً في البحر ويمتدان جنوباً إلى بلاد السودان حيث تدق الخادم على مهراسها، قد نجد ما يبرز هذا الانفتاح في موقع تازروالت لكن أيضاً في شهرة الشيخ احمد أوموسى التي فاقت الإطار المحلي لتصل إلى مكة مروراً بولاته" راجع لائحة مريدي الشيخ ببلاد السودان، فمحمد ادفال (اخو ادفال المؤرخ) "رأى ببلد السودان رجلاً فقال له رأيت (أي الشيخ احمد أوموسى) بمكة". انظر: ادفال، مناقب، ص. 3.

^(١) وهي نفس صفات الشيخ احمد أوموسى كما قدمها: التمارتي، الفوائد، ص. 78.

³- السكيتي، تقييد، ص. 2.

⁴- للوقوف على ترجمة الشيخ المانوزي راجع: السوسي، المعسول، ج 12، ص. 43.

⁵- لم يقتصر اهتمام الشيخ احمد أوموسى على توفير الماء لقافلة أهل إفران بل شملت عطاياه واهتماماته قوافل الحجاج العابرة للصحراء، والتي عانت بدورها من قلة الماء والطعام. انظر: الحضيكي، مناقب، ج 1، ص. 2-3.

⁶- السكيتي، تقييد، ص. 1.

حتى نمت بكثير بركته فجاءني بمراكش الرجل الذي ابتاع أصولنا بسجلهامة يطلب ثمنها ففديتها بذلك وما كنت أظن يفعل ذلك أبدا لولا بركة هذا الشيخ"¹. فضلا عن دورة الصدقة التي تبدو لنا بارزة من خلال هذا النص، يتحدد أكثر من ذلك تجاذب الإشعاع بين "سجلهامة" في الشرق و"تازروالت" في الغرب. فالأعرابي قدم من سجلهامة، بعد أن باع أملاكه بها نتيجة إفلاس، زائرا الشيخ احمد أموسى بتازروالت التي ظهر أمره بها. وقد استطاع بفضل الدنانير التي أعطاه إياه الشيخ أن يسترجع ما فقده بسجلهامة من ممتلكات، وكانت وسيلته في ذلك التجارة التي "نمت بكثير بركته"². هذا وإن قراءة أخرى للنص كفيلا بتحديد نقط أساسية هي:

تدهور الأحوال المادية للسائل السجلهاسي³ مما جعله يغادر بلده بحثا عن موارد جديدة. وقد تزامن هذا التدهور وبرز دور الزاوية السملالية بتازروالت كمستقطب للأتباع من جميع الأنحاء وكقطب إشعاعي داخل المنطقة الغربية التي أصبحت تعرف انتعاشا ملحوظا بفضل الشيخ احمد أموسى، الذي لن ينتهي دوره عند هذا الحد، فبعيدا عن المؤشرات الجغرافية (كهاسة وسجلهامة وإفران وبلاد السودان وبلاد القبلة)، التي صادفناها من خلال عرضنا لمناقب أدفال والسكيتي والتمنارتي، وبعيدا عن المؤشرات الموضوعية، (كقوافل التجارة، والخدم، والتجارة والصحراء، وموضع الماء)، التي لها ارتباط أكد بتجارة الصحراء، وردت بالنصوص التي تناولت حياة الشيخ احمد أموسى مؤشرات مادية أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها ومن ذلك المنقبة التالية:

-النص المنقبي الرابع:

يقول الحضيكي، نقلا عن آخرين: "شكا إليه (أي إلى الشيخ احمد أموسى) رجل الفاقة فأخذ شيئا من الرمل فشده في صرة فقال: اذهب به إلى الصائغ فجاء به الصائغ فناوله إياه فوجده تبرا فسككه له"⁴.

يبدو لنا أن هذه الرواية لا تحيل، في معناها الحرفي، على تحويل الشيخ احمد أموسى للرمل إلى تبر⁵، وإنما أخذه السائل معتقدا أنه رمل ولما رآه الصائغ المتبرس وجده تبرا فسككه له. وبما أن زاوية الشيخ توجد في الطريق التجاري الرابط بين إفران جنوبا وماسة وأكادير غربا فإنها تستفيد، ولاشك، من المواد التي ينقلها هؤلاء التجار وفي مقدمتها مادة التبر التي شكلت دعامة رئيسية للقوى المهتمة بتجارة الصحراء خلال ق 16م⁶.

¹ - التمنارتي، الفوائد، ص. 78.

² - نفسه، نفس الصفحة.

³ - وقد يجد هذا التدهور مبرراته التاريخية فيما نقله الوزان، عن التراجع الكبير الذي عرفته سجلهامة نتيجة تراجع خطوط التجارة عنها وكذا نتيجة الضغوط المعقولة الواضحة في المنطقة. راجع: الوزان، وصف إفريقيا، ج 2، ص. 120.

⁴ - الحضيكي، مناقب، ج 1، ص. 8.

⁵ - لا نسعى من خلال تقديم قراءة حرفية لهذه الكرامة نفي الصبغة الروحية عنها ولا التشكيك في قدرات الشيخ احمد أموسى وكراماته، وهي كما قال أدفال: "تجري بها الركبان" ص. 5، وقد تفوق من حيث قدرتها ومحتواها تحويل الرمل إلى ذهب، لكن ما جعلنا نتبنى هذا التحليل بخصوص هذه الكرامة بالذات هو مسابقتها للحقل الدلالي الذي جمعنا مؤشرات الأساسية انطلاقا من مؤلفات أدفال، السكيتي، التمنارتي والحضيكي، وتمكن هذه المسابرة في بروز مصطلح "تبر" الذي يحيل على قاموس معين هو قاموس تجارة الصحراء.

⁶ - لقد تمكن السعديون، خلال القرن 16م من تحويل جزء هام من تجارة الذهب لصالحهم، وحصلوا بمداخلها على الأسلحة الضرورية في حروبهم الجهادية ضد برتغاليي أكادير.

De Castres, Sources Inédites, Portugal III, op.cit, pp. 357-362, Angletere I, p. 466.

الخاتمة

لا نريد لخاتمة هذا الكتاب أن تكون فقط، تجميعاً لخلاصات جزئية أو نهائية طفحت بها الصفحات السابقة، بل نريدها، أيضاً، قراءة فيما قدمناه من معلومات تاريخية عن الزاوية السملالية في النصف الأول من القرن 16م. ولن نتسنى لنا هذه الرغبة ما لم نحاول القفز على بعض "الجزئيات" و"التمهيدات"، التي فرضت نفسها كمرحلة أولى وضرورية من أجل بناء هذا العمل. فحديثنا عن أصول الأسرة السملالية لم يكن ليتأتى لنا لولا الحديث عن التحركات السكانية التي عرفها القرن 14م، والمرتبطة في بعض جوانبها بخراب تامدولت؛ وتتبع البعد الصوفي للزاوية السملالية لا يفصح عن نفسه إلا بمقاربة بعض الأسس المنهجية التي تقوم عليها التربية عند عبد العزيز التباع الجزولي. كما يبقى الخوض في علاقة الزاوية السملالية بالقبائل خلال القرن 14م رهينا بالحديث عن الظرفية العامة الموسومة بالتحول، الكبير، والتداخل بين عناصر محلية وأخرى طارئة، وما جاء في ثنايا حديثنا عن علاقة الزاوية السملالية بالسلطة السعدية من تذكير بموقف السلطة من زوايا الفترة أو من استحضر لأحداث سياسية (كموقف الأعراب من السلطة الجديدة، وحصار البريجة، والمناوشات التركية لبعض الثغور المغربية) فقد فرضه انفتاح الزاوية، نفسها، على هذه الأحداث ومساهمتها في نسج بعضها.

وطرحنا، في هذا المجال، يسعى إلى استخلاص بعض المعطيات المنهجية، التي حققت الخصوصية والتميز للشيخ احمد أموسى كأول قطب بالمنطقة. وكنا في طرحنا لهذه الإشكالية نستحضر، تباعاً، ثلاث معطيات أساسية.

★ الشيخ المؤسس

★ المكان (المقدس): تازروالت

★ الزاوية: كتجمع بشري منفتح على محيط اقتصادي وسياسي واسع.

وغرضنا من ذلك مناقشة أمرين ظلاً يؤرقنا هما: تركيز بعض الدراسات السابقة على تأسيس الشيخ احمد أموسى، في إطار دار إيليج، للجاه الروحي "الرأسالي الرمزي" "Le Capitale Symbolique"، وتخصه فيه، ثم حديث بعضها، الآخر، عن الانفصال الكلي للمتصوفة عن تقلبات المحيط واضعين بذلك حداً فاصلاً بين ما اصطلح عليه "بالمقدس" و"المدنس".

وقد بنينا مناقشتنا لهذين الطرحين على استحضر لمعطيات مادية وروحية طبعت حياة احمد أموسى وتصرفاته. فمقابل ضعف سنده الصوفي المتمثل في ضعف الاتصال والمبني، أساساً، على زيارة القبور، ومقابل جماله للقراءة وللكتابة تطل علينا مقولة كثر استعمالها، وهي الإشادة بتبحره في علوم الباطن.

وتتساءل هنا إن كان هذا التبحر، وحده، كفيلاً يجعل الشيخ احمد أموسى متميزاً عن معاصريه؟

قد يجد القارئ بعض خيوط الجواب مبثوثة في ثنايا هذا العمل، الذي تقوم خلاصاته على نقط وتساؤلات بدت لنا ضرورية. وسنبداً رحلتنا، لإيضاح ذلك، من البدء، ففي البدء كانت سياحة الشيخ احمد أموسى التي ناهزت الثلاثين سنة والتي لم تتجاوز الجنوب المغربي، والصحراء إلا لدخوله خلوة الراشدي الملياني بالجزائر، أو لزيارة قبر عبد القادر الجيلاني بالمشرق. وعدم اتصال سياحته لتفقدته، المستمر، لأهله ببومروان قد يجعلها مقتصرة، في أغلبها، على أماكن غير بعيدة عنها (كسجلاسة، ومسكدادة وتارودانت وماسة...والصحراء). فبومروان بالنظر إلى خريطة المنطقة منفتحة على ثلاث واجهات طبيعية هي جبال الأطلس الصغير، الصحراء والبحر المحيط، وهي نفسها الواجهات الممثلة في النصوص المهمة بسياحة الشيخ، وإن كان معظم النصوص يشير إلى امتدادها في الصحراء.

وإذا سلمنا، انطلاقاً مما قيل، بأن سياحة الشيخ احمد أموسى كانت في الصحراء، هذا مع علمنا بأن سياحة الأولياء والمتصوفة لا تخلو من مقصدية معينة فهي تتوخى بالأسس زيارة الشيوخ والإخوان وإفادة العلم، فما الفائدة التي يمكن للمرء أن يجنيها من سياحته في الصحراء؟

إن أولى الفوائد التي تطالعنا بها الكتب المختصة هي وضع الشيخ احمد أموسى للنواة الأولى لمدرسة الرماية بالجنوب شكل اخوان من بني احمر (هما علي بن ناصر وسعيد بن ناصر) دعامتها قبل أن يتحوّل، فيما بعد، إلى شيخي القبائل المحاربة.

لكن كيف يمكن لهذه المقولة أن تتخذ مصداقيتها في فترة شكل فيها بنو احمر قوة عسكرية ناهزت الثانية آلاف محارب؟ أو بعبارة أوضح، هل كان بنو احمر، على قوتهم، بالمنطقة وتمرسهم بالقتال، الدائم، بين فصائل عرب معقل في حاجة إلى من يعلمهم الرماية؟ أم هل كانوا، فقط، بانتسابهم للشيخ وتلمذهم على يديه، في حاجة إلى من يضيف المشروعية على تنقلاتهم في المنطقة، في فترة لعب فيها العامل الديني دوراً حاسماً؟

ثم إن جولة الشيخ في الأمصار وإطلاعه على العادات واللهجات والألوان، وأنماط الحياة المختلفة كانت موجهه الرئيسي نحو إدراك مفهوم التعامل مع الغير، ولربما كانت سياحته هذه وراء حكمته الماثورة: "اعرف رب الدار ورب البلد فإنك إذا عرفت رب الدار ورب البلد أمنت كلاب الدار وكلاب البلد وإذا عرفت الدار والبلد دون رب الدار ورب البلد لم تأمن الكلاب فإما أكلتك أو منعتك من الوصول إلى رب الدار" (التمناري، الفوائد، ص 69).

فمعرفة الشيخ للقبائل وإطلاعه على أحوالها، خبر قوة قبيلة مجاط "الأمازيغية" التي شكل تحالفه معها دعماً قوياً لها في صراعها الطويل ضد حربيل، وفرصة سانحة لبناء زاويته على أراضيها.

فهل يمكن الحديث، هنا، عن تضافر جهود عربية (عرب احمر) وأمازيغية (مجات) من أجل بناء زاوية الشيخ بالمنطقة؟ وإلا فبماذا يمكن تفسير الانحياش، المستمر والدائم، للقبيلتين، معاً، من أجل خدمة زاوية الشيخ واعتبارها زاويتها الخاصة؟

وتفضي بنا هذه التساؤلات إلى إبداء ملاحظات أساسية:

أولها: جمع الزاوية السملالية في بداية ق 16م بين عناصر متنافرة، وهو أمر قد يتنافى وما هو معروف من انزياح للتصوف المحلي خلال ق 10هـ/16م، جزئياً أو كلياً، نحو إعادة الاعتبار أولاً للعنصر المحلي ضد التحالفات المعقلية المسيحية، إلى درجة كادت معها زاوية الشيخ أن تكون مرتعا لعرب معقل، حيث عبر أحد مريديه من المحليين عن ذلك قائلاً: "حازه العرب عنا" (الفوائد، ص 71-72).

ثانياً: يدعونا الحديث عن علاقة الشيخ احمد أموسى بقبيلتين قويتين، هما مجاط وأحمر، إلى إثارة مسألة أساسية هي "الجهاد". فعلاقة زوايا القرن 16م بالقبائل يحكمها وازع اجتماعي وسياسي هو الجهاد من أجل الحد من تحالفاتها مع المد المسيحي. كما يتضح ذلك فيما تطرحه قوة وصرامة أسلوب الجزولي وتجنيده لآلاف الأتباع من أجل ذلك.

فهل كانت علاقة الشيخ احمد أموسى، وهو أحد مريدي الطريقة الجزولية، بتلك القبائل مبنية على نفس الأساس؟

لم تثبت النصوص المعتمدة ممارسة الشيخ احمد أموسى للجهاد، رغم وقوع زاويته على مشارب مرفأين برتغاليين هما ماسة وأكادير، وموقفه من فتح البريجة جاء صريحاً "لا يأخذوها وإن كان فيها سيدي فلان (أي الشيخ احمد أوبراهيم التمنارتي)" (أدفال، تقييد، ص 14).

فهل أخل الشيخ احمد أموسى بمبدأ الجهاد كأساس من أسس التصوف الجزولي؟

لا يمكننا الجزم في ذلك، خصوصاً وأن النصوص تطالعنا بممارسته للجهاد محلي تمثل في محاربتة لحربيل وإجلائها عن تلك المنطقة.

هناك، إذن، نقطتان أساسيتان تحكمان علاقة الشيخ بحيطه القبلي وتحددان توجهات زاويته:

- الجهاد المحلي: جهاده لحربيل، للفقر، للجوع...

- واستمالة القوى الخارجية: كعرب معقل.

- وقد سعى الشيخ إلى نقل تجربته هذه إلى مريديه، ففراه يدعو إلى استغلال أبسط الأشياء، في التقرب إلى الله، كما سعى، وطنياً، إلى إقناع السلطة بمهادنة جيرانها الأتراك.

وبذلك تتجلى لنا حركته الصوفية لا كتنقيص للسلطة السياسية السعودية، التي التزمت على عهد عبد الله الغالب بتحسين ما بيدها، بل كأساس لها، وهذا يبرر إخضاعه للمحليين والعرب، على حد سواء، لتلك السلطة السياسية.

وإذا كانت سياحة الشيخ قد يسرت الدرب أمامه في اكتساب الأتباع وبناء الزاوية فإنها تبقى، في نظرنا، العنصر الأساسي الذي أكسبه خبرة مزدوجة، تمثلت في تفتنه لأهمية محيط تازروالت كمجال اقتصادي منفتح على حاجيات المحليين والطارئين. وما انتقله، الملحوظ، من بومروان بإداوسملال إلى إيغالن نايت عباس فأضارن-الشيخ فقصر تسيلاً ثم استقراره النهائي بمكانه الحالي، بتازروالت، إلا دليلاً على اطمئنانه إلى إيجابيته. فعلاقة الشيخ إحماد أموسى بالمكان واختباره المتميز له يطل علينا عبر العديد من المأثورات ابتداءً بـ "اعرف رب الدار ورب البلد" (الفوائد، ص 69) ومروراً بـ "إذا مشيتم إلى بلاد الشام التي تذكر لكم بأنواع النعم (...). لم تجدوا فيه قرين بلدتكم في الصحة والبركة والنعمة المباركة" (البعثي، ص 21) وانتهاءً بمقولة الرواية الشفوية "الله إيهنيكم أتمنارت أموزكيف أموستيف" (وداعاً يا تمنارت يا أرض الحريرة والحجارة).

وقد تتبعنا في الفصل الأخير، من هذا البحث، مميزات محيط تازروالت وخلصنا إلى الارتباط الأكيد بين اختيار موقع شكل لأمد طويل بؤرة صراع بين حربيل ومجاط، وبين محاولة إستمالة الطرفين خدمة لأغراض صوفية ولأخرى دنيوية، فما توفره للأمن والسلامة لقوافل التجار عبر الطريق التجاري الرابط بين إفران-تازروالت-ماسة أو أكادير، في مقابل انعدامها في الطريق المار عبر الأحواض الداخلية وخاصة ممر لخصاص، الذي عانى من عرقلة عرب معقل للتجارة عبره، إلا مؤشراً على العلاقة الحتمية بين تقلص ضراوة الصراع بين حربيل ومجاط، بفضل جهود الشيخ، وبين الانتعاش النسبي الذي عرفه هذا الطريق. ولن يخفى على الشيخ إحماد أموسى السملالي التازروالتي، وهو المتمرس بأمور الناس وأحوالهم العارف لحاجياتهم ومشاكلهم، ما تشكله ضرورة التعامل مع عرب معقل من أهمية باعتبارهم مراقبين لطرق القوافل، فهل يمكننا القول، بناء على هذا، إن موقفه من العناصر العربية، بما فيها علاقته بعرب أحمر، ومحاولته إدماجها ضمن محيطه السوسي موقف تكافلي يخدم مصالح الطرفين وسيكون له آثار مستقبلية على الزاوية في عهد حفدة الشيخ.

1-المخطوطات:

- أذفال (أحمد الدرعي السوساني):
تقييد أذفال: مخطوطة الخزانة المسعودية ببونعمان، ضواحي تزنيت، نسخ عبد الرحمان العوفي عام 1322هـ/1904م-1905م.
- البكري (محمد بن عبد الله):
"سلسلة الأنوار للأشياخ الأبرار" نظم البكري، ميكروفيلم خزانة الوثائق بالرباط، جائزة الحسن II، رقم 887،
تارودانت سنة 1972.
- التاتلي:
مناقب محمد بن يعقوب التاتلي، مخطوطة خزانة المختار السوسي بتزنيت.
- التزكييني (أحمد بن عبد الرحمان):
رسائل التزكييني إلى الشيخ احماد أوموسى، نسخة خاصة، وتوجد نسخة أخرى بالخزانة العامة بالرباط، قسم
الوثائق، رقم 2079/9 د ضمن مجموع من ص 334 إلى ص 347، كتبه، إبراهيم بن محمد بن يعقوب وبه أكل أرضة.
- التمارتي (أبو زيد عبد الرحمان):
الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، مخطوط مصور بخزانة كلية الآداب بالرباط تحت رقم 02.964 م خ تـن.
- الحضيكي:
مناقب الشيخ احماد أوموسى، من نسخ محمد ابن اليزيد، ميكروفيلم دار الوثائق بالرباط، رقم 999.
- الخميسي (محمد بن محمد عبد الكريم):
تقييد في الرماية، ميكروفيلم كلية الآداب بالرباط، رقم 286.
- الرسموكي (أبو يعزى أحمد):
الجمهرة السوسية في أنساب أهل سوس، مخطوطة خزانة المختار السوسي، رقم د.م 291.
- الزياني (أبو القاسم):
الترجمان المغرب على دول المشرق والمغرب، مخطوطة دار الوثائق بالرباط، رقم 658 د.
- سجل بودميعة:
كناش رقم 1 المسمى ديوان البيوعات، خزانة الاستاذ بودميعة البخاري بإيلغ.
- السكتاني (أبو المهدي عيسى):
النوازل، مخطوطة خزانة محمد العثماني يانزكان.
- السكيكي (محمد بن عبد الله):
تقييد، مخطوطة الخزانة البونعمانية، بضواحي مدينة تزنيت، نسخ عبد الرحمان العوفي البعقلي، عام
1322هـ/1904م-1905م.
- سلسلة نسب الشيخ الجزولي:
ميكروفيلم خزانة الوثائق، جائزة الحسن II، تارودانت 78، رقم 887.

- القادري (محمد العربي بن الطيب):
الطرفة في اختصار التحفة، مخطوطة خزنة الوثائق بالرباط.
- الكرامي (داوود بن علي بن محمد السملالي):
بشارة الزائرین الباحثين في حكاية الصالحين، مكروفيلم خزنة دار الوثائق بالرباط، جائزة الحسن II لسنة 1972، رقم 319.
- الماسي (أحمد بن إبراهيم):
مخطوطة حول الرماية، مخطوطة خزنة إلغ بتازروالت.
- مجهول:
مجموعة في أخبار الشيخ سيدي احمد أوموسى، يقال إنها من تأليفه، مخطوطة الخزنة المسعودية ببونعمان بتزنت.
(بدون تاريخ).
- وثيقة خاصة تبرز السند الصوفي للشيخ احمد أوموسى، خالية من اسم الناسخ والتاريخ.

2- المصادر المطبوعة:

- الإفرائي (محمد الصغير بن الحاج المراكشي):
صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، طبعة حجرية، بدون تاريخ.
- البكري (أبو عبد الله عبد العزيز بن محمد):
المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى ببغداد، (بدون تاريخ).
- البعقيلي (محمد بن أحمد المرابط):
مناقب البعقيلي، حققه وهياؤه للطبع المختار السوسي، طبع رضى الله عبد الوافي السوسي، سلسلة مصادر المعسول 1، الطبعة الأولى، 1408هـ/1987م.
- البيدق (أبو بكر):
أخبار المهدي بن تومرت، وبداية دولة الموحدين، الرباط، 1971م.
- الحضيكي (أبو عبد الله الشيخ محمد بن أحمد):
مناقب الحضيكي (طبقات). المطبعة العربية برحبة الزرع القديمة بالباب الكبير، الدار البيضاء، 1357هـ.
- ابن خلدون (عبد الرحمان):
مقدمة، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة IV، (بدون تاريخ).
- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، القسم I، الطبعة الثالثة، بيروت، 1967.
- الرسموكي:
وفيات الرسموكي، حققه وهياؤه للطبع المختار السوسي، سلسلة مصادر المعسول رقم 2، الطبعة الأولى، 1988م.
- طوريس (ديكودي):
تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، الدار البيضاء، 1988.
- الفاسي (محمد المهدي):
متع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع ومالهما من الأتباع، تحقيق وتعليق عبد الحي العمراوي، عبد الكريم مراد، طبعة 1989م.

- الفاسي (العربي):
مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، طبع على الحجر بفاس، 1324هـ/1906م.
- الفشتالي (عبد العزيز)
مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1972.
- ابن القاضي (أحمد بن محمد أحمد):
درة المجال في غرة أسماء الرجال، نشر وتصحيح ب-س-علوش، المطبعة الجديدة- نهج المأمونية- رباط الفتح، 1934م.
- مارمول (كربخال):
إفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، الرباط، 1989م.
- المجهول:
تاريخ الدولة السعودية الدرعية التكميلية، نشر كولان (ج) المطبعة الجديدة، رباط الفتح، 1934م.
- المراكشي (العباس بن إبراهيم)
الإعلام بمن حل مراكش وأغمت من الأعلام، المطبعة الملكية، الرباط، 1974م.
- المنجور (أحمد):
فهرس، تحقيق محمد حجي، الرباط، 1976م.
- الوزان (الحسن):
وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت، 1983م.
- اليعقوبي (أحمد):
كتاب البلدان، منشورات المطبعة الحيدرية (بدون تاريخ).

3- التاريخ العام وكتب الانساب:

- البعقلي (الحاج الحسن):
تبيين الأشراف أهل دائرة الوسائل وقبيلة كل سائل، المطبعة العربية، برجة الزرع الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1358هـ.
- السوسي (محمد المختار):
إبليغ قديما وحديثا، هياها للطبع وعلق عليه محمد ابن عبد الله الروداني، المطبعة الملكية، الرباط، 1966م.
سوس العالمة، مطبعة فضالة، المحمدية، 1960م.
خلال جزولة، تطوان، 1361هـ.
- رجالات العلم العربي من القرن الخامس الهجري إلى منتصف القرن 14هـ، الطبعة الأولى، طنجة 1989.
المعسول، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1962م، جميع الأجزاء.
- المؤقت (محمد):
الاستبصار لأخبار دول المغرب الأقصى، ج5-6، دار الكتب، الدار البيضاء، 1955م.
طلعة المشتري في النسب الجعفري، المؤسسة الناصرية للثقافة، سلا، 1987م.

4- المراجع بالعربية:

- أفا (عمر):
مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر (سوس 1822-1906)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، 1988م.
- إيكلمان (دال.ف):
الإسلام في المغرب، ج 1، ترجمة محمد أعفيف، دار توبقال للنشر، 1989م.
- حجي (محمد):
الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج 1-2، المحمدية، 1978م،
الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، المطبعة الوطنية، الرباط، 1964م.
- الشاذلي (عبد اللطيف):
الحركة العياشية، حلقة من تاريخ المغرب في القرن 17م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1982م.
- مزين (محمد):
فاس وباديتها، مساهمة في تاريخ المغرب السعدي 1549م-1637م، ج 1-2، الطبعة الأولى، 1986م.
- ناعمي (مصطفى):
الصحراء من خلال بلاد تكنة، تاريخ العلاقات التجارية والسياسية، منشورات عكاظ، 1988م.

5- الرسائل الجامعية:

- بابا (أحمد):
كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، دراسة وتحقيق محمد مطيع، رسالة جامعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1987م، (مرقونة).
- بنعلا (مصطفى):
مجموعة وافية بالرسائل السعدية، دراسة وتحقيق مصطفى بنعلا، رسالة جامعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1989م، (مرقونة).
- بوكاري (محمد):
زاوية أبي الجعد: الزاوية الشرفاوية، رسالة جامعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1984م، (مرقونة).
- الخليفتي (محمد بن عبد الله):
الدرة الجليلية في مناقب الخليفة، دراسة وتحقيق، عمالك (أحمد)، رسالة جامعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1986م، (مرقونة).
- الشاذلي (عبد اللطيف):
المجتمع المغربي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر من خلال الآداب الصوفية، أطروحة جامعية لنيل دكتوراه الدولة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1987م، (مرقونة).
- الشراط (محمد بن عيشون):

- الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، دراسة وتحقيق النظام زهراء، رسالة جامعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1989م، (مرفونة).
- الصومعي (أحمد بن أبي القاسم):
كتاب المعزي في مناقب الشيخ ابن يعزي، دراسة وتحقيق علي الجاوي، رسالة جامعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1989م، (مرفونة).
- مرزاق (محمد):
الشيخ محمد بن أبي زيان وزاويته، رسالة جامعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، (مرفونة).
- المازوني (محمد):
آل أمغار في تيط وتامصلوحت، رسالة جامعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1986م، (مرفونة).
- مفتاح (محمد):
التيار الصوفي والمجتمع في الأندلس والمغرب أثناء القرن 8هـ/14م، ج 1، رسالة جامعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1981م، (مرفونة).
- الناصري (محمد المكي):
الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة، تحقيق محمد الحبيب نوح، رسالة جامعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1988م، (مرفونة).

6- المقالات بالعربية:

- أفا (عمر):
مادة "أوتام"، معلمة المغرب، ج 2، ص ص 635-637.
- إيكلمان (دال.ف.):
"جوانب من التنظيم السياسي والاقتصادي لزاوية مغربية في القرن 19"، ترجمة معروفي عبد الغني، مجلة دار النيابة، السنة الأولى، العدد الثالث، صيف 1984م، ص ص 26-28.
- باسكون (بول):
"اغتيال هاشم زعيم دار إيلينغ"، مجلة أبحاث، العدد 3، 1983م، ص ص 17-27.
- بن حادة (عبد الرحيم):
"النشاط الاقتصادي بسوس خلال القرن 16م"، ضمن أعمال ندوة أكادير الكبرى، المحور التاريخي، منشورات جامعة ابن زهر، أكادير، 1990م.
- التوفيق (أحمد):
مادة "إداوبعقل"، معلمة المغرب، ج 1، ص 221.
مادة "أحمر"، معلمة المغرب، ج 1، ص ص 177-178.
مادة "إداولتيت"، معلمة المغرب، ج 1، ص ص 228-229.
مادة "إداوسملال"، معلمة المغرب، ج 1، ص 227.
- جلاب (حسن):
"الحركة الصوفية"، منشورات الجامعة الشتوية يفرن، 1988م.

"ظهائر سعدية في توقيير واحترام شيوخ الزاوية البوعمرية بمراكش"، مجلة دار النيابة، العدد 21، السنة السادسة، شتاء 1989، ص ص. 13-22.

- حجي (محمد):

مادة "أحمد الأعرج"، معلمة المغرب، ج 1، ص. 159.

مادة "أدفال"، معلمة المغرب، ج 1، ص ص. 284-285.

"المؤسسات الدينية بالمغرب في القرنين 16م و17م"، مجلة المناهل، العدد 18، السنة 7، يوليو 1980م، ص ص. 112-128.

- حمودي (عبد الله):

"الاتسامية والتراتب الاجتماعي والسلطة السياسية والولاية: تأملات حول مقولات كيلنر"، ترجمة محمد الأمين البزاز وعبد العزيز التسماني خلوق، مجلة دار النيابة، العدد 5، 1985م، ص ص. 38-55.

- شفيق (محمد):

"في أن أسماء الأماكن جلهما أمازيغية"، مجلة البحث العلمي، العدد 27، يناير-يوليو 1977م.

- صدقي (علي):

"النسب والتاريخ وابن خلدون"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد 11، 1985م، ص ص. 47-83.

- القبلي (محمد):

"مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد 43 (عدد مزدوج)، 1978م، ص. 59.

- لوتورنو:

"الزياني وتأريخه للدولة السعدية"، تعريب عبد الرحمان بن عبد الله، مجلة دعوة الحق، العدد 2، السنة الثانية عشر، 1969م، ص ص. 72-73.

- معلمة المغرب:

الأجزاء: 1-4، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، 1410هـ/1989م.

- ناعمي (مصطفى)

مادة: "احمد أوموسى"، معلمة المغرب، ج 1، ص ص. 161-164.

مادة "إزركين"، معلمة المغرب، ج 1، ص ص. 339-340.

مادة "أسا"، معلمة المغرب، ج 2، ص ص. 337-339.

مادة "إليغ"، معلمة المغرب، ج 1، ص. 622.

- الوثائق، مجموعة وثائقية دورية تصدرها مديرية الوثائق الملكية، المجموعة الثالثة، المطبعة الملكية، الرباط، 1976م.

7- المصادر الأجنبية:

- De castries (H.de),

Les sources inédites de l'Histoire du Maroc; 1ère série: Dynastie Saadienne,
Archives et bibliothèque de France, Bibliographie et index général. Paris. P.
Geuthner, 1926.

- Chronique de Santa-Cruz Du Cap de Gué (Agadir), Texte portugais du XVIe siècle,
traduit et annoté par Pierre de Cenival, Paris, 1934.
- Damio de Gois,
les Portugais au Marocde 1495 à 1521, extrait de la «chronique du Roi D. Manuel de
Portugal», Éditions Moncho, 1937.
- Fernandes (valentin),
Description de la cote d'Afrique de ceuta au Sénégal (1506-1507), Paris, 1938.

8- المراجع بالفرنسية:

- Abitbol (M),
Tombouctou et les Arma, Maison neuve, 1979.
- Basset (R),
Relation de sidi Brahim de Massat, traduite sur le texte chelha et annotée par Basset,
Paris 1883.
- Berthier (P),
Les Anciennes sucreries du Maroc et leurs Reseaux hydrauliques, T I.II, Rabat, 1966.
- Caillé,
La représentation diplomatique de la France au Maroc, APedone, Paris, 1951.
- Le chatelier (A),
Tribus du sud-ouest Marocain, Paris, 1981.
- Cour (A),
L'Etablissement des dynasties des chérifs au Maroc, 1509-1830, Paris, 1904.
- Drague (G),
Esquisse d'Histoire religieuse du Maroc, J.Peyronnet et Cie Edition, Paris, 1951.
- Faucauld (Ch-Dela),
Reconnaissance Au Maroc 1883-1884, Paris, 1888.
- Gellner (E),
saints of Atlas, london and Nicolsen, 1969.
- Justinard (L)
Fawaid Al jamma bi Isnadi Ouloumi Al Oumma, sidi Abderrahman ben Mohamed
Abouzid, chartres, 1953.
- Justinard,

- Un petit Royaume berbère Le Tazeroualt: Un Saint Berbère Sidi Ahmed ou Moussa, imprimé par l'imprimerie Durand, France, 1954.
- Laoust (E),
Contes Berbère du Maroc, Paris, 1927.
 - Laroui (A),
les origines Sociales et Culturelles du Nationalisme Marocain (1830-1912), François Maspero, 1977.
 - Meunie (D-J),
le Maroc Saharien des Origines à 1670, TI- II, Paris Klincksieck, 1982.
,Greniers Citadelles au Maroc, Paris 1951. 2 Tomes,
,sites et Forteresses de l'Atlas, Paris, 1951.
 - Mezzine (L),
le Tafilalet; Contribution à l'Histoire du Maroc aux XVIIe et XVIIIe Siècle
Casablanca, Inprimerie Najah el jadida, 1987.
 - Monteil (V),
Notes sur Ifni et Ait Ba-Amràn, Edition larose, Paris, 1948.
Notes sur les Tekna,Éditions Larose, Paris, 1948.
 - Morsy (Magali),
Les Ahansala; Examen du Rôle Historique d'une famille Maraboutique de l'Atlas
Marocain au XVIIIe siècle, Monton, Paris, 1972.
 - Pascon (P),
le Haouz de Marrakech, T I-II, Rabat, 1977.
 - Pascon (P), ENNAJI (M),
le Makhzem et le sous al-aqsa, les Correspondances politique de la Maison d'Iligh
1821-1894, Paris- Casablanca Toubkal, 1988.
 - Pascon (P),
la Maison d'Iligh et l'Histoire Sociale du Tazeroualt, SMER, 1984.
 - Roux (A),
Récits Contes et légendes berbères en Tachelhit, Rabat, le 30/10/1942.
 - Spillman (G),
Trois Zaouias berbères du Maroc Central; Dila, Ahnsal, Imhiouach, (S.L), (S.E),
1938.
 - Le Tourneau (R);
Les Débuts de la Dynastie Sadienne jusqu'à la mort du sultan M'hammed ech-
cheikh (1557), Institut d'étudessupérieures islamiques d'alger, 1954.

- Zakari Dramani (I),
l'Afrique Noire Dans les Relations Internationales au XVIe siècles, karthala, 1982.

9- رسائل جامعية بالفرنسية:

- ENNAJI (M),
L'Exponcion Europeenne et le Maroc du XVIe au XVIIIe siècles, Mémoire pour le Diplôme d'études supérieures en Sciences Économiques, Faculté des Sciences Juridiques Économique et Sociales, Rabat.
- Tamouh (Z);
le Maroc et le Soudan au XIXe siècles 1830-1894, T I, Université de Ponthion Sorbonne, U.E.R 09, Paris, 1982.

10- المقالات بالفرنسية:

- Berthier (P),
«L'Archéologie Source de l'Histoire Économique», Hesperis-Tamuda, VII, 1966, pp. 33-40.
- Bourguignon,
«Renseignement sur la Région de Tiznit», in Archives du Services Historique de l'Armée, maroc, 31.7.1913.
- Devisse (J),
«Routes de Commerce Et Échanges en Afrique occidentale, En relation avec la Méditerranée. un essai sur le commerce Africain Médiéval du XI au XVIe siècle», Revue d'Histoire Economique et sociale, TI-II, 1972, pp. 42-73 et pp. 357-397.
- Bodin (M),
«la zaouia Tamergrout», in Archives berberes, 1918, pp. 259- 295.
- Celevier (J),
«le Maroc, pays du Sucre et de l'or», in France-maroc, Septième Année N° 79, Juin 1923, pp. 113-115.
- Cenival (P), et la chappelle (F. de),
«Possessions Espagnoles sur la Cote Occidentale d'Afrique, Santa-cruz de marpequena et Ifni», Hesperis, 2 et 3 trimestre, 1935, pp. 19-77.
- Chaumeil (J),
«Histoire d'une tribu Maraboutique de l'Anti-Atlas; les AitAbdallah ou Said» Hesperis, 1^{er} et 2eme trimestre, Année 1952, pp. 197-212.
- Colin (G),

- «Mauritanie» Hesperis, XI, 1930, pp. 141-143.
- Gabriel (G),
«Ulysse, le cyclope et berbères», in Revue de littérature Comparée, 15eme année, N° 4, octobre-décembre 1935, p. 76.
 - Hammoudi (A),
«Sainteté, pouvoir et société, Tamgrout aux XVIIe et XVIIIe siècles», in Annales Économies Sociétés civilisations, Mai-Aout 1980, p 615- 641.
 - Justinard (L),
«Notes sur l'Histoire du Sous au XIXe siècle», in Hesperis, volume VI, 1926, pp. 351-364.
«Notes D'Histoire et de littérature berbères», Hesperis, volume V, 2^e trimestre, 1925, pp. 227- 238.
«Notes D'Histoire et de littérature berbères», Hesperis, , 3^e et 4^e trimestre, 1928, pp. 321-332.
«Poèmes chleuhs recueillis au Sous par Justinand», in Revue du Monde Musulman, L X, Second trimestre, pp. 63-107.
 - Laoust (E),
«Sidi HAMED ou Moussa dans la cavene du cyclope», Hesperis, Tome I, 1921, pp. 91-92.
 - Lessard (J.M),
«Sijilmassa: la ville et ses relations Commerciales au XIe siècle d'après El Bekri», Hesperis, Tamuda, Vol X, 1969, pp. 33-34.
 - Mauny (R),
«l'Expédition Marocain d'Oudane (Mauritanie) vers 1543-1544», in bulletin de l'institut Fondamental d'Afrique Noire, 1949, p. 129.
«Tableau Géographique De l'ouest Africain au Moyen Age d'après les Sources Ecrites, la tradition et l'Archeologie» in I FAN, N° 16- Dakar 1961.
 - Michaux – Bellaire (E),
«Essai sur l'Histoire des Confreries Marocaines» in Hesperis 1921, p 141-149.
 - Michaux – Bellaire (E),
«Conférences Faites au Cours Préparatoire du Service des Affaires Indigènes», in Archives Marocaines, volume XXVI, 1927.
 - Michaux – Bellaire (E),
«Quelques Tribus de la Région du Habt» in Archives Marocaines vol XVII, p 73.
 - Monteil,

- «Choses et Gens du Bani», in Hesperis 1946; p 385.
- , «les Juifs D'Ifran (Anti-Atlas Marocain)», in Hesperis 1948 p 151 à 161.
- Pascon (P),
 - «le commerce de la maison d'Iligh, d'après le registre comptable de Husayn B, Hachem, Tazerwalt 1850-1875» in Annales E.S.C N° 3-4, Mai Aout 1980, p 700, p 729.
 - Ricard (Robert),
 - D.P.Perrerra: «la Cote Atlantique du Maroc au début du XVIe siècle, d'après des instructions Nautiques portugaises» in Hesperis 1927, p 229-258.
 - Rosenberger (B) et triki (H),
 - «Famines et Epidemies au Maroc aux XVIe et XVIIe siècles» in Hesperis-Tamuda 1973-1974, p 109-175.
 - Rosenberger (B),
 - «Tamdult, Cité Minière et Caravaniere du IXe au XVIe siècle,» Hesperis-Tamuda, 1970 vol XI, p 103-140.
 - Roux (A),
 - «les Aventures Extraordinaires de Sidi HMAD-U-MUSA, Patron du Tazeroualt». Hesperis Tome XXXIX, 1952, p 75-p 96.
 - Salman (G),
 - «L'opuscule du chaikh Zemmory sur les chorfa et les tribus du Maroc», in Archives Marocaines, T II paris 1974.
 - Salman (G),
 - «Quelques Légendes Relatives à Moulay BouSelham» in Archives Marocaines 1927, p 412-421.

محتويات الكتاب

3.....	تقديم
4.....	مقدمة
22.....	الفصل الأول: الزاوية السملالية: الشيخ المؤسس
23.....	I / أصول الأسرة السملالية التازروالتية
24	1- المرحلة التامدولتية
25.....	2- المرحلة البومروانية
26.....	II / الزاوية السملالية: الشيخ احماد أموسى
26.....	1- ولادته
26.....	2- سياحته
28.....	III / اتصاله بالطريقة الجزولية
28.....	1- خطوط عريضة
29.....	2- مراحل الاتصال
30.....	3- الأذكار والأدعية
32.....	الفصل الثاني: الزاوية السملالية آليات التأسيس
33.....	I / الزاوية السملالية: ظروف التأسيس
33.....	1- انتقال الإشعاع الصوفي من بومروان إلى تازروالت
34.....	2- ظهور الشيخ احماد أموسى بتازروالت
34.....	3- موقع تازروالت
36.....	4- مراحل استقرار الشيخ بالمجال الجديد
38.....	II / تأسيس الزاوية السملالية بتازروالت
38.....	1- موضع الزاوية
39.....	2- أدوار الزاوية
47.....	3- موارد الزاوية
50.....	الفصل الثالث: تجليات انفتاح الزاوية على محيطها القبلي
51.....	I / الزوايا والقبائل خلال القرن XVI م

51.....	1- تحركات القبائل في منطقة سوس في بداية القرن XVIم
52.....	2- تفاعلات زوايا سوس مع حركة القبائل
53.....	II / علاقة الزاوية السملالية بمحيطها القبلي
53.....	1- علاقتها بإداور كرسموك
53.....	2- علاقتها بالقبائل العربية
55.....	3- علاقتها بإداو بعقيل
55.....	4- علاقتها بقبيلة مجاط
63.....	استنتاجات
59.....	الفصل الرابع: علاقة الزاوية السملالية بالمخزن السعدي
61.....	I. الزوايا والمخزن السعدي-نظرة عامة
61.....	II. علاقة الشيخ احمد أموسى بالسلطة السعدية
62.....	1- انتقاله من السلمية الاجتماعية إلى ممارسة النشاط السياسي
62.....	1-2- علاقة الشيخ بأحمد الأعرج
63.....	1-3- علاقه بمحمد الشيخ
64.....	2- علاقه بعبد الله الغالب
70.....	الفصل الخامس: مظاهر انفتاح الزاوية السملالية على الصحراء وتجارتها
72.....	I / ظهور تازروالت على ساحة الأحداث خلال ق 16م
75.....	II / الإشعاع الاقتصادي لتازروالت
80.....	III / دور الشيخ احمد أموسى في تنمية تجارة الصحراء
82.....	خاتمة
86.....	لائحة بلوغرافية